كلمة وحدث

في

تقرير مصير

بقلم الأب

الياس زحلاوي

2018

كلمة و حدث في تقرير مصير

بقلم الأب الياس زحلاوي

2018

كلمَــــة وحَــــدَث

في

تقرير مصير

الأب الياس زحلاوي

الأب الياس زحلاوي

كلمَة وحَدَث

في

تقرير مصير

2017

حقـوق الطبـع محفوظـة للمؤلف

الطبعـة الأولى

2017

ترخيص الطباعة

وزارة الإعلام

الجمهورية العربية السورية

إهـــــداء

1) جاك فيش (Jacques FESCH)

هو شابٌ فرنسي، ولد في باريس عام 1930، وقضى فيها عام 1957.

كان والده مديراً لأحد المصارف في باريس، وكان واسع الثقافة، بالغ القسوة في البيت، صريح الإلحاد. أما أمّه، فكانت مؤمنة، وقد تأثر بها قليلاً، غير أن أجواء الشبيبة آنذاك، اجتذبته إليها. تابع دراسته الثانوية، وتزوج وهو ما يزال بعد طالباً. ثم أدّى خدمة العلم من عام 1950 إلى 1951. وفي عام 1954، حاول سرقة محل أحد الصيارفة في باريس. وخلال مطاردته، أطلق النار على أحد الشرطة، فقتله. واعتقل وسجن، وصدر بحقه حكم بالإعدام، ونفذ الحكم بقطع الرأس على المقصلة في 1957/10/1.

ما يجب ذكره أنه، خلال اعتقاله، انقلب شيئاً فشيئاً، انقلاباً روحياً جذرياً. فبات، وهو في السجن، أشبه بالصوفِي المتحرق للقاء ربّه. وقد دوّن كل ذلك في رسائله ويومياته.

أنقل هنا إلى العربية، بعضاً من هذه الرسائل، وأختم بالأسطر التي كتبها في دفتر يومياته، قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه.

أما الرسائل، فتؤلف كتلتين متميّزتين:

الأولى منها، كتبت خلال فترة اعتقاله...

والثانية كتبت ليلة تنفيذ حكم الإعدام فيه...

1- الكتلة الأولى

1. إلى الكاهن مرشد السجن: (ص 23- 27)

« أشعر بأني لم أكن يوماً حرّاً، حرّاً قادراً على اختيار هذه الطريق أو تلك. كنت ضعيف الطباع، هشّ الإرادة، رخواً، مستسلماً لكل ما هو سهل، ولحاجاتٍ ولّدتها لديّ حياةٌ لم تكن مترفة، ولكن على قدرٍ من البحبوحة، لم تُتِحْ لي الاحتكاك بالواقع القاسي، الذي كان الكثيرون يعانون منه. وإني لأعتقد بأن ما ألزمني بطريقة تعاملي مع الأشياء، كان التربية التي نشأتُ عليها. ولست أرى أني أفضح سرّاً، إذا كشفت أمراً بات يُعرف على رؤوس الأشهاد، وهو أن والديّ كانا على خلافٍ دائم. وقد نجم عن ذلك في البيت، مناخ عائلي فظيع، يتخلّله ما يشبه العداء في اللحظات القاسية، والحرج والتشنج بعدها. لم يكن في بيتنا لا احترام، ولا حبّ.

كان والدي رجلاً جذّاباً في تعامله مع الغرباء، ويمارس في البيت نقداً جارحاً، متعالياً، وقحاً. وكان مُلحّاً إلى أبعد الحدود، فيشعر بالقرف إزاء الحياة، التي لم تجلب له سوى خيباتٍ وإحباطات، على الرغم من نجاحه في مهنته. وأنا منذ نعومة أظفاري، تشربت مبادئه. بالطبع، لم يكن بوسعي أن أفعل سوى ذلك. ولما بحثت عن أمثلة حولي تمثّلتُ سلوك والدي، الذي كان دوماً الأقوى. وباختصار كنتُ وقحاً، خالياً من كل أخلاق، مليئاً بالاحتقار للناس...

كنت أعرف من زمان بعيد، أن نهايتي ستكون سيئة، وكنت أتوقع بوضوح كبير، أني، إذا ما أتيح لي يوماً أن أستسلم لتزواتي، لن يمكنني التصرف باستقامة: كنت قلقاً، مضطرباً، تعيساً إلى أبعد الحدود. وتزوجت، أولاً لأن زوجتي كانت حاملاً، ثم لأني وجدت في عائلتي الجديدة، شيئاً من الدفء...

وأنا ما كنت أحب زوجتي، بل كنت على وفاق معها، ولكن في صداقة. كنت أحب طفلتي. ولكن ما قيمة الطفل، إذا ما كنتَ في العشرين، ولا يلجمك أي ضابط أخلاقي؟

انفصلت عن زوجتي، لأن أمي طلبت مني ذلك، أولاً لأسباب عرقية، ولكن خصوصاً لأنها أدركت أننا لم نكن منسجمين البتّة. وهي، في ذلك، كانت على حق. ويتوجب عليّ أن أعترف أني، في نهاية المطاف، سواء تدخلت أمي أم لا، كنت سأنفصل عن زوجتي.

ووجدتني وحيداً عند أمي، عرضةً لاضطراب أعمق، نجم عن هذا الاختبار الحياتي، الذي تركني في مرارة. ويومها كان أبي قد تخلى عن جميع مسؤولياته حيال أسرته، إذ كان قد هجر البيت، ومضى يعيش وحيداً، في مكانٍ ناءٍ. كانت أمي تفتقر إلى الدفء، والحميمية، نتيجة سنوات الزواج، ولكنها كانت شجاعة ومضحّية. فعشنا كالسابق، غريبين، يحب أحدنا الآخر، ولكن في حرج من تواجدنا في بيت واحد. وقد حاولتْ أن تساعدني... وحاولتُ من جهتي أن أشتغل. ووجدت عملاً طوال شهر. إلا أني، إبان فشلي الأول، تخليت عن كل شيء. وكانت تلك بداية انجرافي في حتميةٍ لم أُشفَ منها، لم تكن عمياء، ولكنها كانت تعرف جيداً أين ستقودني.

أكنتُ حرّاً؟ كلا، لم أكنْ حرّاً. كان كل شيءٍ يدفعني إلى الهرب، إلى انتهاج الطريق العريضة التي تقود إلى الهاوية. وكان الحبل، كل يوم، يضيق عليّ الخناق. لقد كنت إنساناً مطارداً. كانت زوجتي هي التأنيب الحي لتخليّ عنها. وانتهى الأمر بأمّي، بعد اكتشافها فشلي، إلى أنها طردتني من بيتها. والشركة التي أعمل فيها، استخدمتُ أموالها لشراء سيارة، لي...

ماذا عساني أفعل؟...

سيقولون لي: الأمر بسيط: بِع السيارة، وأعد الأموال إلى أصحابها، عد إلى زوجتك، ثم ابحث بكل تواضع عن عمل...

ولكن من أين لي بتلك القوة الهائلة لأفعل ذلك، وهي تتجاوزني بالكلية؟ أمن العدمية التي نشأت عليها؟ ولَم تراني أضحّي، طالما أن الفوضى النهائية ستبتلع كل شيء، وأنه ما من شيء، صالح أو شرير، له قيمة في هذه الحياة، سوى الأحاسيس؟

... قررت السرقة، لأن هذه الفعلة كانت تندرج بصورة طبيعية في طريقة تصوّري للحياة. وأنا لم أصبح مجرماً في هذا اليوم، بل كنت مجرماً من زمان بعيد. وإني لم أفعل سوى تطبيق ما كان كامناً في أعماقي... كان محكوماً علي، عاجلاً أم آجلاً، أن أفعل ما فعلت، ما لم أكن، في هذه الأثناء، قد وجدت هدفاً نبيلاً، لا لأن السرقة كانت تستهويني، بل لأني كنت بحاجة حقاً إلى هدف يختلف عن كل ما هو طموحات مادية: لقد كان بقدرة أتفه الأمور أن ينقذني... »

2. في رسالة إلى صديقه الراهب، بتاريخ 1955/4/26: (ص33-34)

« ...

شيئاً فشيئاً، وجدتني أعيد النظر في مفاهيمي. فقدت اليقين بوجود الله. ودون أن أكون مؤمناً، أخذت أنفتح على العالم. وحاولتُ أن أؤمن بعقلي، دون اللجوء إلى الصلاة، إلا قليلاً جداً... وبعد مرور عام على اعتقالي، واجهت أزمة عاطفية بمنتهى القسوة، وقد سببت لي ألماً عظيماً، وفجأة وجدتني خلال ساعات أمتلك الإيمان، في يقين مطلق. لقد آمنت، ولم أكن أفهم كيف أني كنت غير مؤمن. فلقد زارتني النعمة، واستولى عليّ فرح عظيم، وعلى الأخص سلام عظيم. في لحظاتٍ قليلة، كان فرحاً ملموساً بالغ القوة. قد أميل الآن إلى استعادته، مع أن الشيء الجوهري، إنما هو الإيمان، لا الشعور.

... يؤسفني ألا أكون أجبتك على رسالتك الطويلة في الماضي. ولكني، حينئذٍ، لم أكن أشعر بما كنت تحدثني عنه. والآن فأنا مؤمن، وأنا أثق بالله!

شكراً لك من كل القلب، من أجل صلواتك الكثيرة. لتحمل لك كلمتي الوجيزة هذه بعض الفرح.

سأكتب لك فيما بعد.

أخوك في الله: جاك »

3. في رسالة إلى الراهب نفسه، بتاريخ 1955/6/8: (ص 34-37)

« أخي العزيز،

...

تناولت القربان للتو، وأنا في فرح غامر.

"لست أنا أحيا، بل المسيح يحيا فيّ!"

الآن أملك اليقين بأني أخذت أحيا للمرة الأولى. أنا في سلام. وفزت بمعنى وجودي، فيما لم أكن في الماضي، سوى ميتٍ في الحياة...

... لكم من شرٍّ فعلت في مَن حولي، بسبب أنانيّتي وانعدام الوعي لديّ. لقد غمرني الله بنعمه، وأعطاني أخاً أحبّه! أتدري، فأنا كل يوم أعيد قراءة رسائلك إليّ، وأستمد منها قوة عظيمة. إن طيفك لا يفارقني، وأنا على ثقة أننا، بعد بضع سنوات، سنلتقي وجهاً لوجه: "لقد رأيت أخاً لك، فأنت رأيت الله!". قلت لي في رسالتك الأخيرة، إنك ستحمل لي القربان، أينما كنتُ. هل تعتقد أن ذلك سيتاح لك؟ وعندها، لكَم سأكون سعيداً!

أخي العزيز،

سألتني أن أشرح لك كيف ومتى وجدت إله الحب. يتوجب عليّ أولاً، أن أشرح لك ما كنت، كي تفهمني على نحو أفضل. طوال السنوات الست أو

السبع، التي كنت أسوق فيها حياة كفر، فعلت شروراً. أجل، شروراً كثيرة، لا بدافع شهوة الأذى، ولكن نتيجة افتقاري إلى الوعي، وأنانيّتي وقحطي. كنت عاجزاً عن الحب. الأب والأم والزوجة والطفل الخ... كل ذلك ما كان ليعنيني في شيء... كنت خالياً من كل حياة... "من لا يحب، يقيم في الموت" (رسالة يوحنا الأولى 3/13–18)... كنت على يقين من عدم وجود الله. كنت أجهله كلياً. وعندما كان أحدهم يحدثني عن الله، كنت أجيبه: "هو أسطورة جميلة، هو عزاء للمتألمين، إنه يدعو لديانة العبيد والمظلومين..."

أخي الصغير،

لا يسعني تجاوز الأسطر الستين المحدّدة للرسائل، وأنا مكره على مغادرتك. أتحد معك كل صباح، أثناء ساعات الصلاة التي حدّدتها لي.

أقبّلك في المسيح يسوع.

أخوك في الله، جاك »

3. في رسالة إلى زوجته - بدون تاريخ (ص 38)

« ...

الإيمان ليس وسيلة، بل غاية. ورفضك الصريح له، ناجم عن افتقارك إلى التواضع. أنت ترفضين أعظم عون يمكن أن يُعطى للإنسان. ولكني أتفهّمك جيداً. قبل فترة وجيزة، كان رد فعلي جاء شبيهاً بردّ فعلك.

والمشكلة أننا لا نرى، لأننا لا نريد أن نرى. هناك درجة صغيرة جداً يتوجب علينا أن نصعد إليها، ولكنه يتوجب علينا أولاً أن نترك على الدرجة التي قبلها، منغّصاتنا وكبرياءنا، ونتخلّى عن إرادتنا لذاك الذي يستطيع كل شيء...

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين... وأنا أريحكم..."

ماذا عسانا نريد بعد؟

والناس، أفلا يسعون للتخفيف من آلامهم؟

يا خالقنا، أشفق على مخلوقاتك: تأمل في عجزنا عن فهمنا لذواتنا، وفي انعدام إدراكنا لما نرغب فيه، وفي جهلنا الكلي لما نطلبه. هبنا، يا رب، النور! يا له من أمر قاسٍ: أن تحب من لا يحبك، وأن تفتح لمن لا يطرق الباب البتة، وأن تمنح الصحة لمن يطيب له أن يكون مريضاً، ويستهويه المرض.

"أشفق، يا رب، على الذين لا يشفقون على أنفسهم"!

سامحيني، يا كتزي، لأني أثقل عليك بعباراتي الطويلة، التي سترهقك مرة أخرى... »

4. في رسالة إلى صديقه الراهب، بتاريخ 1955/12/5: (ص 48-51)

أخي الصغير العزيز،

"الآن حان وقت الاستيقاظ من النوم، لأن الخلاص بات أقرب إلينا"... (القديس بولس)

طويلة وقاتمة جداً، كانت ليلتي الأخيرة هذه. ولكني أشعر بتحسن كبير منذ بعض الوقت. لقد طردت الظلمات، واستعدت فرحي في حب يسوع. شكراً لرسالتك الطويلة. أجل، أخي الصغير، أنت دائم وفيّ، محبّ، ومثابر، ولست أدري كيف تراك تنظر إلى فتوري الكريه حيالك طوال هذه الفترة.

تسألني بعض التفاصيل عن الحياة في السجن. الأمر في غاية البساطة، يا أخي الصغير، فنحن نقيم منفردين دائماً في زنزانتنا، باستثناء نصف ساعة للتنـــزه، يومياً، ومنفردين أيضاً. لنا الحق في التحدث مدة نصف ساعة أيضاً، أسبوعياً، في غرفة الاستقبال. ويحق لنا تسلم طرد واحد في الشهر. هذا كل شيء. الاستيقاظ

في السابعة صباحاً، وإطفاء الأنوار في السابعة مساء. تسلياتنا مقتصرة على المراسلة والمطالعة... كان الأمر قاسياً جداً في المرحلة الأولى، ثم تآلفت مع هذا الأمر شيئاً فشيئاً. بالطبع، صحتي تتأثر بمثل هذا النظام، وهن عام، واسترخاء. قلبي يضيق، وينتابني شيء من الضيق. هذا أصعب ما في الأمر...

...

كل صباح، أتلو صلاة القداس، في الوقت الذي تحضره أنت... ويقيم مرشد السجن، القداس، مرة في الأسبوع، يوم الثلاثاء أو الأربعاء. لا يحضر هذا القداس أحد غيري، ولكن تحت مراقبة مشددة. وخلال النهار أقرأ أو أكتب. كثيراً ما يحمل إليّ مرشد السجن بعض الكتب. أنهيت منذ فترة، قراءة سيرة "القديسة تيزيا الأفيلية"، وقد وجدتها مشرقة. ثم إني أحاول كيفما كان، أن أظل أطول فترة ممكنة، في حوار مع الله، أو في صلاة، أو في تأمل في ما قرأت...

...

ترى أني أتلمّس الطريق، وأحاول أن أحيا قدر وسعي، في اتحاد مع المسيح، ولكني ضعيف، عديم الإرادة...

...

مع ذلك، فأنا في اندهاش كلي أمام عظمة رحمة الله وحبّه اللامتناهي لنا. وأنا أؤمن وأسلّم آلامي وأوجاعي لمحبّة المسيح... ثم إني في صمت زنزانتي، أحدّق في الصليب، فلا أعود وحيداً... »

5. **إلى صديقه الراهب في** 1957/8/15: **(ص** 107-109)

« أخي الصغير العزيز،

تلقّيت رسالتك الأخيرة، وهي حبٌّ خالص.

أجل، كما ترى، إن يسوع لم ينتظر مثابرتي، كي يمنحني ملء حبّه. ولقد

لبى على الفور ندائي الأول الصادق إليه، فأراحني من أثقالي. فأنا، منذ عشرة أعوام، أحيا في عالم آخر. وأشعر أن فتوري قد بات بعيداً، بعيداً جداً... لم يتبقّ لي سوى وقت يسير، كي أحبّه كما يتوجّب عليّ أن أحبّه. لست أنا من يحبّ يسوع، إنه هو الذي يحبني. وأنا أدرك على نحو تام عجزي المطلق وبؤسي، كما لم أدركهما يوماً. ولذلك، فأنا في حالة من الاستنجاد، دائمة، والرب مثل أبٍ سخيّ، يقوّيني ويغمرني بنعمه، ويزرع درب صليبي بعبقٍ يجعلني أشتهي المضيّ سريعاً للقائه. أنا أؤمن بحبّه، ولكن ثقتي البشريّة لاتزال ضعيفة، وأنا أريدها بالكلية له. يتوجّب عليّ أن أعطيه كل شيء، وأريد أن أحقق ذلك.

...

اليوم هو عيد انتقال السيدة العذراء. وهو على الأرجح آخر عيد كبير أعيشه على هذه الأرض. وقد احتفلت به بطريقة خاصة. وأنا سعيد، لأنه يخصّ العذراء مريم. إني أسلّمها أوجاعي وهمومي. ولكم أسعدني أنك كتبت لي: "إنها ستحرسك دائماً". هذا صحيح، فأنا، ما إن أشعر بوحدتي، حتى أسارع إلى الاحتماء بها، وهي تحفظني وتعزّيني كطفلٍ صغير.

صلّ من أجلي، أخي الصغير، في هذه اللحظات الهامة، أنا في حاجة إلى محبتك. وإني لأصلّي طوال الوقت، وإنه ليتوجّب عليّ حتى الرمق الأخير، أن أشرب الكأس، وأنا أقدّم جميع آلامي وكل ضيقي، لحبيبنا الرب يسوع المسيح.

"أبتِ، لا مشيئتي، بل مشيئتك"

أخوك جاك الذي يقبّلك في المسيح يسوع. »

الكتلة الثانية: رسائل قبل إعدامه (1957/9/30)

1. من رسالته إلى الكاهن مرشد السجن: **(ص 121-122)**

« أبت،

ها قد بلغت منتهى حياتي، مطمئن النفس، ثابت القلب. بعد ساعات قليلة، سيتألّق فجرٌ جديد وأبديّ بالنسبة إليّ، إن وجدني الرب يسوع مستحقاً لأن أُحصى بين أبنائه. في هذه اللحظات الأخيرة، لا يسعني بالتأكيد إلا أن أستعرض في ذهني، جميع لوحات حياتي السابقة، لأنيرها بالنور الجديد الذي أصبح نوري، وأنا على بداية الحياة. هذه اللوحات ليست محزنةً، لأنها أفضت بي إلى حبّ يسوع، وهي بذلك اتّخذت دلالة لم تكن لتخطر ببالي. بل إن بعض هذه اللوحات مفرحة، وأعني بها تلك الفترات التي أمضيتها عند أقدام الهيكل المرتجل، الذي كنتَ تُقيم الذبيحة عليه في زنزانتي، أو تلك التي قضيتها في قراءة الكتب الروحية التي كنتَ، في محبتك، تحملها إليّ.

أنا مدين لك بالشكر الكثير لصبرك الكبير عليّ، لطيبتك ورعايتك لي، فغذّيت روحي في أمانة، بحاجتها الوحيدة: الرب يسوع المسيح. وإني منذ الآن أردّ لك، جزئيّاً هذا الدَين... إلاّ أني، دونما ادّعاء، لا أخفي عليك أني سوف أرد لك ذلك من السماء، السماء التي هي مصدر جميع الخيرات. ولذا، سأحمل اسمك معي إلى السماء، محفوراً في قلبي، وعندما سيسمح لي الربّ بإلقاء نظرة إلى الأرض، فسوف أحوم بنظري فوق صومعة صغيرة معتمة، يُقيم فيها كاهنٌ، أعظمَ ذبيحةٍ على الإطلاق، فيما هو يشترك كل يوم في الحب المصلوب، وعندها سأسأل الربّ أن ينفصل، ويلقي نظرة كريمة على خادمه الأمين، ويغمره بعطاياه.

كن في سلام يا أبتِ، وليضئ النور الأبدي عليك أيضاً قريباً أيها الأب الحبيب.

إلى اللقاء في الله.

نعجتك الوضيعة والشاكرة: جاك »

2. رسالته إلى محاميه (ص 122-126)

« أستاذي العزيز،

لا يسعني أن أكتب هذه الرسالة دون تأثّر، إذ أفكر بأني سأكون في السماء، عندما ستقرأها. ليتني أستطيع مسبقاً أن أصف لك جميع روائع حبّ الربّ يسوع، وأجعلك تتذوّق وداعة هذا الحب. أسفي عليّ! لأن الغشاء لايزال منسدلاً على عينيّ، لساعات أخرى قليلة. وعندما سأراه، لن يكون بوسعي أن أشاركك فرحي... وسوف تضطر لمواصلة الصراع وحيداً، في المنفى، فيما الصعاب تنهال على أبناء الله بغزارة مدهشة...

أولاً، لك مني الشكر الجزيل لكلّ ما قدّمت إليّ. بالطبع هذا الشكر يشمل أيضاً أتعابك بوصفك رجل الله، الذي لم يكلّ لحظةً واحدة، وفي صبر عجيب، عن توجيهي، كي يعود بي أنا الخروف الضال، إلى بيت الآب... إن صبرك وإيمانك كانا دوماً يدهشانني، حقاً كان لك إيمان مفترس... ولذا أنا أعترف لك بأني لقّبتك بـــ "فهد الله". وأنت، على كل حال، أعطيتني الله. ولولاك، بكل تأكيد، ما كان بوسعي أن أرتقي فوق آفاقي الصغيرة والمحدودة. لولاك، لما كان جرفني ذلك السيل من الصلاة، الذي اقتلعني من ذاتي، بمثل هذا العنف والزخم. وقد تقول لي: "أنا لم أكن سوى أداة بيد الله". أنا أعرف ذلك. ولكن ما يحلو للرب أن يختاره ليمجّد اسمه، يصبح مقدّساً وجديراً بأعظم احترام، بسبب الحبّ الإلهيّ العظيم الذي يسكنه. نحن نعبد القربان المقدّس، ولكننا نحيط بأعظم تكريم، الكأس التي تحتوي هذا القربان. فاسمح لي إذن، بأن أؤكّد لك أنه بات لك في السماء، مدين سوف يسعى بكل ما قد يهبه الرب يسوع في رحمته، لأن يدافع عنك في السماء، بكل الحبّ الذي سيغمره به الله. وإني إذ أكتب هذه الكلمات أفكر في ساعة موتك بصورة

خاصة، ولسوف أكون بقربك، إن سمح لي الرب، حتى آخر لحظة، وأنا أسندك بصلاتي.

محاميّ العزيز،

في هذه اللحظات الأخيرة، لا يسعني إلا أن أتمنى لك أن تتشبّه بنحو متزايد مع يسوع المصلوب. ليغمرك سلامه الذي يفوق كل فهم، وليحفظك الرب حتى آخر صباح، حيث سيبزغ لك أخيراً فجر جديد.

إلى اللقاء، في الله! أقبّلك في المسيح يسوع ومريم العذراء.

أخوك في الله: جاك »

3. من رسالته إلى والدة زوجته:

« أمّي الحبيبة،

لقد تبادلنا الكثير من الرسائل خلال الأشهر الماضية. فلا يسعني إلا أن أشجّعك على المضيّ قدماً في الطريق التي خطوت فيها خطواتك الأولى، لأنك تعرفين الآن الوسيلة لذلك. حاولي أن تفتحي عيونك لتري وراء مظهر العقوبة، تجلّي حبّ الله... لا تقلقي بشأني. لقد وهبني الربّ نعمة عظيمة هي نعمة انجذابي إليه، وعندما ستقرئين هذه الكلمات، أكون وجهاً لوجه مع الرب يسوع. لا أخفي عليك أني أخاف قليلاً ردود أفعالك العفوية والمندفعة، التي تمليها عليك آلامك العميقة بسببي. حافظي خصوصاً على هدوئك. تصرفي في كل شيءٍ باتّزان، وحاولي أن تذيبي ألمك في حبّ يسوع، فهو ينتظر بلهفة نداءك، ليسارع إلى تعزيتك. دعي كل عدل، وكل انتقام بيد الربّ. هذه هي رغبتي الصريحة. فالمسيح أتى ليخلّص العالم، لا ليدينه...

لا تنسي أن الله حبّ. بهذه الأسطر أئتمنك على طفلتي الصغيرة. احميها

بمحبة واتّزان. فكّري بأن يسوع يحبّها حبّاً لانهائيّاً، وأن كل ما فعلتِ بأحد إخوته الصغار، فبه هو قد فعلتِه. وثقي بأني سوف أحميها من السماء، وسأرعاها بكل الحب الذي يملأني به الرب يسوع. أقيمي أنت أيضاً في حبّ يسوع، وسترين الله.

ها إن حياتي قد انتهت كورود ربيعيّة صغيرة، يقطعها البستانيّ من أجل هواه الخاص. فهكذا سيسقط رأسي، في ذل مجيد ثمنه المساء... أنا سعيد...

إلى اللقاء أمّي الحبيبة، وليحفظك الرب، أنت وجميع ذويك.

أقبّلك في يسوع ومريم العذراء.

ابنك في الله: جاك »

4. **رسالة إلى الراهب، صديق طفولته** (ص 127-128)

« أخي الحبيب الصغير،

عندما ستقرأ هذه الرسالة، سأكون في السماء، وسأرى يسوع. ولا بد أولاً، بكل تأكيد، من أن تُطحَن حبّة الحنطة، وأن يُعصَر عنقود العنب. ولكن ماذا عساني أخشى، وأنا أملك يسوع؟ أنا أنتظر في الليل، ولتندفع عليّ قوات الظلمة، لتقتلني... مثلما أن النسيم الرقيق ينتزع وردة ربيعية، هكذا فإن رب الحديقة ينتزع روحي ليقودني إلى السماء.

تصوّر أخي الصغير، أنه لم يتبقّ لي سوى ساعات قليلة من الصراع، لأعرف جوهر الحبّ. فلقد طالما تحمّل الألم من أجلي، وهو في حبّه العظيم لي، يقتلع عني من الآلام ما يحرمني حتى من أبسطها... يا أخي الحبيب الصغير، أنا أنتظر الحبّ، أنتظر أن تُسكِرني سيول الفرح، وأن أرتّل ترانيم أبويّة لمجد الناهض من القبر. إن الله محبّة.

لا تخشَ شيئاً يا أخي الصغير: سوف أحمل اسمك معي إلى السماء، محفوراً في قلبي. وإن سمح لي يسوع في أبدّيته السعيدة، أن أبوح له بسرّي، فسأسأله أن يباركك، أنت وجميع ذويك، وجميع الذين ترعاهم بحنان وحرص. إن يسوع، في رحمته العظيمة، كان قد وهبني إيّاك كأخ كبير يحمي أخاه الصغير والضعيف. والآن، فأنا من سيُعطي لك، لكي تتلقّى من السماء جميع المواهب التي سكبها الله عليّ بواسطتك، بل أكثر منها لأني سأكون مع من هو نبع كل رحمة.

كن في سلام، يا أخي الصغير. لتكن طريقك مستقيمة ومتماسكة، وسيأتي اليوم الذي ستلتقي فيه أنت أيضاً، حبّنا الوحيد، مع اللص التائب الذي سمع آنذاك قول يسوع: "في الحقيقة، أقول لك ستكون معي اليوم في الفردوس".

إلى اللقاء في الله. أستودعك الله يا أخي الصغير. إن استطعت اِسهر على أسرتي، واجعلهم لا ينسون أن طفلتي هي ابنة العذراء مريم. ليغمر الفرح قلبك، وليباركك ويحفظك الرب يسوع، مصدر كل خير.

أقبّلك في يسوع المسيح والعذراء مريم.

أخوك في الله: جاك »

5. آخر ما دوّنه في دفتر يوميّاته. (ص 130-133)

« في الليلة الأخيرة:

"أنا أكثر اطمئناناً مني في أيّ يومٍ مضى، لأن يسوع وعدني باقتيادي فوراً إلى السماء.

"سوف أُعدَم غداً، حوالي الساعة الرابعة صباحاً. لتكن مشيئة الرب في كل شيء.

"أنا واثق أن يسوع سيهبني في محبته، ميتةً مسيحيّة، كي أستطيع أن أشهد له حتى النهاية.

"يجب أن أمجّد اسمه القدّوس، وأنا أعرف أني سأمجّده. يجب أن أقوّي إرادتي، ولذلك سأتأمّل بمواكب الذين قُطعت رؤوسهم كشهداء... هل تراني سأكون دونهم شجاعة؟ حاشا!

"يسوع قريب جداً مني. فهو يجتذبني أكثر فأكثر، وليس بوسعي سوى أن أعبده في صمت، وأنا أشتهي أن أذوب حبّاً.

"أتمنى مثل القديسة تيريزيا الطفل يسوع، أن أجدّد مع كل نبضة من نبضات قلبي، تقدمة ذاتي له، كذبيحة وأُضحية لحبّه الرحيم، إلى أن تتبدّد الظلمات، ويتسنّى لي أن أراه وجهاً لوجه، وأقول حبّي له إلى الأبد.

أنتظر في الليل والسلام. عيناي مسمّرتان على المصلوب، وهما لا تفارقان جراح مخلّصي، أردّد في نفسي، دون كلل: "هذا من أجلك!". أريد أن أحتفظ بهذه الصورة حتى النهاية، أنا من سيتحمّل من الألم، القليل. أنتظر الحب. بعد خمس ساعات، سأرى يسوع!

هو يجتذبني بمنتهى الرقة إليه، إذ يهبني هذا السلام الذي ليس من هذا العالم. لكم هو طيّبٌ يسوع الذي تحمّل هذا القدر من الآلام، والذي لايزال يحمل كلّ آلامي. هنيئاً لمن يضع ثقته في الربّ. سوف لن يخيب أبداً! الله محبة.

سأصلّي مسبحتي وصلوات أخرى من أجل المحتضرين، ثم سأسلّم روحي لله. ثم سأستلقي على السرير، لأتأمّل في نزاع ربّنا في بستان الزيتون. ولكن أعنّي، يا يسوع الطيّب!

لقد تلوت صلواتي، وأنا مغمور بالسلام والقوة. فإن يسوع، في حبّه اللامتناهي، قد استمع لصلاتي واستجاب لي. يا يسوع، أنا أحبّك!

فارقني السلام، ليحلّ محلّه الضيق. هذا شيء مريع. قلبي يقفز في صدري. أيتها العذراء القدّيسة، هلمّي لنجدتي

يا لها من مرارة! ليس لي أن أنسى أنني أستطيع، أيّة كانت مشاعري، أن أقهر دائماً هذا الشعور بإرادتي. ثم إن الله وفيّ، ليس لنا أن ننسى ذلك.

أشعر بالارتياح أكثر من اللحظات السابقة. لأن يسوع وعدني باقتيادي فوراً إلى السماء.

يا ربي وإلهي، الذي سأراه وجهاً لوجه.

طوبى للذين سيكرّمهم الربّ بالاستشهاد. ليت كان لي أن أقدّم حياتي كسائر الشهداء، الذي يموتون دون التنكّر لإيمانهم! أما أنا، فمذنب!... ليت الله يتقبّل دمي الذي سيسفك، على أنه ذبيحة كاملة. ولتسهم كل قطرة منه، في محو خطيئة مميتة. وعلى مثال يسوع، يتوجّب عليّ أن أبتهل إلى السماء، كي لا يُتّهم أيّ إنسانٍ، بأيّ خطيئةٍ بسببي، بل كي يسهم كل فعل، وكل فكر، وكل قول، في تمجيد إلهي. يا يسوع، إني أحبّك!

يتوجّب على الإنسان أن يكون طاهراً مثل يسوع، كي يتاح له أن يشاهده... يسوع يريد أن يقتادني معه إلى السماء. ليسوع القدرة على فعل أي شيء فينا... أعتقد أني ماضٍ إلى السماء فوراً...

منذ لحظات، كان يبدو لي أني مهما فعلت، لن تكون السماء من نصيبي! هو الشيطان الذي يوحي إليّ بذلك. إنه يريد أن يحملني على اليأس. فارتميت عند أقدام مريم، فاستعدت بعض طمأنينتي.

أيتها العذراء القدّيسة، تعالي إليّ!

أنا سعيد. إلى اللقاء! »

2) ألكسي كاريل

هو عالمٌ فرنسي، يعود له الفضل في جراحة زرع الأعضاء، في جسم الإنسان، مما جعله يحوز جائزة نوبل، وهو بعد في التاسعة والثلاثين.

ولد بالقرب من مدينة ليون بفرنسا عام 1873. درس الطب، ومارسه. وكان يومها بعيداً عن الدين، مؤمناً بنظرية العلم الوضعي. وفي عام 1903، طُلب إليه أن يحلّ محلّ أحد أصدقائه الأطباء، فرافق قطاراً من المرضى ذاهباً إلى بلدة لورد. وهناك شفيت إحدى مريضات قاطرته، من مرض كان على وشك القضاء عليها. فهزّه الأمر وأرغمه على مراجعة جميع قناعاته العلمية والدينية. ولقد روى هذا الحدث في كتاب صغير، هو أشبه بمحضر طبي، قُدّر له أن يُترجم إلى العربية في إطار أحداث الصوفانية العجائبية بدمشق. وقد قام بترجمته يومها الأديب الكبير أديب مصلح. وإنّي لأقتبس من هذه الترجمة الصفحات (37-72)، فأنقلها بحرفيتها.

« هناك امرأةٌ مصابة بعلّة قلبيّة خطرة، وحالتها العامّة خطرة، وهي توشك على الاختناق، إذ إنّها تعاني عسر تنفّس. لقد أعطيتها (ديجيتالين) وقمت بفحصها، وأعتقد أنها تعاني خللاً في القلب، ترافقه مضاعفاتٌ هيستيريّة، وأنها ستشفى. وهنالك كثيرون سواها قابلون للشفاء أو للتحسّن.

– "وما علّة ذلك الشاب، الذي له رأس المسيح، والذي نقلته هذا الصباح إلى المغارة؟"

– "إصابته رهيبةٌ: سرطانٌ في المستقيم والشرج، ورمٌ كبيرٌ؛ لقد صنع له الجرّاح شرجاً اصطناعياً، يسيل عبره برازه منذ عدّة أشهر، ثم عاد السرطان،

فسدّ الأمعاء، وملأ، بجسمه الصلب، البطن والحوض، ضاغطاً على الأعصاب. في غضون بضعة أسابيع، ووسط آلامٍ لا تُحتمل، سيلقى هذا الشاب حتفه.

هل لحظت ذلك الصبيّ، في الخامسة عشرة من العمر (ل. ب.) وقد نفخ خدّه ورمٌ في مثل ضخامة قبضتَي يد؟ وقد نتأت عينه، بنفسجيّة اللون، خارج محجرها، فيما تدلّت من فمه كتلةٌ دامية منتنة. ذلك سرطانٌ في الفكّ الأعلى سيودي به عمّا قريب.

هناك، أيضاً فتاةٌ تدعى ماري فيران*، استدعيتُ إلى جانبها، ربّما عشر مرات، وهي أكثر منهما إشرافاً على الموت. إنّ هذه المسكينة مصابةٌ بالتهاب صفاقٍ سلّيّ، في مرحلته الأخيرة. لقد توفّي كل ذويها مسلولين، وقد منيت بقروحٍ سلّيّةٍ، وكهوف رئوية، كما ابتليت، منذ أشهر، بالتهاب الصفاق الذي شخّصه أحد الأطبّاء، مثلما شخّصه (بروميو) جرّاح بوردو الشهير. إنّ حالة هذه المسكينة جديرةٌ بالرثاء، وقد اضطرُرتُ إلى إعطائها حقن كافئين، وأخشى أن تقضي نحبها بين يدي الممرضات. ولكن إذا ما شفيت هذه الفتاة، فسيكون شفاؤها خارقة حقيقية، وسأومن بكل شيء، بل سأترهّب...".

وردّ عليه أ. مازحاً:

– حذارِ، ففي لورد جميع الشرائع قابلةٌ للانهيار، وإنني لعلى يقين بأن هذه الفتاة قد تشفى، كما يمكن أن يشفى مرضى السرطان، وكذلك، ذلك الفتى المدهش، الذي له حدبة، وفخذاه ملتصقتان بصدره. إنّه لحالة غريبة، فهذا الكائن الضئيل، في الثامنة عشرة من عمره، لا تتعدى قامته قامة طفل. إنه مصاب بداء "پـــوت" وبتقفّع في الفخذين من الشدة بحيث ارتدّا إلى بطنه.

* تلك المريضة في الحقيقة تدعى ماري بابي، وإثر شفائها من التهاب صفاق سلّيّ قام الدكتور كاريل بالتحقيق في أمر شفائها، وقد اعتبر الدكتور بواساري هذا التحقيق "نموذجاً لعدم التحيّز والدقّة"، وأقدم هو نفسه على نشره.

لقد رأيت أشخاصاً مبتلين بداء "پـــوت" ولكن لم أرَه قط، من أفضى بهم الداء إلى مثل هذه الحال، ولا من بلغت إصابتهم هذا المدى من الحدّة. إنّ هذا المسخ المسكين ذكيّ، وهو متيقّن بأن العذراء القدّيسة ستشفيه. إنّ الثقة المطمئنّة التي تعمر بها نفوس أولئك المساكين لمدهشةٌ حقّاً.

جميعهم يرجون الشفاء، ورغم متاعب هذه الرحلة وطولها المتمادي، فهم جذلون مطمئنّون.

ولكن، ها قد حلّت الساعة الواحدة، ولا بدّ من العودة".

– "عليّ أن أفحص، في الساعة الرابعة عشرة والنصف، ماري فيران، الفتاة المصابة بالتهاب الصفاق السلّيّ، التي مافتئ وضعها يتفاقم. إنها، إذا ما عادت على قيد الحياة، فسيكون الأمر بمثابة أعجوبة صغيرة، هيّا، تعال لتراها معي".

ونهضا فاتجها، كلاهما، نحو سيدة الآلام السبعة.

كانت قاعة سيدة الحبل بلا دنس موقوفة على المرضى الذين يتميّز وضعهم بالخطورة الشديدة، وهي تتكون من ردهة فسيحة، هادئة، ومعتمة، في طابق المستشفى الأرضي، ولم يكن يتسرّب من نوافذها العالية ذات المربعات الصغيرة المشرعة على دير، في عصر ذلك اليوم المشرق، سوى نور مبهم، أغبر، بارد.

كانت رائحة اليود المنفّرة، تفوح في الجوّ، وإلى جوار الجدران البيضاء المطليّة بالكلس، قد انتظم نحو عشرين سريراً، تعلوها أغطية بنيّة اللون، وكانت المريضات جالساتٍ على كراسٍ، أو مستلقيات على الأسرّة بكامل ثيابهن، متأهّباتٍ للانطلاق نحو برك الاستحمام، وكان ليراك يمرّ بهنّ صامتاً، فمهمّة الطبيب في لورد مبسّطة جداً، إذ لا أحد يتوقّع منه شيئاً، بل الاعتماد منصبٌّ على العذراء القدّيسة. أليست هي هنا لشفاء المرضى، وإزالة الألم،

والقضاء على الأورام؟ إنما الطبيب موجود لأن القوانين تفرض ذلك، ولكن لا يُلجأ إليه إلا في اللحظات الأخيرة، إذا ما تأكدت الحاجة لإعطاء حقن مورفين أو أثير.

واقترب من سرير الفتاة المصابة بالتهاب الصفاق السلّيّ، الذي وقفت إلى جواره كلٌّ من رئيسة المستشفى، وفتاة ترتدي ثياب ممرّضات الحج البيضاء، الآنسة أو. التي التفتت، في الحال، بوجهها الجميل القلق، نحو ليراك، ودنت منه قائلةً:

– كنّا ننتظرك بنافد الصبر، فحالة مريضتنا قد تفاقمت سوءاً، وأفلت زمام الأمر من يدي. هي تكاد لا تتكلم، ويبدو لي أن وضعها حرجٌ جداً.

ودنا ليراك من السرير، وأنعم النظر إلى ماري فيران، التي كانت مستلقية على ظهرها، لا تبدي حركة، وكان وجهها الأبيض الذي نال منه الهزال، منكفئاً على الوسادة، فيما ذراعاها المعروقتان تتكئان على الزنّار، أمّا تنفّسها، فكان سريعاً شاقّاً، وسألها ليراك برفق: كيف حالك؟...

فالتفتت إليه عينان باهتتان، وقد أحاقت بهما دائرتان بنفسجيّتان، وانفرجت شفتان رماديّتان عن جواب مبهم.

وتناول ليراك معصمها، ووضع إصبعه على الشريان الكعبريّ، حيث كان النبض المجنون يسجل في الدقيقة مئة وخمسين ضربة متقطّعة، على غير انتظام. لقد كان القلب على وشك الانهيار، فقال للممرضة: هاتي محقنة بريفاز لكي نعطيها في الفخذ حقنة كافئين.

ونزعت الممرضة الأغطية، وأزاحت إطاراً خشبياً مستخدماً في تثبيت كيس من الجليد فوق بطن المريضة.

وبدا جسم ماري فيران الهزيل، الذي برزت منه الضلوع تحت الجلد،

والبطن المنتفخ. كان الورم يكاد يكون متماثلاً في كل جانب، بيد أنه كان أكثر تضخّماً بعض الشيء، في الجانب الأيسر. ووضع ليراك يديه بلين، وتركها تنساب فوق السطح الأملس، ضاغطاً عليه برفق، وبدا البطن وقد تمدد بفعل مواد قاسية، في حين امتلأ بالسائل جزء منه، أقل قسوة، في الوسط، عند السرّة، كان ذلك هو النموذج المعهود عن التهاب الصفاق السلّيّ.

وأخذ المحقنة التي قدّمتها له إحدى الراهبات، ومرّ بالإبرة فوق شعلة من الكحول، ثم غرسها في الفخذ المعروقة، وانسابت حقنة الكوكائين تحت جلد ماري فيران التي عبّر وجهها عن تشنّج مفاجئ.

وجسّ ليراك ساقيها المنتفختين حتى الركبتين، ولمس الأنف واليدين حيث استقر البرد منذ الصباح، وأمعن النظر في الأذنين والأظافر التي كان قد كساها لون ضارب إلى الاخضرار.

ثم التفت إلى آ. الواقف على حدة، وقد بلغ به التأثّر إزاء مشهد المرض والألم هذا، وقال:

– إنه التهاب صفاقٍ سلّيّ، في مرحلته الأخيرة. يكاد السائل يكون قد زال تماماً، ويمكن لمس أجسام صلبة في الجانبين. والدا هذه الفتاة قضيا نحبهما مصدورين، أما هي فقد شرعت، منذ الخامسة عشرة من عمرها، تبصق دماً. في الثامنة عشرة أُصيبت بذات الجنب، واستُخرج من جنبها الأيسر نحو ليترين ونصف الليتر من السائل، ثم منيت بكهوف رئوية، وأخيراً، منذ ثمانية أشهر، ابتليت بالتهاب الصفاق السلّيّ، ومن اليسير لحظ ذلك. إنها تجتاز الآن مراحل الهزال الدنفيّ، وقلبها يخفق بلا انتظام. انظر إلى هزالها، وإلى لون وجهها وأصابعها... إنّها ستموت قريباً. ربما ظلت على قيد الحياة بضعة أيام، إلا أن موتها محتوم.

وحين همّ ليراك، بالانسحاب، سألته الآنسة أو:

– دكتور، هل لنا أن نقود ماري فيران إلى برك الاستحمام؟

ونظر إليها ليراك دهشاً متسائلاً:

– وماذا ستفعلون بها، إن هي قضت نحبها، وهي في طريقها إلى الاستحمام؟

– هي كانت قد قالت لي إنها مصرّة على الاستحمام... وإنها إنما قدمت من أجل ذلك.

عندئذٍ دخل الدكتور ج. وهو طبيبٌ في مدينة مجاورة لبوردو، وكان قد صحب بعض مرضاه إلى لورد، فتقدّم منه ليراك مستطلعاً رأيه حول ملاءمة نقل المريضة إلى برك الاستحمام.

ومن جديد نُزعت الأغطية، والإطار الخشبي، وكيس الجليد، وانحنى الدكتور ج. على ماري فيران، ووضع أصابعه المصفرّة ذات المفاصل العصبيّة، ونقر بها على جسم المريضة مشخّصاً، وأنصت إلى نبضها وخفقان قلبها؛ وإثر بضع لحظات أعلن بصوت خافت:

– إنها تحتضر، وربما ماتت عند المغارة.

وأضاف ليراك:

– ترين، يا آنسة، أنه ليس من الحكمة المضي بهذه المريضة إلى برك الاستحمام ولكن، لي هنا أن آذن، أو أن أمنع شيئاً.

وأردفت الراهبة:

– ليس لهذه الفتاة ما تخشى فقدانه... فسيّان إن هي قضت نحبها اليوم، أو في غضون بضعة أيام، وسيكون من القسوة حرمانها السعادة القصوى التي تراها، هي، في أن تقاد إلى المغارة، ولو أني أرتاب في استطاعتها الوصول إلى هناك. في غضون بضع دقائق سننقلها...

وقال ليراك:

– على أيّة حال، سأذهب، أنا أيضاً، إلى برك الاستحمام، فإذا ما أُغمي عليها، عليك باستدعائي.

وأودع جيبه زجاجة الأثير، ومحقنة بريفاز، وخرج بصحبة آ. وج.، وكان الدكتور ج. يردّد:

– ستموت هذه الفتاة حتماً.

واعترض ليراك قائلاً:

– تعال معنا لنصحب ماري فيران إلى بركة الاستحمام، ولنحاول مراقبة "الخارقة المستحيلة المتمثّلة في بعث ميتةٍ"، فربما قد نشهد ذلك، وإنني أتطلّع بفضول إلى الوقوف على انطباع الجمهور حيال ماري فيران، ولا سيما إذا ما عرض أن الأعجوبة قد حدثت.

ثم مال نحو آ.، وهمس في أذنه:

– إذا ما شفيت هذه المريضة، فسأومن بالمعجزات.

فوق الدرج الأثريّ الصاعد من الكنيسة السفلية إلى الكاتدرائية الناصعة البياض، والتي تسمق ذؤابة قبّتها في السماء، كانت ساحة المسبحة الوردية تسبح في النور... وكان الوقت نحو الثانية بعد الظهر. بعض الحجّاج المنفردين كانوا يتوكّأون على درابزين الكاتدرائيّة، التي كانت تبدو منطلقة في السماء، في أناقة ورشاقة، انطلاقة صلاة متأجّجة، واتجه ليراك صوب برك الاستحمام، يتبعه ج. واجتاز الطريق العالي الذي كان يعكس ظلّه على التربة البيضاء المحيطة بمجرى السيل، وأحسّ بالنداوة السائدة تحت الأشجار. وكانت نسمةٌ عطرة تخطر في الجوّ الرقيق. ولم يكن المرضى قد وصلوا بعد. مقابل مجرى السيل، في المياه المتدفّقة الباردة، كان يمكن مشاهدة أبنية برك الاستحمام الزرقاء، القابعة

تحت أشجار الدلب الوارفة الظلال. درابزينٌ من حديد كان يحيق بفسحة نصف دائرية، مخصّصة لإيداع المخفّات، وعربات المرضى، في منأى عن الجمهور، أما صفوف الحجّاج فكانت تحتل الحيّز الواقع بين الدرابزين ومجري السيل.

ودخل ليراك، فجلس على مقعد خشبي، عند باب بركة استحمام النساء، فيما كانت نسمةٌ رقيقة تداعب أوراق الدلب الدكناء، ومِزَقٌ من الشمس تتحرّك برفق على الأرض المبلّطة، وسلسلة التلال الواطئة، حيث انتشرت المزارع بجدرانها البيضاء، كما كان يطالع زرقة السماء المتوهّجة، حيث كانت تنساب بعض الغمامات المضيئة.

وفي البعيد أطلق جرسٌ نداءه، بصوته الفضّيّ، وأخذ صرصورٌ يردّد نشيده. كان منظراً من نداوة هادئة، وفرح، وراحة، وكان سكون تلك الساعة العذب يبدّد هواجس ليراك العلمية، وهم العودة الذي كان يلازمه. كان يتذوّق، على عجل، السحر الفريد المنبعث من أرض لورد، حيث، تحت ضوء لا توصف عذوبته، كانت تأتي وتتجلّى جميع معالم البؤس البشري.

عمّا قريب، عندما تأذن ساعة الاستحمام، سيحلّ، مكان جمال الأشياء الرائع، القبح البشري البائس المتمثّل في قروح، وأورام، وشتى ضروب البشاعة التي تتكشّف، جاهرةً عن نفسها، أملاً في الخلاص.

ووصل فريقٌ من الحجّاج، وكان آ. ورجلٌ آخر محتذٍ نعلاً أصفر اللون، موثقين إلى إحدى المخفّات، حيث كانت ماري فيران ترقد على ظهرها، شديدة النحول، تحت الغطاء البنّي، الذي اتّخذ شكل قبّة، عند مستوى البطن. كان تنفّسها سريعاً وقصيراً، وقد أمسكت الآنسة أو. فوق وجهها الذي يحاكي وجه أموات، مظلّة بيضاء مشرعة. ذلك المنظر الذي يبدو عاديّاً في إطار المستشفى، كان يُحدث، تحت الضوء الساطع، الذي يُبرز كلّ التفاصيل،

انطباعاً مزعجاً.

قبل الدخول إلى بركة الاستحمام، وُضعت المخفّة، لحظةً، على الأرض، وبدت المريضة، وكأنها قد فقدت الوعي، وأمسك ليراك بمعصمها حيث كان النبض في مثل هذيان، أما وجهها فقد بات بلون التراب، وحطّت، عند فرجة الأنف، ذبابةٌ خضراء، فطردتها الآنسة أو. بمنديلها.

وجهّز ليراك، إلى جانبه على المقعد، محقنة بريفاز، وزجاجة الأثير، وراح ينتظر، وطافت بفكره هذه الخواطر: "ما أعسر، على الطبيب، تحديد مستقبل مريض، فمن الجليّ أن هذه الفتاة هالكة، ولكن لا قِبَل لي بمعرفة أوان موتها. أهو في غضون ساعة أو ثلاثة أيام، أم أربعة. وإذا ما هي قضت نحبها في بركة الاستحمام فلديّ فضول لرؤية ما سيُحدث موتها من أثر على الحجّاج، إذ إنه سيكون بمثابة إفلاس المعجزة".

ودقّت ساعة الكنيسة الثانية، فيما كانت العربات الصغيرة التي يجرّها الحمّالون تتوافد زرافات، يواكبها حشدٌ من الحجّاج.

وجلست إلى جوار ليراك امرأة أنيقة المنظر، وقد أسدلت على وجهها برقعاً أسود صفيقاً، وكان شيءٌ أحمر اللون يتراءى من خلال قماش الكريب، الذي كان يخفي وراءه وجه ميتة، قد خلا منه الأنف، وطبع داء القراص عليه وشياً قرمزيّاً، وفراشات حزينة. وكان شابٌّ في ثياب حداد، وقفّازات رمادية فاتحة، يجر، في عربة، امرأة قبيحة الشكل، ترتجّ لها غدّةٌ درقيّةٌ منتفخة هلاميّة، وإلى جانبها كانت تجلس امرأة شابّة، شُلّ جانبها الأيمن، ثم دُفع إلى قربها ببلهاء طويلة الجسم، كانت لا تنفكّ تدمدم، وهي تهزّ برأسها، فيما تدلّى لسانها الضخم من فمها، وسال منه اللعاب. وكانت عرباتٌ أخرى لا تفتأ تتوالى.

بادئ الأمر، استحوذ على ليراك التأثّر حيال آلام المرضى، وصيحاتهم،

ولكن بين ظهراني أولئك البؤساء، أخذ يتولّد لديه شعورٌ غريبٌ، فهو المفعم شباباً وحيوية، كان معنيّاً بيأس أولئك الأفراد، وهم، رغم شبابهم، قد حرموا النشاط والحريّة، وفُرض عليهم الانحباس في غرفةٍ، وقيِّض لهم ألاّ يعرفوا، يوماً، رعشة حبٍّ.

وتركّز فكره على ماري فيران، التي اطّلع، عن كثب، على قصّة حياتها، حياة مسلولة تصرّمت في المشافي. لقد مرّت عبر ذات الجنب، إلى التهاب الصفاق السلّيّ، وها هي قد أشرفت على الموت، قبل أن تخبر من الحياة سحر الربيع والحبّ، ومع ذلك، كانت أقلّ تعاسة مما يبدو عليها، إذ كانت تؤمن بالمسيح الذي كان أملها، وشاغلها الوحيد.

إنّ موت المؤمن على قدرٍ لا يُقاس من الروعة، فهو المدخل إلى جوار العذراء ويسوع، ويا لها من صورة عذبة! كم يجب أن يكون منقطع النظير سحر يسوع هذا، بحركاته الهادئة، في اخضلال جبال يهوذا الربيعي، وهو ينهض لإلقاء خطبته على الجبل التي لا يحدّ روعتها وصف. لقد كان يوفّر للمتألّمين التعزيات الأبدية، وكم يحسن الإيمان بها! والعذراء الرقيقة، الحامية، والمتحنّنة على جميع الآلام، يا لها من صورةٍ سنيّةٍ!

"آه، كم كنت أودّ أن أومن، نظير جميع هؤلاء البؤساء! إنك، أيتها العذراء مريم، لستِ نبعاً لذيذاً ولّدته أدمغتنا، فحسب، اشفي، إذن، هذه الفتاة، فكفاها ما عانت من عذابٍ. ائذني لها أن تحيا قليلاً، وادفعيني إلى الإيمان.

عندما ينعدم تأثير الملاحظات الواقعيّة، لا يبقى سوى الإنسان، تتقاذفه النظريّات، والنزوات الهوجاء. إنّ ما أشهده الآن، لعلى قدرٍ كبير من العقلانيّة، فإذا ما برئت هذه الفتاة، وهو أمرٌ يتعارض مع المنطق، اجعليني أومن، عندما سأراها وقد عادت إلى الحياة، فعلاً، عند خروجها من الاستحمام.

وكان المرضى يتوافدون باطرادٍ، وكان يشاهد الرجال من جانب السور الآخر. الشاب ذو الرأس الذي يحاكي رأس المسيح، وهو مخطوف العينين، في وجه أصفر مجوّف، كان ملقى على محفّةٍ يشعّ رجاء، والصبي الذي كان داء "پـــوت" قلّص فخذيه حتى صدره، كان يتلو مسبحته بحميّة، وقد انكفأ على ذاته، داخل عربته الصغيرة.

وبفمه المعوجّ الذي شدّه الورم إلى أعلى، كان ج. د. يتمتم صلاةً وقد تسمّرت عينه السليمة على السماء. جميع مرضى قاعة المستشفى، كانوا، في تلك اللحظة، ممدّدين على الأرض، وعلى جميعهم تبدّت أمارات السكون والسعادة، ووصل س. م. ووجهه يتصبّب عرقاً، تحت طاقيّة سوداء، وانقضّ نحو المرضى، ورجا الحمّال أن ينظّم وضع المحفّات، فقد كان هو سيّد التنظيم الأعلى. وانتصب كاهنٌ شابٌّ، في مكان ظلّ خالياً، وسط المرضى، وهمّ ببدء الأدعية الكبرى، فيما، وراء المقاعد الخشبيّة، حتى مجرى السيل، كانت قد تراصّت كتلةٌ متموجة من وجوه بيضاء، ورؤوس مكشوفة. ومرّت عربةٌ صغيرةٌ، تُقلّ ماري فيران، فدنا منها ليراك، على عجل، ليتبيّن أن أيّ تطوّر لم يطرأ على حالها. كان وجهها لا يزال ممتقعاً، وجسمها هزيلاً، وبطنها متضخّماً، على غير تفاقم ظاهر.

وقالت الآنسة أو.: لقد غسلوا بطنها بعض الشيء، فحسب، إذ إنّ السيدات المشرفات قد رفضن تغطيسها، كلّيةً، بالماء، وسننطلق بها إلى قرب مغارة مسّابييل، وأجاب ليراك:

– "سألحق بكم في غضون دقائق. إن وضعها يبدو ثابتاً، ولكن بوسعكم استدعائي إذا ما تفاقم".

وجثا الكاهن إزاء المرضى والجمهور، ورفع نحو السماء ذراعيه على شكل

صليب. لقد كان شابّاً، وعلى وجهه الأبيض السمين، المتصبّب عرقاً، كان ينتشر النمش. إيمانه المتّقد، وعيناه اللتان تحاكيان عيني طفل، كانت تحميه من أن يبدو مثيراً للسخريّة، وكان يتفجّر من دعائه قدرٌ من الرجاء جمٌّ، بحيث يمكن القول إنّ دعاءه هذا كان يتصاعد مباشرة نحو العذراء.

كان يهتف وهو يلوي فمه ببراءة: "أيّتها العذراء القدّيسة اشفي مرضانا". فيردّ عليه الجمهور، في صيحة جبّارة تتهادى كالموج: "أيتها العذراء القدّيسة، اشفي مرضانا".

– "أيّتها العذراء القدّيسة، استجيبي لدعائنا".

– "أيّتها العذراء القدّيسة، استجيبي لدعائنا".

– "يا يسوع، نحن نحبّك".

– "يا يسوع، نحن نحبّك".

وكان هتاف الجماهير يشتدّ عزماً، أكثر فأكثر.

وكانت تُشاهَد أذرعٌ تتعالى فوق الرؤوس، وكان المرضى يحاولون النهوض، ما استطاعوا، على محفّاتهم، والتوتّر يتصاعد شيئاً فشيئاً.

وهبّ الكاهن واقفاً، وقال: لنصلّ يا إخوتي، وأذرعتنا على شكل صليب. فامتدّت جميع أذرع الجمهور، وكأنّ تيّاراً قد عبر به. شيءٌ لا يُدرَك، جبّار، لا يُقاوَم، صامتٌ، كان يجري بين أفراده، مستحثّاً الإرادات، مثل إعصار على رأس جبل.

وكان ليراك يؤنس، على نحو مبهم، هذا الانطباع القوي، الذي لا يطاله تحليلٌ، يمسك بخناقه، ويشنّج ذراعيه، وراودته رغبةٌ في البكاء، لم يدرك لها سبباً.

كم كان يجب أن يكون بالغاً تأثّر المرضى، الذي يزيده وهَنُهم تفاقماً! إن

كان رجلٌ في ميعة صحّته، مثل ليراك، قد بلغ به التأثّر هذا المبلغ، وكان يرنو، في قلقٍ، إلى جميع المرضى، ولا سيّما مرضى الأعصاب، ويتوقّع أن يراهم ينهضون ويصيحون معلنين شفاءهم بفرح، ولكن أحداً لم يتحرك.

واجتاز صفّ العربات الصغيرة، عبر الجمهور، قاصداً المغارة، ثمّ جلس على حاجز مجرى السيل، وتأمّل حشد الحجّاج، حيث تعرّف طبيباً متمرّناً شابّاً، قادماً من بوردو، هو م. م. الذي كان قد التقاه في العشيّة، فسأله: هل من حالات شفاء؟

– لا، فقط بعض المصابين بهوَس قد شُفوا، وليس في الأمر ما يتعدّى غرابةً ما نشاهده في المستشفيات.

فقال له ليراك:

– تعال، إذن، وشاهد مريضتي، إنّها ليست مثيرةً للاهتمام كثيراً، غير أنّ حالتها مقلقةٌ، ولا بدّ أنّها عند المغارة.

– لقد رأيتها منذ دقائق. إنه لمن المؤسف، حقاً، أن يُسمح لها بالقدوم إلى لورد، إذ كان من الأفضل إجراء عمليّة جراحيّة لها، ولا يبدو أنّ رحلتها إلى المغارة ستجديها فتيلاً.

كانت الساعة تشارف الثانية والنصف، والمغارة تسطع بألوف الشموع، تحت صخرة مسّابيل، وقد كست جدرانها ومداخلها السبحات والعكّازات. ومن خلال الشبك الحديدي الذي يحول دون الوصول إليه، كان ينتصب تمثال العذراء، واقفةً، في تجويف الصخر، حيث كانت، فيما مضى، برناديت قد رأت السيدة البيضاء الساطعة، سيّدة الحبل بلا دنس.

وعند أقدام العذراء، كان موقعٌ مربّعٌ فسيح، يحدق به درابزين، مخصّصاً للمرضى، الذين كانوا، على هذا النحو، يحتلّون مكان الشرف، إلى جوار المغارة.

وكان مضيفو سيّدة الخلاص يقفون عند المداخل للحؤول دون التدافع والتزاحم، ولتيسير حركة العربات الصغيرة والمحفّات، وفي طرف المكان الخالي، في الصفّ الأول، عند الحاجز مباشرةً، ميّز ليراك الآنسة أو. فشخص برفقة م. إلى المغارة، واستطاعا احتلال مكان أمام الحاجز، بحيث يتمكّنان من الإلمام بمشهد المرضى والحجّاج على السواء.

واتّكآ على الدرابزين الواطئ، قريباً من ماري فيران، التي كانت تبدو في مرحلة احتضار، وهي ملقاةٌ على المحفّة، جامدةً، في حين كان صدرها يتعالى بفعل تنفّس متسرّع، ووصل بعض الحجّاج، ودخلت السيدة ذات البرقع الأسود، فوقفت إلى جانب المحفّة، في الصفّ الأول، وعندما رفعت قناعها، تهيّأ لليراك مشاهدة وجهها الدميم. أمّا الآنسة أو. فجثت، في حركةٍ رشيقةٍ، وكانت تبدو أنيقة الشكل، وقد ظلّلت رموشها الطويلة وجهها، برفق. كانت تصلّي، في حرارة، ولا بدّ أنها كانت تستجلب المعجزة.

وكان مضيفون، وحمّالو محفّات يتراصّون كُثراً، ثم توافدت العربات، واحدةً فواحدةً، وانتظمت البلهاء ذات اللعاب السائل، والقبيحة ذات الغدّة الدرقيّة الهلاميّة، إلى جانب ماري فيران، ودخل س. م.، فجأةً، وقد انفتح صدره تحت الأوسمة، ولا سيّما الوسام الحربيّ، وقد اهتزّت جميع أعطافه زهواً.

ووقع نظر ليراك على ماري فيران، فبدا له أن منظر وجهها قد تغيّر، وأن ظلال الامتقاع قد تبدّدت، وأنّ جلدها قد بات أقلّ شحوباً، وأخذ يكلّم نفسه:

– إنني أتعرّض للهلوسة. إنها ظاهرةٌ نفسيّةٌ جديرةٌ بالاهتمام، يجدر تسجيلها.

وأخرج قلم حبر، ودوّن على كمّه ساعة ملاحظته: كانت الثالثة إلاّ ثلثاً.

غير أنّه استدرك: ولكنّني، حتى هذا اليوم، لم أتعرّض للهلوسة، ثمّ التفت إلى م. وقال: انظر إلى المريضة. ألا يبدو لك أن منظرها قد تبدّل؟

وأجاب م.:

– إن كان هناك تحوّلٌ، فهو من الضآلة بمكان. إنني ألحظ فقط أن حالتها لم تتفاقم سوءاً.

وتقدّم ليراك، وعدّ النبضات، وقاس سرعة التنفّس، وبعد لحظة قال لـــ م.

– إن التنفّس قد تباطأ.

فردّ م.، وهو غير مؤمن، وغير قادر على أن يرى في الأمر شيئاً غريباً، أو ما يشبه المعجزة:

– إذن، يلوح لي أنها، الآن، قد أشرفت على الموت.

ولم يُحِرْ ليراك جواباً، ولكنّه كان يلمس تحسّناً جليّاً وسريعاً في الحالة العامّة، وشعر أنّ حدثاً ما على وشك التحقّق، غير أنه قاوم انفعالاً عابراً. كان متّكئاً على الحاجز، وقد انشدّت جميع ملكات انتباهه نحو ماري فيران، لا يرى سواها أحداً. في تلك الأثناء، كان الكاهن يلقي عظةً على مسامع جهور الحجّاج والمرضى، وكانت تراتيل وأدعية تتفجّر، ووجه ماري فيران لا يفتأ يتحوّل، وقد شخصت منها العينان البارقتان في ذهول نحو المغارة. تحسّن هامّ كان قد طرأ وكانت الآنسة أو. تنحني على ماري فيران وتساندها.

فجأة شعر ليراك أنّ الشحوب قد عراه، فقد شاهد، عند الزنّار، الغطاء يغور شيئاً فشيئاً، حتى مستوى البطن، ولدهشته لفت نظر م.، الذي قال:

– حقاً، يبدو أن هناك انخفاضاً، ولكن لا بدّ من أن يكون الغطاء قد هبط.

ودقّت ساعة الكنيسة الثالثة. بعد بضع دقائق، كان ورم البطن يبدو وكأنه

قد تلاشى كلّيّةً، وجال في خاطر ليراك: أظن أنني، حقاً، قد فقدت رشدي. ودنا، حينئذٍ، من ماري فيران، وراقب تنفّسها، وعنقها. كان القلب لايزال متسرّعاً، ولكن خفقاته عادت طبيعيّة. من المؤكّد أنّ حدثاً كان يجري، وسألها:

– كيف تشعرين؟...

فأجابت ماري فيران بصوت خافت:

– إنني على أحسن حال. لست قويّة بعد، ولكنني أشعر أنني قد برئت.

ولم يبقَ للتردد مكانٌ. فحالة ماري فيران كانت تتحسّن، بل قد بات من الصعب تعرّفها.

لقد ساور ليراك اضطرابٌ شديد. وبات عاجزاً عن التفكير. ومن غير أن يغادر مكانه أحاط م. والآنسة أو. علماً بما كان يحدث.

كانت الآنسة أو. تشهد ذلك الأمر العجيب، في دهشة تحاكي دهشة طبيب وهو يشهد التئام كسر. إنها كانت قد ألفت مثل هذه الأمور.

أما ليراك، فلم ينطق بحرف، وأقلع عن التفكير، فذلك الحدث غير المتوقّع كان يتعارض مع كلّ توقّعاته، بحيث ظنّ أنه في حلم.

وقدّمت الآنسة أو. كوباً مليئاً بالحليب إلى ماري فيران فشربته كلّه، ثم بعد فترةٍ وجيزةٍ، رفعت رأسها، وتطلّعت فيما حولها، وتحركت قليلاً، فمالت على جنبها من غير أن تبدر عنها أيّة أمارة ألم.

ونهض ليراك فاجتاز صفوف الحجّاج المتراصّة، وسط أدعيتهم التي يكاد لا يسمعها، ومضى، وكانت الساعة تشارف الرابعة.

لقد تحقّق المستحيل، غير المتوقّع، لقد تمّت المعجزة، لقد برئت تقريباً فتاةٌ محتضرةٌ.

كان لا يزال يجهل حال الإصابات الفعليّ، غير أن تحسّناً وظيفيّاً، كان، في الواقع، قد جرى تحت بصره، وسيتأكّد عمّا قريب، أنّ ذلك التحسّن كان عجيباً، وفي أيّة بساطةٍ!

الآنسة أو. وهو كانا الوحيدين الواقفين على حقيقة المعجزة.

وعاد إلى ساحة المسبحة الوردية.

كان مكتب التحقيقات الطبّيّة يقع تحت قناطر الدرج الأثري، بالقرب من مركز مضيفي سيدة الخلاص. عندما وصل ليراك، رأى الدكتور بواساري، مدير مشفى لورد، وكان واقفاً عند الباب، فحيّاه، وروى له، في الحال، الأمور العجيبة التي كان لها شاهداً. ورنا إليه بواساري، في غير دهشة. كان رجلاً مسنّاً، قصير القامة، ممتلئاً، ذا وجه عريض أمرد. كانت عيناه الباهتتان تكمنان تحت حاجبين داكنين ناتئتين، ولكن كان يمكن مشاهدة برق يتفجّر فجأة تحت الجفون المسبلة. كان ليراك قد اطّلع على مؤلّفاته، ولئن كان لا يؤمن بصلاحيّة أساليبه النقدية، إلا أنه كان يُكبِر فيه خلُقَه وذكاءه.

وعلى أيّة حال، كان الدكتور بواساري قد استقبل ليراك بأجمل ترحاب، وأعطاه في كياسة لا ينضب لها معين، جميع المعلومات الممكنة. لقد كان بواساري قد نصّب نفسه محامياً عن لورد، بدافع القناعة، لا بدافع المصلحة، وبصفته طبيباً ذكيّاً، مخلص النيّة، كان قد دوّن، في كتبٍ شهيرةٍ، حالات الشفاء الخطيرة الشأن، وكان يستأهل الإعجاب الذي يحقّ لكل قناعة مخلصة، ولكل تضحية. وكان قد ثبت في مكانه، لدى سماعه رواية ليراك، وإذ كان هذا الأخير يتحدّث عن تحسّن وظيفي فحسب، غير متطرّق إلى برء الإصابات، قال له بواساري باطمئنان: إن مريضتك قد برئت، أو على الأقل إنّ احتمال شفائها كبير، هاتها إلى العيادة منذ الغد.

وأجاب ليراك:

– بل سأهرع للتحقّق من الأمر، فور رجوعها إلى المستشفى، وسيكون الحدث مذهلاً. وأردف الدكتور بواساري:

– أمس كنت أقول لك إن الأورام، والسرطان، والسلّ، تبرأ بفعل قوة تبدو مستحيلة، وهذا أمر لا بد من التسليم به. أما التهاب الصفاق السلّيّ، فهذه ليست الحالة الأولى. لقد تمّت تحقيقاتٌ في حالات مماثلة، وعلى نحو خاصّ، في حالة الأب سلـــڤـــاتوري، الكاهن الذي قدم إلى هنا في حالة احتضار، من جرّاء السلّ الرئوي، والتهاب الصفاق، وقد شفي خلال خمس دقائق. وفي العام الفائت، في مثل هذا الوقت من السنة، وضمن حجّ قادم من ليون، شفيت فتاة هي الآنسة د. في غضون دقائق معدودات، من التهاب صفاق حاد جداً.

وقفل ليراك عائداً إلى فندقه، عازماً على الامتناع عن أيّ بحث قبل التأكد مما حدث، على نحو ثابت، إلاّ أنه كان يؤنس سعادةً عارمةً، إذ قد بلغ أرب رحلته، وتسنّت له فرصة نادرة، كي يرى حدثاً.

ولم يكن قادراً على منع نفسه من التفكير: لم يكن ممكناً أن تكون حالة التهاب صفاق ذات منشأٍ عصبيّ، فقد كانت الأعراض جليّةً، وعلى أتمّ وضوح، ورغم ملاحظات بواساري، كان ليراك شديد الاهتمام بما سيقف عليه. وفي الساعة السابعة والنصف ارتدّ إلى المشفى، متحرّقاً فضولاً وقلقاً.

كانت الشمس قد اختفت خلف ذؤابات التلال. وفي سكون النهار المتصرّم، كان المرضى يصعدون من جديد إلى المستشفى، على محفّاتهم، أو في عرباتهم الصغيرة، على إيقاع التسابيح وأنغام "السلام يا مريم". وبعضهم كانوا يسيرون، مشرقي الوجوه، بين ظهراني ذويهم وأصدقائهم، ومجهولين جذبهم سحر المعجزة الذي لا يُقاوَم.

أولئك هم الذين أوتوا امتيازاً وبركةً، وألقت عليهم عذراء الرأفة نظرها، لحظةً، أما الآخرون، البؤساء الذين عصر السرطان أحشاءهم، فكانوا سيعودون، هم أيضاً، إلى ردهات المستشفى ليتألّموا، ولكن مع ذلك، تجلّت فيهم السعادة، إذ كان يلازمهم يقينٌ صامد بأنّ يسوع سيحضر من فردوسه لشفائهم.

وكان ليراك يتساءل: أيمكن أن يكون الفرض المستحيل قد أمسى واقعاً؟...

وفتح باب قاعة سيّدة الحبل بلا دنس، وخفّ الجميع نحو سرير ماري فيران، وانعقل لسانه، فالتحوّل كان خارقاً.

كانت الفتاة في قميصها الأبيض، جالسةً فوق السرير، وعيناها تلمعان في وجهٍ مازال رمادي اللون معروقاً، إلا أنه متحرّكٌ حيّ، وعلى شيءٍ من الحمرة في الخدّين. عند ملتقى الشفتين المطبقتين، كان لايزال تغضّنٌ أليم، طبعته سنوات العذاب. ولكن، من كل كيانها كان ينبعث شعورٌ بالسكينة يندّ عن الوصف، يشعّ فيما حولها، ويضيء بالفرح القاعة الحزينة.

وقد بادرت ليراك الذي دنا منها بالقول: سيدي الدكتور، أنا قد شُفيت تماماً. مازلت أشعر أنني مفتقرةٌ إلى القوّة، ولكن يلوح لي أني، لو عزمت، لاستطعت السير. وأمسك ليراك بمعصمها، فإذا بالشريان الكعبريّ، تحت إصبعه، يخفق على نحو منتظم هادئ، ثمانين مرة في الدقيقة. وذكر كم كانت وتيرته قد تسرّعت خلال الأيام الفائتة كما كان يشير، آنذاك، النبض المتقطع، المتسرع، الذي كان يكاد لا يعدّ، وكذلك التنفس قد عاد طبيعياً، والصدر بات يرتفع بتؤدة وانتظام.

ولكنّ ليراك كان مايزال يتساءل:

– أهو شفاء ظاهري فحسب؟، تحسّن وظيفي مدهش؟ ضربة سوط أنزلها بالجسم إيحاءٌ ذاتي مكثّف؟ أو إنّ الإصابات قد زالت فعلاً؟ هل هو حدث نادر، ولكنه معروف، أم هو واقع جديد، أمرٌ مستحيل، مذهل: المعجزة؟...

وقبل أن يفحص بطن ماري فيران، في محاولة لحل الإشكال، انتابته لحظة قلق وتردّد، وكان يرتعش رغبةً وخشيةً، في آنٍ معاً، وانتزع الغطاء، وتأمّل، فبدا الجلد أبيض أملس، وتحت الخصر الضيّق، رأى البطن صغيراً، مسطّحاً هابطاً، كما هو حال شابّة في العشرين تعاني هزالاً شديداً. حينئذٍ وضع يديه على جدار الجوف، فتبدّله ليّناً، مرناً، شديد الرقّة.

وكانت الأنامل الفضولية تنتقل، فلا تُحدث أي ألمٍ، جاسّةً كل جوانب البطن، والخاصرة والحوض، بحثاً عن الورم، وعن الكتل القاسية التي كانت قد تبخّرت، تبخّر حلم، وعاد كل شيء طبيعيّاً. وحدهما الساقان كانتا لاتزالان منتفختين.

لقد كان الشفاء تامّاً، وقد انكفأت تلك المحتضرة، المزرقّة الوجه، المنتفخة البطن، الشاردة القلب، في غضون ساعاتٍ معدودات، فتاةً شبه طبيعية، وإنما قد نال منها الهزال والوهن.

وأحسّ ليراك بقطرات عرق تنساب على جبينه، وكان يشعر وكأنه قد تلقّى لكمةً بقبضة يد، على رأسه، وكانت شراييه تخفق. وتصلّب في جمود مطلق، خال من أي انفعال. وفي تلك الأثناء، مرّ ج. مع م. فقال ليراك إلى م. الذي دخل من غير أن ينتبه له، فوجده بغتةً أمامه:

"يبدو أنها برئت. افحصها مرة أخرى، فأنا لم أجد فيها أية علّة".

ولجأ الطبيبان ج. وم. إلى جسّ البطن، فيما كان ليراك يقف خلفهما، متتبّعاً، بعينين متألقتين، حركات زميليه، وكان يقول لنفسه: "إنّ هذه الفتاة

قد برئت تماماً، لا جدال في ذلك. إنني لم أشهد يوماً، أمراً على هذا القدر من الإثارة. أي انطباع مريع وعذب يخلّف هذا المشهد الفريد، منظر الحياة تعود، سريعةً، إلى جسم كادت تدمّره سنواتٌ من المرض! فوق كل جدال، هناك حدث موضوعيّ: شفاء فتاة كانت مصابة بداء على قدر من الخطورة شديد. إنه تحقيق المستحيل، أو إنني ربما أخطأت التشخيص، وربما كانت حالة التهاب صفاق عصبيّ المنشأ.

ولكن لم تكن أمارات التهاب صفاق عصبي، بل إن كل الأعراض كانت تشير إلى التهاب صفاقٍ سلّيّ. لقد قضى أبواها من السل، وكذلك إخوتها، وقد ابتليت بذات الجنب السلّيّة المتكرّرة، إذ إنّ طبيبها قد انتزع منها ليترين من السائل، وأُصيبت بالسلّ الرئوي، ونفثت الدم، وقد شخّص الأطباء والجراحون التهاب صفاق سلّيّ، وحسب جميع الظواهر لم يكن ممكناً إصدار أي افتراض آخر، بعد جسّ بطنها. لو أني لم أدوّن مراحل مراقبتي لها، لارتبتُ في دقّة ذكرياتي. إنه من المؤكد، قطعاً، أنّ حالتها العامة كانت شديدة الخطورة، وقد برئت.

إنها لمعجزة، المعجزة الكبرى، التي تثير حميّة الجماهير، وتدفعهم، في انقضاض مجنون، نحو لورد، وهم في ذلك على حقّ.

مهما كان منشأ هذا الحدث المدهش، فالنتيجة رائعة ومجدية. أية مصادفة سعيدة أن تشهد شفاء تلك التي كانت معرفتي لها هي الأوثق، بين سائر المرضى، والتي تقصّيت حالتها طويلاً!

ولكن، هاأنذا مُقحَم في قضية أعجوبة، وما همّ؟ مهما غلا الثمن سأمضي حتّى النهاية، كما لو كان الأمر يتعلّق بتجربة على كلب، لا أبغي أن أكون هنا سوى آلة تسجيل دقيقة.

وإذا كان الأمر أعجوبة حقاً، فلا بد من التسليم بوجود قدرة تفوق الطبيعة. كل ذلك مدهش. أية قوة تلك التي تخرج من مياه لورد؟ في الحقيقة أنا لا أفهم شيئاً..." ثم سأل م. الذي جسّ بطن المريضة طويلاً:

– هل تجد شيئاً؟

– لا شيء مطلقاً، ولكنّني سأتسمّع إلى الرئتين.

ووضع م. أُذنه على صدر ماري فيران، في حين كان ج. يعُدّ خلجات قلبها، والدكتور ك. يراقبها، وهو إيطالي قد ارتدّ إلى الإيمان الكاثوليكي، بعد أن قضى في ربوع أوروبّا سنوات، غارقاً في التمتّع بملذات الحياة.

وكانت الآنسة أو. إلى جانب ماري فيران، ترنو إلى مريضتها، في دهشة وجزعٍ، وقد أتعب الإرهاق ملامحها الجميلة. وكانت بعض النسوة قد اقتربن من السرير، وأحطنَ به، وساد الصمت. أما ماري فيران، التي كانت تُجَسّ وتُعجَن، وتدلّك من كلّ صوب، فقد كانت مشرقةً، وكان فرحها، وسعادتها الصامتة، ينتقلان إلى الجميع، بحيث طاف في جوّ القاعة انطباع فرح ساكن، وسلام.

وكان الليل يهبط، والنور الهادئ المنبعث من النهار المتصرّم يتسرّب من النوافذ العالية المشرعة، وفي صفاء السماء الذهبيّة، كانت ڤـــينوس تسطع بألقٍ أخضر. وفرغ الطبيبان، أخيراً، من فحصها، فأعلن الدكتور ج. متأثّراً:

– لقد برئت.

وأضاف م.:

– أنا لا أجد فيها علّةً، تنفّسها طبيعي تماماً، ولم تعد تعاني أي داء، وبوسعها أن تنهض الآن.

وتابع الدكتور ج.:

– لا يمكن تفسير هذا الشفاء بالوسائل الطبيعيّة.

ولاحظ الدكتور ك.

– إنها لمعجزةٌ كبيرة. هل أنت سترتدّ يا سيد ليراك؟ أنا قد صلّيت كثيراً من أجلك.

وقال ليراك بصوت منخفض.

– إنها فعلاً معجزة، إنني لم أخطئ التشخيص.

ثم ظلّ صامتاً، وقد استحوذ على ذهنه اضطراب شديد، ولم يعد يقوى على تكوين رأي. بم يجيب، عندما سيقال له إنّ الشفاء كان أعجوبةً؟ لقد كان عاجزاً عن أي تفكير. أتكون معجزةً حقاً، أرادت العذراء من خلالها إقامة الدليل على وجودها الموضوعي؟ ولم لا؟ إذن، لم يبقَ له سوى الإيمان بالمعجزة. أهي أعجوبة حقاً؟ لا بد من الانتظار سنة أو سنتين.

ولكن ما جدوى جدلنا العقيم حيال سعادة هذه الفتاة، التي كانت تسوق حياة تبعث على الرثاء، وها هي ستعيش من جديد، وستحبّ، وسترى الشمس، والهواء. ستعيش فعلاً، تلك هي النتيجة، الواقع المعجز، الحدث السعيد.

ماذا ستفعلين الآن، وقد اقتنعت بإمكانيّة معجزة شفائك.

– سأقصد راهبات القدّيس منصور، وسأنتسب إليهنّ، وسأعنى بالمرضى.

وانسحب ليراك، لئلاّ يلحظ أحد تأثّره.

وبعد أن فحص بعض المساكين، غادر المستشفى. كان الليل قد أمسى كثيفاً، وما زال بعض المرضى المتباطئين يثوبون إلى مهاجعهم. وكان رجل مسنّ، مرتدٍ معطفاً أصفر، يجرّ في عربةٍ صغيرة، امرأة بلهاء، وقد راحت غدّتها الدرقيّة الهلاميّة ترجّ على صدرها، وربّما كانت قد نُسيت عند المغارة حتّى تلك الساعة المتأخّرة. وكان الشاب الذي التهم السرطان وجهه يسير إلى

جانب الكاهن، وجميع الحجّاج الأصحّاء، كانوا على غراره، ينحدرون نحو ساحة المسبحة الورديّة، حيث كانت ستبدأ، بعد حين، الطقوس الليلية. وفي نهاية شارع المغارة، كانت الكاتدرائيّة تبرز شاخصةً نحو السماء، متوهّجةً بالألوان الزرقاء والخضراء والحمراء، المنبعثة من ألوف المصابيح الكهربائية، في حين تدلّت من حاجزي درجها الجبّارين المؤدّيين إلى الباب الرئيسي، ألوف الأنوار، هابطةً نحو الساحة التي اتّقدت فيها، أيضاً، أمواج الضياء، وكان ثعبانٌ ضخم من النور ينشر حلقاته على الفناء الخارجي.

وكانت تتصاعد من شتى جوانب الحشد الغفير، تراتيل غير متناسقة، وأدعية "السلام عليك يا مريم" تتردّد إلى ما لا نهاية.

وكان الأمر أشبه بطواف هائل بالمشاعل، أو باستعراض جبّار، حلّت فيه جوقات الأطفال المريميّة، محلّ حلبات الرقص. وكان اندفاع المؤمنين في تعاظم مطّرد، والجميع ينشدون. إلا أنّ ليراك اجتاز الجمهور المحتشد، وحلقات التطواف، فالتجأ إلى ضفاف مجرى السيل، في منأى عن ترداد التراتيل الملحاحة، وعن إسراف الأنوار المتعدّدة الألوان، المفرط.

وفي أثناء مروره عبر حشود الحجّاج المتحمّسين والمتورّعين، لم يخطر له أن يبتسم ساخراً من سذاجتهم، وآمالهم الخياليّة، فقد انقلبت، مؤقّتاً، جميع مبادئه وبات اللامنطقيّ حقيقةً واقعيّةً، وغدا المحتضرون يبرأون في غضون ساعاتٍ معدودات.

وإذن، فلتلك الطقوس قدرةٌ وجدوى، وأي درسٍ في التواضع! في ذلك النهار كان ليراك قد ظفر بأروع اكتشافاته. أوَليس مذهلاً أن يرى مريضاً يتعافى، بعد أن تأكّد، هو، في أعقاب دراسةٍ منهجيّةٍ لحالته، أن لا شفاء له؟

لقد عاين، فيما مضى، العديد من حالات التهاب الصفاق السلّيّ، حتّى

العصبيّة منها، بحيث كان واثقاً أنه لم يخطئ التشخيص، ولو أن ماري فيران كانت، من قبل، مريضته، لكان قد فتح بطنها، عوضاً عن أن يأتي بها إلى لورد. كان قد أعلن أنّها تحتضر، وها هو، في هذه الساعة الحاضرة، عاجزٌ عن أيّ تفسير للحدث الذي لا يُصدّق الماثل أمام ناظريه.

فإمّا أن يكون قد أخطأ في التشخيص خطأً فادحاً، أو إنّ في الأمر أعجوبةً. إنه مهما حاول إقناع ذاته بألاّ يكون سوى آلة تسجيل صادقة، وأن ليس من شأنه تفسير الوقائع، إلاّ أنّ فكره لم يعُدْ له مطيعاً، بل راح يتوثّب خارج الحدود الضيّقة التي أراد حبسه فيها، ويضجّ فضولاً لمعرفة هذا الشيء الرائع، فائق الطبيعة، العذب، الذي يدعوه المؤمنون أُعجوبة.

بالمعنى الفظّ للكلمة، كانت ماري فيران "ناجيةً بأعجوبة". إنّ كون فتاة تحتضر عند الظهر، قد تعافت في السابعة مساء لأمر غير طبيعي، يبرّر حماس الجمهور.

ولكن في قرارة نفسه، ما الذي كان عليه أن يؤمن به؟ في اضطرابه كان متردّداً بين فرضين: أو أن يكون قد وقع في خطأ تشخيص جسيم، ورأى في أعراض عصبيّة إصابةً عضويّة، أو أن يكون ما شخّصه هو، حقاً، التهاب صفاق سلّيّ، وقد شفي فعلاً. أو أن يكون قد ارتكب خطأً شنيعاً، أو أن تكون أعجوبة قد انفجرت أمام ناظريه، بل إنّ فكره كان يسرح إلى ما أبعد من ذلك: ما هو سبب الأعجوبة؟

كان ليراك قد تعدّى الحاجز، وبات إلى جوار مجرى السيل وحيداً، وشاهد، إزاء المغارة، آ. ب. الذي جاء فجلس معه على حافّة الرصيف.

وراحا يتأمّلان طويلاً، وفي صمت، المغارة التي كانت تتوهّج في الظلمة، وترسل إليهم ومضاتٍ حمراء منبعثةً من ألوف الشموع، وكانت تتراجع، من

الطواف المشرف على نهايته، أصداء "السلام، السلام"، فيما السيل يدفق مياهه الهادرة على الصخور.

وكانت نسوةٌ تصلّين صامتاتٍ، جالساتٍ أو جاثياتٍ، وإلى جانب حاجز المغارة، برزت، باللون الأسود، قامة الآنسة أو. راكعةً على البلاط، مستغرقةً في صلاةٍ طويلةٍ. وشيئاً فشيئاً اختفى الحجّاج، فبقي ليراك وصديقه، وحيدين، أمام المغارة المقفرة، وكانا، كلاهما، في هدأة الليل، يلزمان الصمت. كان آ. ب. منهكاً، ولكن صامداً صموداً بطوليّاً، يجيل فكره في أمر زوجته الشابّة، والابن الذي سيولد، وبالأعجوبة الرائعة التي أجراها الله. أمّا ليراك، فقد شخص ببصره، في حرارة، نحو تمثال العذراء، والعكاكيز المضاءة بنور الشموع، التي صبغ دخانها الذي لا ينقطع، الصخر، بالسواد، وفي الأسفل، في الظلّ، الصنابير النحاسيّة التي يتدفّق منها الماء العجائبي فبالإضافة إلى توثّبات الجماهير الروحيّة، والتراتيل، ورائحة البخور، وارتعاش جميع تلك الإرادات المشدودة، كان الماء الذي يظهر هنا بكامل عريه، هو أداة الشفاء، وهذا هو ما كان لايزال مستغلقاً على إدراكه.

وسأله آ. ب. في رفق:

– اقتنعت الآن، أيّها الفيلسوف الملحد؟

– بمَ أجيب؟ إنّ الإيمان عملٌ على جانب كبير من التعقيد... مازلت غير ملمٍّ بما رأينا. إنني أراقب أحداثاً، ولا أنطلق منها إلى الأسباب. فتاةٌ مصابةٌ بعلّةٍ خطيرة، مات أبواها وإخوتها مصدورين، وبدت عليها، هي نفسها، منذ سنّ الحادية عشرة، أعراض نفث الدم، ثمّ ذات الجنب، ثم بُزل منها السائل، كما بدت عليها أمارات سلّ رئويّ، وأخيراً دلالات واضحة عن التهاب صفاق سلّيّ، هذه الفتاة، إذن، برئت في غضون لحظات، تحت أنظاري. إنه أمر رائع، إنه أعجوبة.

– "ولكن الأعجوبة واقع يفوق الطبيعة، وخرقٌ لقوانينها يحقّقه الله، وهذا هو الواقع الذي تفجّر بين أناملك.

– إنه فرضٌ يبدو لك مقبولاً، ويبدو لي فظيعاً، ولكن لا يحقّ لي رفضه، مبدئيّاً، فمن وجهة نظر علميّة، نحن لا نعلم شيئاً عن الأسباب الأولى، وكما كان يقول كلود برنارد، لا شأن لنا أن نبحث عنها، ولكن الخطأ يظلّ أبداً ممكناً، فربما كانت هذه الفتاة مبتلاةً بالتهاب صفاق عصبيّ، وخدعت الأطبّاء والجرّاحين، وقد زالت علّتها، آنيّاً، بفعل إيحاءٍ ذاتيّ.

– ولكن كان لديك من اليقين أن علّتها عضويّة، بحيث أكّدتَ لي أنها لو برئت لترهّبت.

– آسف أنني قد نطقت بعبارة طائشة، وإنما ذلك يدل فقط على سلامة نيّتي، ولا يدلّ مطلقاً على عصمتي من الخطأ.

– وهل قرأت كتب لاسّير، وكتب زولا نفسه؟

– أجل، كنت قد قرأت زولا، ووفقاً للحالات التي تكلّم عنها، مثل حالة إيليز روكيه، من بين حالات أخرى، خيّل إليّ أنّ أحداثاً غريبةً تجري في لورد، مثل شفاء إصابات سرطانية. أما الحدث الذي شهدناه منذ فترة وجيزة، فهو يوفّر دليلاً من نوع آخر، فتلك الفتاة من جرّاء إصابتها العضويّة، كان من شأنها أن تكون قد قضت نحبها، منذ قليل، وإنّ شفاءها مذهلٌ. وكان لا بد لي من هذه المراقبة المباشرة، فنحن ميّالون، رغم كلّ شيءٍ، إلى تصديق الخِدع.

إن ما يجدر، على الأقلّ، الجهر به، هو أنّ المرضى يبرأون في لورد، على نحو مدهش. إنّ زملائي يلزمون الصمت في عناد، وفي لامبالاة فظيعة، ويتحتّم أن تقدم إلى هنا لجانٌ كفيلةٌ بإلقاء الضوء على الواقع.

إنّ هذه الأحداث المفتقرة إلى تفسير لمقلقةٌ ورهيبةٌ، فإمّا ألاّ يكون وجودٌ

ليقين الفحص السريري، وبالتالي فأنا عاجزٌ عن درس حال مريض، أو أن يكون أمامي حدث جديد، مذهلٌ حقاً، يتحتّم تبصّره، بأدقّ تفاصيله.

إذ إنّه يتمّ الحصول، في لورد، على نتائج تفوق، بما لا يقاس، نتائج أيّة معالجة أخرى، وإنه، في سبيل شفاء مريض، من أجل تلطيف الآلام، كل الوسائل جيدة، إن هي كانت مجدية، والنتائج وحدها هي التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان. وأنا قد راقبت حدثاً غير طبيعي يتميّز بقيمة عمليّة كبرى، إذ إنه جعل ممّن كانت عمود مستشفى، فتاة تتمتّع بالعافية، وقادرة على أن تحيا حياتها. ينبغي، إذن، التحقّق من الأحداث، وعلى الأخص، تقصّيها تقصيّاً وجدانيّاً، عوض ازدرائها. هذه، فيما أرى، النتائج الوحيدة التي يمكن استخلاصها من أعجوبتنا.

– كلامك هذا ينطوي، ولا شكّ، على درس، ولكن ما قولك في السبب؟

– إنّ ما قلته، فعلاً، لا يلمّ بكلّ شيء، فمن المستحيل أن تسبّب أحداث طبيعيّة شفاء المرضى على هذا النحو، ومثل هذه الأشفية، لا تجري في مكانٍ آخر، والإيحاء الذاتي لا يفسّر كلّ شيء.

وهناك مرضى شفوا خارج برك الاستحمام، ومن غير حاجة إلى ماء لورد، مثل پـــيير دي رودير، الذي برئ من غير ماء، بمجرد دعائه للعذراء القدّيسة. إنني أرى أنّ العذراء هي التي تفعل مباشرة، وفق ظاهرة تفوق الطبيعة. ومن أجل تكوين رأي قاطع، ينبغي تقصّي جميع الأحداث، والتأكّد من صلاحيّتها، وتصويرها، على غير ارتياب في سلامة نوايا بواساري وأترابه، بل في تريّب من إمكان وقوعهم في الخطأ، ويجب تنظيم لقاءات أطبّاء يمكن بها الخروج إلى نتائج.

أما أنا فلست أدري، ولكنني آبى فكرة أن يكون للماء الطبيعي أي مفعول.

وردّ آ. ب. ضاحكاً:

– ومع ذلك، فهذا لا يعفيك من واجب ارتداء الثوب الرهبانيّ إلى اللقاء.

– لو أنني كنت في دير لقَذف بي الرهبان خارجاً، بسبب تفكيري الملتوي.

وكان الليل قد تقدّم، وربما انتصف.

وكان القمر يصعد، وئيداً، من خلف التلّة، في سماء رائعة، فتبدو الأشجار وظلالها متمادية الطول...

وظلّ ليراك وحيداً في قلب الليل الشفاف، ولم يعد سوى رجل هائم في الليل، وقد حاصرت ذهنه هواجس النقد العلمي التي كان قد حاول إقصاءها عنه... ما السبيل إلى تفسير أحداث لورد؟... من جديد طالعه مسلسلٌ أحداث النهار وهلوساته.

لقد كان، بادئ الأمر، قد تصلّب، مقاوماً الانطباع العنيف الملحاح إلى أقصى حدّ، الذي أفرزته المشاهد الجارية أمامه، وقد رفض، بكلّ طاقة إرادته، ليس فقط كلّ استنتاج، بل كلّ فكرةٍ كان من شأنها أن تحيد به عن البرنامج المرسوم: المراقبة والتسجيل، على غرار آلةٍ، من غير بغضٍ ولا حبٍّ.

لم يكن يروق له أن يجد نفسه مُقحَماً في قصّة أعجوبة. كان قد قدم لكي يرى، وقد رأى، وعلى نحو ما يحدث إبّان تجربة في مختبر، لم يكن قادراً على مسخ نتيجة ملاحظاته. أهي وقائع علميّة جديدة؟ أم هي وقائع تمتّ إلى الصوفيّة، وما فوق الطبيعة؟ تلك الأسئلة كانت ترتدي خطورة بالغة، فالأمر لا يتعلّق بقبول نظرية هندسية، بل بقضايا كفيلة بتغيير اتّجاه حياة.

كان ذلك هو رأي زولا، ورأي جميع الذين استطاعوا الإفلات من ذلك الوضع الفكري الذي غالباً ما يخلّفه لدى الأطبّاء الافتقار إلى ثقافة عامة. فدروسهم الطبية قد أتاحت لهم إلماماً سطحياً بكثير من القضايا العلمية، بيد أن

معظمهم لم يُجروا، يوماً، أبحاثاً علميةً حقيقيةً، بل لا يملكون أدنى فكرة عن البحث التجريبي، ومع ذلك يظنّون أنفسهم علماء. إن افتقار الكثيرين منهم إلى منهج أكيد، ومستواهم الذهني الواهي يجعلانهم عاجزين عن أي عمل نقدي، ذي بال. إن معظمهم مازالوا يتخيّلون أن لورد لا تنطوي إلا على خداع، ولا يتجاسرون على بحث المسألة، أو الأخذ بنصيحة زولا، وأن يشخصوا، جماعياً، صوب هذا المكان حيث تحدث، على نحو ثابت، أحداث ذات مغزى علمي رفيع، وأمورٌ لم تشاهَد، قطّ، من قبل، ووقائع كلية الجدّة، بوسعها أن تضيء، بنورٍ خاص، علم الأمراض العصبية، ودور الجهاز العصبي، اللذين مازال يرين عليهما الكثير من الجهل.

بل قد تبلغ صغارة الأطباء، أن من أمّ منهم لورد لا يجرؤ على الاعتراف بذلك. أوَلم يلحظ ليراك، في سجلات لورد، أسماء الكثيرين من زملائه وأصدقائه، الذين حدّثهم عن هذه القضايا، فتظاهروا بجهل كل شيء عنها، وكأنهم لم يقدموا يوماً إلى لورد، خشية أن يُتّهموا بالتديّن والحماقة؟

أما ليراك، فلئن كان في حرج من جرّاء انغماسه في هذه القصة، إلاّ أنّ كبرياءه كانت تدفعه إلى المضيّ حتى نهاية الشوط، مهما غلا الثمن.

ولكن إلى أين سيُفضي به المشوار؟ نوبة أخرى، قامت لديه حاجة ملحّة لمعرفة سبب هذه الظواهر المذهلة.

إن الظواهر الطبيعية، وقوانين الحياة، تكاد تكون غارقة في جهل مطبق. إننا لا نعرف منها على نحو واثق، سوى عدد ضئيل من التفاصيل التي تبرز كنور ساطع، وسط محيط مدلهمّ.

ربما استقرّت، تحت تأثير بعض الإرادات المشدودة، قدرةٌ تنبعث فتُحدث آثاراً علاجيّة مدهشة، وقد بدا، فيما مضى، أن ظواهر التخاطر عن بعد، ذات

تأثير خارق. الإنسان البدائي، كان لدى سماعه هزيم الرعد، يعبد قدرة الله، ويخشى غضبه. كلّ هذه الظواهر المغرقة في الغموض، ألا تجد لها تفسيراً في قوانين سرّيّة، لا نملك بعدُ، عنها أدنى فكرة؟

ربّما، ولكن ما أقسى العجز عن المعرفة! ثم، ولو فرضنا أن دماغاً ذكياً قد تمكّن من الإجابة، فلماذا نشاهد، أيضاً، من يُشفَون بعيداً عن تلك التظاهرات الكبرى، حيث التوثّب الروحي يغدو معدياً؟ في هدأة غرفة، أو إبّان حجّ فرديّ منعزل، كما هو حال پيير دي رودير، أو ج. د. أو ماري فيران، تلك الفتاة المسجّاة على محفّة شبه وحيدة، أمام مغارة تلتهب فيها الشموع.

وبالتالي يمكن إدراك هروع الجموع إلى لورد، حيث المؤمنون يلتفتون صوب كائن تكتنفه الأسرار، كفيل بالإجابة مباشرة على تطلّعاتهم وصلواتهم.

كان ليراك هائماً في هذه الأحلام، وهو يتنزّه على الرصيف الفسيح، الذي يقوم على أطرافه حاجز، والذي يفضي إلى مدخل الكاتدرائيّة.

وكان ينبعث من البريّة الساجية، تحت القمر، هدوءٌ وسلامٌ لامتناهيان، وفوق الوادي، كان يسبح غمامٌ رقيق أبيض، فيما كانت تمتدّ التلال الزرقاء، في خطوط صافية رائعة، تحت السماء.

وكان ليراك يحدّث نفسه:

"لا شيء يُثبت، في الواقع، أنّ الله غير موجود، وأنّ العذراء ليست سوى نتاج خيالنا. يبدو لي من الصعب إقامة الدليل على وجود الله، ولكن يستحيل، أيضاً، إنكاره.

"كيف تمكّن بعض المفكّرين، مثل پـــاستور، من الجمع بين الإيمان العلميّ، والإيمان الديني؟ يبدو أنّ لكل من هذه القضايا منهجها الخاص، فيما يحاول المرء أن ينقل إلى عالم ما فوق الطبيعة عاداته، ومعتقداته العلمية، فلا يعود يبصر شيئاً.

"ومن حرص على التفكير السليم، توجّب عليه ألاّ يحيد عن مراقبة الظواهر، والعلاقة بينها.

"أمّا في البحث عن الأسباب، فلا يوجد أيّ يقين، ولا أية وسيلة، للتأكّد من عدم وقوع في الخطأ، وبالتالي فقد يقبل المرء ما يشاء.

"كنت في البدء، كاثوليكيّاً مخلصاً، ثم انقلبت رواقيّاً، ثم هويت في الريبة المطلقة والانفعالية.

"ولم أكسب من ذلك سوى المزيد من التعاسة. وحده الإيمان الكاثوليكي، الذي، للأسف، لم أفهمه، هو الذي سكب فيّ شيئاً من الرضى.

"أنا وحيدٌ في الليل. النظريات الفكرية الصرف، لا وجود لها، وما قيمة النظريات، حيال الحياة والموت؟ لا حاجة بنا، من أجل حياة حقيقية، إلى علم، بل حاجتنا إلى روح وإيمان".

وكان ليراك يسير بخطى حثيثة على الرصيف، حيث كان يتناهى، بين حين وآخر، صوت الأرغن الكبير. ورنّت البلاطات تحت وطء أحذية الحارس المحدّدة، وهو خارجٌ من الكنيسة. وكانت أصوات كثيرة تتعالى داخل الكاتدرائيّة، التي احتلّ صحنها، وملأها حتى الأبواب، فريق من الباسكيّين.

وتوقّف ليراك عند العتبة. كان لا بد له من استخلاص قرار. بلا مراء. كانت أعجوبة قد حدثت، فالشفاء كان أعجوبة، بل أعجوبة كبيرة. ما طبيعتها؟ سنرى، فيما بعد، حدّث نفسه. هي قبل كل شيءٍ شفاءٌ، هذا ما كان يحق له تأكيده، ولكن ربما، في قرارة نفسه، لم يكن بوسعه أن يقف عند هذا الحد...

وتسلّق الدرج. من خلال الأنوار والأشعة الباهرة، كان يتصاعد نشيد الأرغن، وألف صوتٍ رنّان، وجلس إلى جانب قرويّ عجوز، على كرسي،

ودفن رأسه بين راحتيه، وظلّ جامداً، فترة طويلة، تهدهده تراتيل الليل، فيما كانت تتصاعد، من أعماق نفسه، هذه الصلاة:

« أيتها العذراء الرقيقة، منجدة البؤساء الذين يدعونك في تواضع، احفظيني. أنا أومن بك. لقد شئتِ أن تردّي على شكّي بأعجوبة باهرة، وأنا لا أعرف كيف أراها، ومازلت فيها مرتاباً، إلا أن رغبتي الكبرى، والهدف الأسمى لكلّ تطلّعاتي، أن أومن إيماناً عنيفاً، أعمى، لا يشوبه جدالٌ ولا نقد.

"إن اسمك أعذب من شمس الصباح، فخذي الخاطئ القلق، ذا القلب المضطرب والجبين المغضّن، الذي ينهك نفسه في نشدان الأوهام. تحت نصائح كبريائي الفكرية العميقة، القاسية، يرقد حلم، مابرح للأسف، مكتوماً، هو أكثر أحلامي إغراءً، حلم الإيمان بك، وحبّك على غرار الرهبان ناصعي النفوس. »

وبتؤدة، في الليل الساجي، هبط ليراك، عبر الشوارع الطويلة، واجتاز ساحة المسبحة الوردية، التي كستها أشعة القمر الحليبيّة بالبياض.

كانت الصلاة تشغله، فلم يشعر بنداوة الليل العذبة، إلا شعوراً مبهماً. وعندما صار إلى غرفته، خُيّل إليه أنّ أسابيع عديدةً قد انقضت منذ بدء رحلته، وأخرج، من حقيبة السفر، دفتره الأخضر الضخم، وراح يسجّل ملاحظات نهاية النهار، وكانت الساعة الثالثة صباحاً، وفي المشرق وميض أبيض ينير الليل العميق.

مزيدٌ من النداوة تسرّب من النافذة المشرعة، وبدا له أنّ سكون الأشياء قد انحدر إلى نفسه، في عذوبة وهدوء، وتلاشت هموم الحياة اليومية، والافتراضات والنظريات، والهواجس الفكرية.

وراوده شعور بأنه، تحت يد العذراء، كان يمسك باليقين، وأنه يحسّ بعذوبته الرائعة التي تبعث السلام. وكان هذا الإحساس من العمق بحيث أزاح، في غير قلق، أي احتمال لعودة نُذُر الشكّ.

وفي سنى الصبح الذي يندّ عن الوصف، استسلم ليراك للنوم. »

3) تاتيانا غوريتشيفا (Tatiana GORITCHEVA)

ولدت "تاتيانا غوريتشيفا" في مدينة لينينغراد عام 1947. كان لها من العمر (17) عاماً فقط، عندما أصبحت المسؤولة الأعلى عما كان يسمى "الكومسومول"، في الاتحاد السوفييتي، أي الشبيبة الشيوعية. وفي السادسة والعشرين، بدأت تمارس رياضة "اليوغا". وحدث لها، خلال إحدى جلسات "اليوغا"، ما قلب حياتها رأساً على عقب، فانتقلت من الإلحاد الماركسي، إلى الإيمان المسيحي. وأسّست حركة نسائية، تحت اسم "ماريا"، تيمّناً بالسيدة العذراء. وبلغت من التأثير في طول الاتحاد السوفييتي وعرضه، بحيث نفتها السلطات. فاختارت أن تعيش في فرنسا، حيث تقيم حتى الآن. وقد صدر لها في باريس عام 1983 عن دار نشر "نوفيل سيتيه" (Nouvelle Cité)، كتاب باللغة الفرنسية، بعنوان "نحن المهتدين من الاتحاد السوفييتي". اخترت منه فصلين، الأول (من الصفحة 5–12)، الثاني (من الصفحة 13–27). وقد نقلتهما بنفسي إلى العربية.

« الفصل الأول: تجربتنا الدينية

ليس في نيّتي أن أكيل المديح للنظام القائم في وطني التعيس. ولكن ينبغي علي مع ذلك، أن أعترف بأن ظروف حياتنا في روسيا تساعدنا على العثور على الحقيقة.

نحن نعيش في عالم تعوّد منذ خمس وستين عاماً أن يخفي كل ما هو مضيء وطيب وراء أسلاك المعتقلات، في عالم بات الكذب فيه هو القاعدة، وبات الخوف فيه يلغي كل ما يطهّر الشخصية الإنسانية. فنحن اليوم – كما كان الأمر منذ ألفي عام – نواجه مرة أخرى الخيار بين الخير المطلق والشر المطلق. ولقد عادت مسألة الإيمان مسألة حياة أو موت، لأن المساومة في مجتمعنا الشمولي، باتت مستحيلة.

إن زهرة الأمة الروسية، النخبة المثقفة، تمضي اليوم إلى الكنيسة. والناس لا يذهبون إليها هرباً من مسؤولياتهم، أو بحثاً عن النسيان، أو سعياً وراء مكان هادئ ليس إلا. فإن الذين يذهبون إلى الكنيسة يملكون، بمعنى من المعاني، كل شيء: المواهب والذكاء وكل القدرات، وإنه بوسعهم، لو شاؤوا، أن يستغنوا عن الله في واقع حياتهم. والكثيرون منهم نالوا العماد في سن البلوغ، والكثيرون من المهتدين الجدد وجدوا الله في محادثة مفاجئة وغير متوقعة. فهذا كان يقرأ الإنجيل "صدفة" (في حين أن العثور على نسخة من الإنجيل بحكم الصدفة يقارب المستحيل)، ففوجئ إذ بدا له أن الإنجيل كُتِب خصيصاً له، وأنه لم يبحث هو عنه، ولكن الإنجيل هو الذي وجده هو، كي يقلبه رأساً على عقب ويخلصه. وذاك، إذ كان مارّاً بكنيسة أرثوذكسية، فأخذ بعمق ما يجري فيها وجماله وأهميته. وآخر، إذ صادف نظره صلاة ما، أخذته الدهشة ووجد نفسه مقتلعاً من هذا العالم، ومقذوفاً به في عالم آخر. وذاك أخيراً أعاد قراءة دوستويفسكي...

عندما نشاهد اليوم اهتداء الآلاف المؤلفة، من أفراد الشبيبة التي نشأت في الإلحاد، يسعنا أن نقول دون مبالغة: "إن الله يستطيع أن يستخرج من هذه الحجارة، أبناء لإبراهيم". وبما أننا لم نتلقّ أي تربية دينية في طفولتنا، فكثيراً ما

تكون زيارتنا الأولى للكنيسة معجزة بالنسبة إلينا، وستبقى ذكراها حاضرة أبد الدهر.

ها نحن قد ولجنا الكنيسة. ولقد أصبحت بالنسبة لحياتنا، لا بمثابة المعنى وحسب، ولكن أيضاً بمثابة "اللحم". ولقد تخلينا عن التظاهر، وبتنا ننكر تصرفاتنا القديمة وعاداتنا. وكنا عاجزين عن مواجهة العالم الخارجي، فلم يعطنا القدرة على التغلب عليه سوى الكنيسة، والكنيسة وحدها. ولقد استبدلت "ثيابنا القديمة" بأردية ناصعة البياض: فإننا، إذ نلنا العماد في المسيح، ارتدينا المسيح بالضرورة.

وفي الكنيسة، تعلمنا، نحن العرج والمعوقين، أن نسير من جديد، ومن جديد أن ننظر ونتكلم ونصمت. وإني لأذكر التغيير المدهش لوجوه أصدقائي القدامى، المستهترين، والعدميين: إنهم يقفون اليوم بجانبي في الكنيسة، فتياناً أنقياء مُشعّين. إن البطولة ونموذج الإنسان المتفوّق، أو أي نموذج مثالي آخر، لم يعد بوسعه أن يجتذبنا: فإن القداسة قد سحرتنا واجتذبتنا إليها إلى الأبد. فنحن نرى بوضوح أن ما من مصير أكثر نبلاً للإنسان من "التأليه"، من تقديس كل خطوة من خطوات حياته وكل نفس من أنفاسه.

ما أعظم القوى التي تنطوي عليها "تطويبات الإنجيل". فكلما نسمعها أثناء الذبيحة، تبدو لنا أنها تعلن لأول مرة، لنا نحن: "طوبى لكم أيها المساكين بالروح".

نحن نعرف منذ زمان طويل، أن الإنسان الذي لا يتشبث إلا بالقيم البشرية النسبية، هو إنسان غبي، وأنه يستحيل على الإنسان أن يعيش في حدود رضاه الذاتي، في عالم أخفقت فيه كل مخططات الكبرياء البشرية، الساعية إلى بناء الفردوس على الأرض.

"طوبى لكم إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم بكل السبل من أجلي". طوبى للكنيسة التي مجّدها قوافل الشهداء، وللإيمان الذي يُلقي بصاحبه في السجون أو في مشافي الأمراض العقلية.

نحن نملك اليقين بأن الله موجود. والكثيرون منا أصبحوا مسيحيين فجأة، إذ وُهبوا وحياً سماويّاً شخصياً. ولقد مروا بحالة تذكّر بتلك التي مر بها القديس بولس على طريق دمشق. إن حقيقة اهتدائنا إلى الإيمان، هي أفضل برهان على وجود الله.

إننا ندرك، قبل أي شيء آخر، معنى المسيحية، الروحي والصوفي. هذا المعنى هو أساسنا. فإن الشر المطلق لا يمكن التغلب عليه إلا بالصلاة، هذا الحوار المتواصل مع الله، الصلاة التي أصبحت لنا اليوم أكثر ضرورة من الهواء الذي نستنشقه. إنها خلاصنا. وإن المؤلفين الروحيين وآباء الكنيسة، قد أصبحوا معلمينا. ولقد أصبح كتاب "الفيلوكاليا" (حب الجمال) – ذلك المختار من صلوات وتعاليم وروايات نسكية – كتابنا المفضل. ولقد تعلم كل منا، من خلال مصيره الشخصي، أن نتعرف إلى محبة الله لنا. وإن تجربة اهتدائنا إلى الإيمان، تبرهن على أن التاريخ لا تصنعه القوى البشرية، ولكن الروح القدس هو الذي يصنعه، وتعلمنا أن كنيسة الله أقوى من المؤسسات الأرضية.

إن روسيا أنتجت نموذجاً إنسانياً جديداً، وقد يكون ذلك أعظم قيمنا: إنها شخصيات حرّة بالكلية، جاهزة للموت في سبيل مثالها، و"للموت في سبيل أصدقائها". إنهم أشخاص نيّرون، شجعان وخلاّقون. إنهم أحرار دون أن يكونوا عدميين، مع أن المجتمع كله يدفعهم إلى طريق الدمار. والدين المسيحي بالنسبة إليهم، ليس وسيلة للنقد أو المقاومة. فإن علاقاتهم مع ظالميهم علاقة

خالية من أي نزعة شريرة أو مرارة أو بغض. فليس ثمة سوى وسيلة وحيدة لمواجهة هذا المجتمع، بحياة ومثال إيجابيين. وبذلك تصبح المسيحية العدو الرئيسي لهذا النظام المحتضر والعدواني، لأنها تطفئ الخوف بدعوتها إلى الحب الكامل. فهي بذلك تجعلنا نكتشف حياة مختلفة بالكلية، وواقعاً جديداً، رائعاً: إنها تغلب العالم: "الآن حضرت دينونة هذا العالم، الآن يلقى أمير هذا العالم أرضاً. (يوحنا 31/12)

اليوم، في وطني كل مسيحي يدرك مسؤولياته: إن هذه الكلمات الإنجيلية تجلجل اليوم فيه أكثر من أي وقت مضى: "أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض". (متى 13/5)

الفصل الثاني: رسالة إلى صديقة في الغرب: التحول إلى الإيمان.

تسألينني ما يعني اهتدائي إلى الإيمان... ماذا عساني اكتشفت في هذا الاهتداء، وهل تبدلت حياتي؟

جوابي بسيط ووجيز: كل شيء تبدّل فيّ وحولي... بل أكثر من ذلك: لقد بدأت أعيش في اللحظة التي اكتشفت فيها الله.

هذا التأكيد يصعب عليك فهمه، لأنك قد نشأت وعشت في فرنسا. فقد وُلِدتِ في عالم مليء بالتقاليد والمبادئ، حتى لو كانت هذه المبادئ تتعرض لخلل كبير. واستطعت أن تترعرعي "بصورة طبيعية"، وأن تقرئي الكتب التي كنت ترغبين فيها، وتختاري أصدقاءك ومهنتك، وتسافري إلى البلد الذي تحبّين أو تؤسّسي أسرة ما، بما فيها من هموم عادية، وتمضي إلى دير أو تخصّصي حياتك للعلم حيثما تشائين...

أما أنا، فقد وُلدت في بلد اقتُلِعت منه بصورة واعية وبنجاح، كل القيم

الثقافية والدينية والأخلاقية. فأنا لا أعرف من أين أتيت، وعليّ أن أمضي إلى العدم... كانت لدي صديقة طفولة، وقد انتحرت في الخامسة عشرة من عمرها، لأنها لم تعد تطيق ما يحيط بها. وقد تركت قبل انتحارها هذه الكلمة البسيطة: "أنا سيئة جداً". ولقد كانت فتاة نقية على نحو كامل، ولم تكن تستطيع العيش في الكذب، بل لم تكن تتقن الكذب. كانت هذه الفتاة تشعر بالاختناق، وهي تحس بأنها لا تعيش على نحو لائق، وبأنها لا بد لها من أن تفلت خارج الفراغ المحيط بها لتكتشف النور. ولكنها لم تجد لها مخرجاً. كانت صديقة عميقة النفس. وكان ضميرها يتحسّس بصورة مبكرة جميع الأمور، بحيث أدركت أنها مسؤولة أيضاً حيال كل ما يجري حولها. واليوم، بعد عشرين سنة من موتها، بوسعي أن أقول بلغة مسيحية إنها اكتشفت ذنبها وعرفت بذلك حقيقة أساسية: وهي أن الإنسان ضعيف وناقص... ولكنها كانت تفتقر إلى حقيقة أخرى أكثر أهمية: وهي أن الله يستطيع أن يخلّص الإنسان، وأن ينهضه من سقطته أية كانت، وينتزعه من أكثر الظلمات كثافة. ولم يكن ثمة إنسان قد حدّثها عن هذا الرجاء، فماتت تحت وطأة اليأس.

كانت صديقتي تلك تفوقني كثيراً بزخمها الروحي. فقد كنت أعيش كحيوان صغير سجين ومتوحّش. كنت أحني الرأس، دون أن أحاول فهم أي شيء واتخاذ أي قرار. وكنت في وظائفي المدرسية أكتب، كما هو مفروض، أني أحب لينين ووطني وأمي، ولكن كل ذلك كان كذباً صرفاً. وكنت منذ طفولتي أكره جميع الناس من حولي حتى القرف، وما تنطوي عليها نفوسهم من هموم حقيرة ومخاوف زرية. وكنت أبغض أهلي لأنهم لم يكونوا يتميزون بشيء عن سائر الناس، ولأنهم أصبحوا أهلي بحكم الصدفة. ولكم جنّ جنوني عندما علمت أن أهلي منحوني الحياة دون الأخذ برأيي وبصورة عبثية. بل

كنت أكره حتى الطبيعة، ودوراتها المتكررة أبداً، وإيقاع الفصول الأربعة المُملّة. ولم أكن أحب إلا الوحدة التامة. وكانت أحلى لحظات حياتي تبدأ عندما كان أهلي يمضون في زيارة، ويدعوني وحدي في غرفتي الصغيرة. وكنت عندها أنطلق في تصور قصور غريبة وفي حلم لا ينتهي. فيما بعد، إذ بدأت أمارس المطالعة، كنت أنكفئ في عالمي الخاص وراء ستار كتبي الكثيف. وكانت عيوني مسمّرة أبداً في كتاب، أثناء النزهات، وتناول الطعام، وحتى في ساعات اللعب.

كان أبطال رواياتي، الشجعان والأحرار، لا يخضعون أبداً لرتابة الحياة القاتلة، وأصبحوا هم مَثَلي الأعلى. ولكن كان يبدو لي أن هؤلاء الأشخاص لم يوجدوا إلا في الكتب، وأن الإنسان لا يعيش بمنأى عن الجراح والخداع والسرقة والخوف... ومسلسل الكذب... إلا في الكتب. ومع ذلك فقد قطعت العهد على نفسي منذ طفولتي – وكان عهداً ثابتاً وصامتاً – وهو أن أكون دوماً حليفة الأبطال المنبوذين والحمقى، حليفة أبطال رواياتي... وكنت أؤثر أن أموت على أن أصبح شخصاً "طبيعياً" كسائر الناس.

وما كان استعلائي الداخلي يحول دون أن أكون فتاة رزينة وهادئة في الخارج، وذكية جداً في دراستها، يمدحها أساتذتها ويحبها زملاؤها. ولم أكن أدرك بالطبع الخلل في مثل هذا السلوك. وكان عقلي وحسّي الأخلاقي يغطّان في سبات عميق.

صحيح أن المدرسة لم يكن همها سوى تنمية الصفات الخارجية وقدرة الإنسان على المنافسة. وكان المديح ينصبّ على من يعثرون قبل سواهم على الحلول المطلوبة، وعلى الذين يقفزون أعلى من سواهم، أو الذين يتقنون فنّ التفوّق على سواهم.

فوجدَتْ كبريائي في ذلك أساساً نهائياً، بل مَرتَعاً خصباً. وباتت غايتي منذ ذلك الحين أن أتفوّق على الجميع بالذكاء والدهاء. لم أسمع ولا مرة واحدة من يقول لي بأن جوهر الحياة ليس في التفوّق على الآخرين أو في قهرهم، بل في حبّهم، وفي حبّهم حتى الموت، كما كان قد مات ذاك الإنسان، ذاك الأوحد، ذاك الذي كنا نجهل اسمه حتى ذلك الحين.

بالطبع كانوا يحدّثوننا دون ملل عن بطولات الثوار، وعن الإرادة الفولاذية لديهم. كانوا يتحدّثون عن الإنسان بتفخيم الكلمة، يحدّثوننا عن "ماريسييف"، الذي كان يتقن السير والرقص دونما قدمين، وكانوا يحدّثونا عن شخصية "راخميتوف" المنيرة، الذي كان ينام على المسامير" في سبيل مبادئه. كانت الغاية ترمي إلى ضرورة تنمية الإرادة والرغبة في الانتصار.

لو تعلمين عدد المهووسين بالفيلسوف "نيتشه" من أبناء جيلي! لو تعلمين كم أنجب الواقع السوفييتي إلى اليوم من هؤلاء المهووسين بنيتشه، من أمثال "راسكولنيكوف"، أو من أولئك الذين تسلّقوا المناصب، وهم يتحدّثون بصفاقة عن اجتياحهم الوشيك للعالم كله...

لقد قرأت الفيلسوف نيتشه وأنا في التاسعة عشرة، (وكنت وأنا في السادسة والعشرين ما أزال أجهل الإنجيل!)، وشُغفت به، كما بسارْتر وكامو وهايديغر، وبفلسفتهم الوجودية، القائمة على التمرّد، التي كانت في متناولي. ففي سنوات خروتشيف التحررية، أُجيز لنا أن نقرأ هؤلاء المفكّرين، وكانت مؤلفاتهم المترجمة رائجة. وكانت النخبة المثقّفة تتناول بالنقاش في المقاهي والباصات، مسألة الوجود غير المعقول والمقرف.

كان هؤلاء المفكرون بمثابة أصنام نعبدها، وربما أكثر مما كنتم تفعلون في الغرب. فالفلسفة الوجودية كانت بالنسبة إلينا أول جرعة حرية، وأول

عاطفة، وأول كلمة حرة. والجدير بالملاحظة أن طريقَينا فيما بعد قد افترقتا. فلقد كنتم أنتم شبيبة الغرب، تجتازون اضطرابات ثورة أيار عام 1968، وكنتم مسرحاً لاجتياح النزعة السياسية وتحلمون بالماركسية، وأنتم حتى اليوم تعيشون أسطورة الثورة.

أما نحن، فكنا على العكس منكم، نغوص في الأعماق، ونكتشف القيم الخالدة التي تنطوي عليها الثقافة والتاريخ والأخلاق.

أخيراً كنا نتجه نحو الله ونحو الكنيسة! وهذا أمر يبدو لكم بعيداً عن كل فهم!

لا أريد أن أمدح أبناء بلدي – ولقد فعلت ذلك سابقاً – ولكن يبدو لي أحياناً أن النخبة المثقفة الروسية أكثر نضجاً من النخبة الغربية. فالغرب يذكّرنا بماضي روسيا، روسيا منتصف القرن التاسع عشر، حيث سيطرت فكرة الثورة وبناء مجتمع عادل على كبار المفكرين. (ومن المرجح أن الثورة تستهوي العقول، لا في زمان القمع، بل زمان السأم والمَلَل).

إن تحررنا في روسيا بدأ عندما اكتشفنا فكراً غربياً حرّاً. والغريب في الأمر، أننا حتى بعد اكتشافنا عالم المسيحية، العظيم والمدهش، لم "نلعن لا إلحاد "سارتر"، ولا كبرياء "كامو".

فإن "سارتر" على الرغم من كل عداوته للدين، عرف كيف يصل بنا بالتحديد إلى حافة ذلك اليأس، الذي لا يُتجاوَز إلا بالإيمان. وفي الواقع، فإن فكرته الرئيسية القائلة بأن الإنسان يقوم في كل لحظة باختيار حرّ، إنما هي فكرة مسيحية. وفي الحقيقة، فإن الله يريد للإنسان أن يحبّه بحرية، والله لا يُلغي الشر، احتراماً منه لحرية الإنسان.

لقد قادنا "سارتر" إلى مسيح "أسطورة المفتّش الأكبر"، إلى المأساة الكبرى

في المسيحية، التي تطرح على الإنسان المشروع الهائل بأن يصبح ابن الله، صديقاً للمخلّص، وأخيراً اللهَ بعينه. وهذا بالضبط ما كان يقوله "آباء الكنيسة": "إن الله أصبح إنساناً، كي يصبح الإنسان إلهاً". يقول "سارتر": "ليس للإنسان أيّ جوهر". إن الإنسان يختلف عن الحجر أو القنّبيط في أنه ليس كائناً "مبرمَجاً".

ولقد كنا نرفض بمنتهى الفرح الأدوار التي يفرضها علينا المجتمع والنظام الشيوعي، وكذلك أيضاً مخاوفنا أو أوهامنا. وبمنتهى الفرح، كنا نفرغ عقولنا ونفوسنا من الشعارات والبرامج المخطَّطة والأساطير السمجة والعقائديات... كنا كمن هيّأ في ذاته "فسحة خاصة به هو"، هو وحده، الذي كان بوسعه أن يردم الهوة السحيقة في أعماقنا، لأنه هو وحده يسبر أعمق الهاويات ويقهرها.

ولكني أرى أني أحرق المراحل.

أما أنا، فقد كنت في ذاك الوقت، أعتنق وجودية محكمة المنطق وباردة، وما كان للمسيحية أي وجود بالنسبة إلي. فلماذا تراني أعود إلى الأساطير القديمة؟ فقد كانت حياتي، على العكس من ذلك، تتجه بتعاظم نحو العبادة لذاتي ونحو التدمير... فقد كنت مع نيتشه أعتبر نفسي "راقية الفكر"، إنساناً "قوياً"، قادراً على السيطرة على حياته بإرادته الحرة والمصممة. والناس العاديون "الضعاف"، لا يستطيعون تحمّل التحدّي الناجم عن العدم، فيهربون من عبثية وجودهم، ويلتجئون إلى العائلة، والسياسة، أو إلى النجاح الاجتماعي. آه!... لكم كنت أكرههم جميعاً ! لكم كنت أتقن "استعبادهم"، لأتيقن بعد ذلك أن هؤلاء الرجال وأولئك النساء يحبون العبودية ويبحثون عنها!

كنت آنذاك أبحث عن حياة "مليئة" ومتجانسة... وإذ وجدتني أدرس الفلسفة، قررت أن أكف عن الكذب على الآخرين وعلى نفسي. وكنت

آنذاك أضع الحقيقة فوق كل شيء، الحقيقة المرّة، المرعبة والمحزنة. ومع ذلك، فقد تواصل التمزّق والتناقض في حياتي. ذلك بأني كنت أهوى التناقض والعبث وتقلبات المواقف. تلك كانت بداية "مرحلتي الجمالية". وهكذا، كنت خلال النهار أتمتع بكوني طالبة متفوقة، وفخر كلية الفلسفة بحيث أعاشر المثقفين المرموقين، وأقدّم محاضرات مسموعة، وأتظاهر بالجوع الثقافي، بينما كنت خلال الليل، أغوص في مجتمع المنبوذين، وفي مهاوي اللصوص والمجانين، ومتعاطي المخدّرات. وكنّا نقصد الأماكن القذرة ونتعاطى المشروبات في المستودعات والكهوف والأقبية... وكنا أحياناً نقتحم بالقوة بعض البيوت لا لشيء إلا لنشرب القهوة ونحطّم بعض المتاع ونرحل...

ثمة إنسان واحد حاول مرة واحدة أن يوقفني، إنسان أستطيع بحق أن أسمّيه أول معلم لي. كان أستاذنا "بوريس ميخائيلوفتش بارامونوف". فقد صدف له أن درّس بعض الوقت في كلية الفلسفة، ولكنه لم يستطع الاستمرار طويلاً، فهاجر إلى الولايات المتحدة – وهو اليوم هناك.

قال لي ذات يوم: "تانيا، لماذا تريدين أن تدمري كل شيء؟ ألا تفهمين إذن أن حب التدمير كان على الدوام مرض الضمير الروسي؟ أترين، يا تانيا، نحن نعيش في عالم العدمية المطلقة والظافرة. امضي مثلاً إلى أحد مجمعات الدولة. سترين فيه أقساماً فارغة، لن تجدي فيه أي شيء مما يجب أن يكون متوفراً في سوق... وبالمقابل سترين حواليك شعارات كتبت على أقمشة حمراء تقول: "إلى الأمام نحو انتصار الشيوعية"، "لنبذل مجهوداً خاصاً لنحتفل بصورة لائقة بمؤتمر الحزب" الخ... ذاك هو عبثك المحبوب! إن البلشفيين قد حققوه على نحو تام! ماذا تريدين أن تضيفي إلى ما حققوه؟"...

هذه الكلمات أثّرت فيّ تأثيراً عظيماً. ولكن لم نكن آنذاك، لا أنا، ولا

"بارامونوف" نعرف كيف نغلق هذه الدائرة الشيطانية، كيف يُصبح كل منا خالقاً لحياته، بدل أن يكون مدمّراً لها.

وأُخِذتُ أيضاً بفلسفات الشرق، ولكني لم أجد لديها، على حماسي، الجواب المطلوب. فإن اليوغا التي كنت بدأت أمارسها بعد تخرجي، كشفت لي عالم "المطلق"، وفتحت لبصيرتي الداخلية بعداً عمودياً للوجود، وحطمت عنفواني الفكري، ولكنها إلى ذلك لم تحرّرني من ذاتي. وقد كنت آنذاك قد توقفت عن نهل العلم والثقافة والتفكير، بعد أن عرفت أن ثمة قوى هائلة مجهولة تكمن في أعماق الإنسان. وتعلمت شيئاً فشيئاً أن أستخدم "طاقات" خفية كنت قد اكتشفتها. وقد استهوتني اليوغا لأنها كانت تعلّمني "اعتماد القدرة الإنسانية" أي اعتماد ماديّة لا يشوبها أيّ صدع من عالم "الأسطورة". وهكذا أصبحت اليوغا بالنسبة إلينا، نحن غير المؤمنين، أشبه شيء بجسر يقوم بين العالم المادي والعالم الفوقي. وكان جانبها العلمي يرضينا، لأنه كان يتيح لنا أن نصبح "بشراً متفوّقين" على نحو معقول ومدروس، بواسطة تدريبات معروفة، وتزوّدنا بمعرفة موضوعية للأبعاد "الفلكية" والنفسية وسواها. لِمَ كلّ ذلك؟ كان لكل منا جواب خاص به. أما أنا، فقد كنت أريد أن أصبح إلهاً. وكنت أواصل المطالبة بكل ما كنت طالبت به حتى الآن، ولكن على مستوى أرقى، هو المستوى الروحي. كنت أريد أن أكون متفوّقة على الجميع، ذكاء وقوة. ثم عرفت حالات ذات لون ديني، كنت أبغي منها الذوبان في المطلق، والانغماس في السعادة الأبدية. وأخذتُ أقاوم حالاتي السلبية – الحقد والغضب – لاعتقادي بأنها تنتزع مني قدراتي، وتُلقيني في مستويات أدنى. ولكن الفراغ، الذي بات منذ زمان بعيد يلازم وجودي، لم أجد له أي دواء، وكان على العكس من ذلك يتفاقم، حتى تحوّل إلى هلع صوفي، كان يسبّب لي من الرعب، ما يحملني إلى حدود الجنون.

واجتاحني حزن لا حدود له، واستبدّت بي مخاوف خفية، صقيعية، يائسة. أحسست بأني أفقد عقلي. وفقدت كل رغبة في الحياة.

لكم من رفيق لي ورفيقة، وقد استبدّ بهم هذا الفراغ الهائل، أقدموا على الانتحار، أو تعاطوا المسكرات، ولكم منهم انتهى إلى المصحّات العقلية! كان يبدو لنا أننا فقدنا كل رجاء في الحياة.

ولكن الروح القدس يهب حيث يشاء. وهو يخلق الحياة ويبعثها من موت.

ماذا حلّ بي بعد ذلك؟ لقد كانت ولادة "من فوق"، ولادة جديدة، هي الولادة الحقّة. إليك ما جرى.

كنت ذات يوم تَعبة. وكنت قد فقدت كل اهتمام تقريباً. وقمت بتدريبات اليوغا المسمّاة "المانترا". تدركين أني حتى ذلك الحين لم أكن قد صلّيت البتة، ولم أكن أعلم أية صلاة. وإذا بأحد كتب اليوغا يقترح تدريباً بتلاوة صلاة "أبانا"، وهي صلاة الرب. وأخذت أقرأها كما تعلّم "المانوتا"، دون أي تعبير وبصورة آلية. وبعد أن قرأتها قرابة ستّ مرات، شعرت فجأة بما يشبه الانقلاب. لم يكن عقلي الغبي، بل كان كياني كله قد فهم "أنه" موجود، هو، الإله الحي، الإله الشخصي، الإله الذي يحبني والذي يحب خليقته كلها، الإله الذي خلق هذا العالم، والذي أصبح إنساناً حباً بالإنسان، الإله المصلوب وقاهر الموت. في ثانية واحدة، تكشّف لي "سر" المسيحية كلها، وتكشّفت لي الحياة الحقيقية ومكاني في هذه الحياة. لقد تحقق خلاصي حقاً.

تبدل كل شيء فيّ. فمات الإنسان القديم. فلم أكتفِ بإقصاء كل ما كان له قيمة في نظري، ومثلي العليا، ولكن ما حدث كان وكأنّ جميع عاداتي القديمة وخصائص طباعي، قد اقتلعت مني.

أخيراً انفتح قلبي بدوره، وأخذت أحبّ الناس، وأتفهّم آلامهم، وأدرك

المخطط الإلهي على كل إنسان، والشبه بينهم وبين الله. وفي الفترة الأولى التي أعقبت اهتدائي، كان جميع الناس يبدون لي وكأنهم من سكان السماء: فكنت أسارع إلى فعل الخير وخدمة الله والناس.

أي فرح وأي نور نافذ اكتشفت في قلبي! حتى العالم الخارجي، وكل حصاة وكل عليقة، كل ذلك كان يرتدي حلّة من إشعاع رقيق. وفي كل ذرة يختلج تقديم الرب إلى الهيكل والميلاد. إنما العالم رداء الرب الملكي. كيف تراني لم أكن ألاحظ ذلك في ما سبق؟

تلك قصة بداية حياتي. ترين الآن أن خلاصي قد تحقق عملياً، واقعياً، وأنه كان أمراً، في آن واحد، غير متوقّع ومتوقّع منذ زمان بعيد، وأن الروح القدس وحده يستطيع أن يحققه، بما أنه استخرج من العدم "الخليقة الجديدة" إذ صالحها مع الأبدية. ففيه وحده، بواسطة النعمة، يتلاشى التناقض الأساسي في الإنسان، التناقض بين الحرية والخضوع.

4) اندريه فروسار (André FROSSARD) 1915-1995

هو كاتب فرنسي، ولد عام 1915، في أسرة يهودية، كانت تقطن الضيعة الوحيدة في فرنسا، التي كان يقوم فيها كنيس يهودي، ولا تقوم فيها كنيسة! وقد نشأ في جو عائلي واجتماعي، يجهل بالكلية وجود الله. وكان والده أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الفرنسي. تخرج من كلية الفنون التشكيلية في باريس، ثم عمل في الصحافة، مصوّراً ومحرّراً. كان في العشرين من العمر، عندما اهتدى إلى المسيحية، بطريقة صاعقة، رواها في كتاب مشهور، صدر عام 1969، عن دار نشر "فايار" (FAYARD)، تحت عنوان "الله موجود... التقيته!"

رأيت أن أختار من هذا الكتاب الصفحات التي يروي فيها "لقاءه" مع الله (ص)

« الله موجود – لقد التقيته!

يقول برنانوس: "إن المهتدين مزعجون!"

لهذا السبب، ولأسباب أخرى، أرجأت فترة طويلة، رواية هذه الشهادة. في الواقع، يصعب على المرء التحدث عن اهتدائه الشخصي، دون التحدث عن ذاته.

مع ذلك، فقد انتهى بي الأمر إلى الاقتناع بأن الشاهد، حتى غير المستحق، الذي يظفر بالحقيقة حول قضية ما، يتوجّب عليه أن يشهد لها، أملاً منه بأن جهوده الخاصة ستحقق لها النصر الذي لا يمكنه انتزاعه من ذويه.

لقد حدث لي أن عرفت بطريقة خارقة، الحقيقة حول أكثر القضايا نزاعاً، وأقدمها خلافاً: إن الله موجود.

لقد التقيته!

التقيته دون بحث – بل أقول: بمحض الصدفة، إن كان للصدفة شأن في مثل هذه المغامرة...

كانت تلك لحظة ذهول، تتواصل... وأنا لم أعتَدْ يوماً على وجود الله.

لقد دخلت في الساعة الخامسة وعشر دقائق، إحدى كنائس الحي اللاتيني، بحثاً عن صديق، وخرجت منها في الساعة الخامسة والربع، برفقة صداقة ليست من هذه الأرض!

دخلت الكنيسة مُشكّكاً وملحداً، ينتمي إلى اليسار المتطرف. بل أكثر من مشكّك وملحد، لامبالياً ومهتماً بما هو أبعد من إله لم يكن ليخطر ببالي أن أنكر وجوده... فخرجت بعد دقائق، "كاثوليكياً، رسولياً، رومانياً"... فيما كانت موجة من فرح لامتناهٍ، تحملني، تغمرني، تستولي عليّ وتتقاذفني!

دخلت الكنيسة وأنا في العشرين، فخرجت منها طفلاً مستعداً للعماد، ينظر حوله، بعينين محدّقتين، هذه السماء المسكونة، هذه المدينة التي تجهل أنها معلقةٌ في الهواء، هؤلاء الناس المغمورين بالشمس، الذين يبدون وكأنهم يسيرون في العتمة، دون أن يروا هذا الشرخ الهائل الذي حدث للتو في غطاء هذا العالم. وكانت مشاعري، وعوالمي الداخلية، وصروحي الفكرية، التي كنت أسرح وأمرح فيها، كلها قد تبخّرت! وكانت عاداتي بالذات قد تلاشت، وأذواقي قد تبدّلت!

أنا لا أنكر ما يمكن لاهتداء من هذا النوع، بطبيعته المفاجئة، أن يسبّب من رفض ولامعقولية، في نظر العقول المعاصرة، التي تؤثر الطرائق العقلانية على الصواعق الضوئية، والتي تقلل على نحو متفاقم، من شأن تدخلات الله في الحياة اليومية.

ومع ذلك، فبالغاً ما بلغت رغبتي في الانسجام مع الفكر المعاصر، لا يسعني أن أقدّم مراجع لأي تطوّر بطيء، حيث حدث تبدّل مفاجئ. وليس بيدي أن أقدّم الأسباب السيكولوجية المباشرة، أو البعيدة، لهذا التبدّل، لأن هذه الأسباب لا وجود لها.

ويستحيل عليّ أن أصف الطريق التي قادتني إلى الإيمان، لأني كنت آنذاك على طريق مغاير كلياً، وكنت أفكر في ما هو بعيد كلياً عنه، عندما وقعت في ما يشبه الكمين: إن هذا الكتاب لا يروي كيف انتهيت إلى الكثلكة، ولكن أني لم أكن ذاهباً إليها، عندما وجدتني فيها. وهذا ليس رواية لتطوّر فكري. إنه محض حادث طارئ، وهو أشبه شيء بمحضر لحادث ما. وإن رأيت من الضروري أن أتحدّث مطوّلاً عن طفولتي، فليس ذلك بقصد إعلاء ما يتعلق بماضيّ، وأرجو أن تصدّقوني، ولكن لكي يتضح تماماً أن ما من شيء كان يعدّني

لما حدث لي: إن المحبة الإلهية، لها، هي أيضاً، أعمالها المجانية. وإذا ما أكرهت على التحدث، في الغالب، بصيغة الفاعل، فذلك لأنه يتضح لي، كما أرجو أن يتضح من ثمّ لكم، أنه لم يكن لي في اهتدائي الشخصي، أي دور على الإطلاق.

ولكن الإقرار بذلك لا يكفي. يجب تقديم البرهان عليه. فإليكم الوقائع.

نحن في الثامن من شهر تموز. الصيف في أوجه... في ما تراني أفكر؟ لم أعد أتذكّر!... ما هو وضعي النفسي؟ إني في أحسن أحوالي، إذا ما رصدت ما يعيه وجداني عن ذاته، وأعني بذلك أنني بعيد كل البعد عن تلك الهواجس التي يزعم أنها تمهّد لنزعة التصوّف.

وأنا لا أعاني من أي همٍّ عاطفي. ثم إني في هذا المساء – أقول ذلك لمن يدّعون الحصافة، فيفسّرون الدين بعكسه، والروح بالجسد، والزائد بالناقص، وخصوصاً الأعلى بالأدنى – على موعد مع فتاة ألمانية من كلية الفنون الجميلة، وهي شقراء، دقيقة الملامح، على شيء من البدانة، وقد ولّدت لديّ الأمل بالفوز بها دون صعوبة تذكر. ولسوف أبلغ من النسيان لها، بعد لحظات، بحيث لن أفطن للاعتذار منها.

ليس لديّ أي قلق ماورائيّ. كنت في الخامسة عشرة، عندما أصبت به للمرة الأخيرة... فالكون الذي يحاصرني، ويضيق بي... سوف يكشف لي، للتو، سرّ وجوده، ومفتاح مجاهله. ولكنّه لم يكشف لي شيئاً، فتخلّيت منذ ذلك الحين عن مساءلته. وأنا أؤمن مع أصدقائي الاشتراكيين أن العالم ليس سوى سياسة وتاريخ، وأن علم الماورائيات هو أبخس استخدامٍ للوقت. وعلى كل حال، إن كنت أؤمن بوجود حقيقة ما، فآخر من سأسألهم عنها، هم الكهنة والكنيسة، التي لا أعرف عنها سوى بعض تشوّهاتها الزمنية، وهي آخر مكان يمكنني البحث فيه عن الحقيقة.

إن عملي في الصحافة لم يؤثر البتة في تخفيف حالة الشك لدي، ولكني قطعت شوطاً بعيداً في إلغاء المخاوف التي سبّبتها لأهلي، مراهقتي الفاشلة. ولقد مارستها في سنٍّ مبكرة، ومنذ فترة وجيزة جداً، بحيث لم يُتَح له أن يسبّب لديّ إخفاقات من شأنها أن تحدث فراغاً لديّ، أو شعوراً بالوحدة، قد يهيّئني لتفتّح الشعور الديني...

ليس لديّ أي همّ، ولا أسبّب لغيري أي همّ... والسنة كانت، بصورة عامة، هادئة، خالية من الاضطرابات الوطنية، ومن التهديدات الخارجية. ليس ثمة أي إنذار. وأنا لا أعاني من أي قلق. صحتي جيدة. وأنا سعيد، قدر ما يتاح للإنسان أن يكون سعيداً، ويدرك ذلك. والأمسية تبدو مغرية، وكلّي انتظار.

أخيراً، لا يحركني أي فضول للشؤون الدينية، وهي لزمن غابر.

الساعة الخامسة وعشر دقائق. بعد دقيقتين سأكون مسيحياً!

في إلحادي المطمئن، لم أكن أدري بالطبع شيئاً، وقد نفذ صبري من انتظار نهاية الطقوس الغريبة التي تستأثر برفيقي أكثر ممّا كان يتوقع، عندما دفعت بدوري الباب الحديدي الصغير، لأتفحّص عن كثب، بصفتي رساماً أو (هاوياً) متفرجاً، البناء الذي يستهويني أن أقول أنه يستطيب الإقامة فيه إلى الأبد (وفي الواقع، لم أكن لأنتظره أكثر من ثلاث أو أربع دقائق).

ما كان يمكن مشاهدته من الكنيسة فوق البوابة الخارجية، لم يكن بالغ الإغراء، وهي عادية جداً من الداخل – ولتغفر لي الأخوات الصغيرات اللواتي سأصبح أخاهنّ الصغير، إن أسأت الكلام عن ثرثرتهنّ! فهي كنيسة تقع في حارة ضيقة، وهي بناء من النمط القوطي، خُطّط لها بسرعة وبُنيت في أواخر القرن التاسع عشر، على يد مهندسين صمّموا على ضغط الشكل البيضاوي، فانتزعوا منها بذلك الحياة والحركة.

وأنا لا أكتب ذلك بدافع المتعة الرخيصة لانتقاد فنّ طبّقت شهرته الآفاق، وإنما فقط بقصد الإعلان عن أن تأثري بالفن لم يكن له أي نصيب في ما سيحدث.

إنّ داخل الكنيسة ليس بأكثر إثارة من خارجها... إنّ صحن الكنيسة يُقسم إلى ثلاثة أقسام واضحة. أولها، بالقرب من المدخل، وهو مخصّص للمؤمنين، وهم يصلّون في ما يشبه العتمة. والقسم الثاني، تصلّي فيه راهبات غطى رؤوسهنّ حجاب أسود. وكان عمق الكنيسة شديد الإنارة... وقد سبق لي أن دخلت كنائس، حباً بالفن...

كنت واقفاً قرب الباب، أبحث بعيني عن صديقي، ولم أستطع أن أتبيّنه بين الأشخاص الراكعين. وأخذ نظري يتنقّل بين الظلّ والنور، ويعود إلى الحضور، دون أن تبدو مني أية فكرة، ومن المؤمنين إلى الراهبات الجامدات، ومن الراهبات إلى الهيكل، ثم تشبّث لسببٍ أجهله، بالشمعة الثانية التي كانت تشتعل على يسار الصليب. أجل الثانية، لا الأولى ولا الثالثة. وفجأة انطلقت سلسلة الخوارق التي قُيّض لعنفها المتلاحق أن يفكّك في ثانية، هذا الكائن العبثيّ الذي هو أنا، ليلد الطفل الذي لم أكنه يوماً!

قبل كل شيء، أُلهِمتُ هاتين الكلمتين: حياة روحية.

لم تُقالا لي. لم أصغِهما بنفسي. أسمعهما، كما لو كانت تُقالان بالقرب مني، بصوتٍ خافت، بواسطة إنسان يتسنّى له أن يرى ما لم أكن أرى بعد.

ما كاد آخر مقطع من هذه المقولة المهموسة، يلمس لديّ شاطئ الوعي، حتى انطلق الانهيار المعاكس. لا أقول أن السماء انفتحت. هي لم تنفتح. هي انطلقت، صعدت فجأة، ومضاتٌ صامتة من هذه الكنيسة الصغيرة، المغمورة، التي كانت موجودة فيها على نحو سرّي. كيف لي أن أصفها عبر هذه الكلمات الهزيلة، التي

تتمنّع عن خدمتي وتمدّد بشلّ أفكاري، لتقذف بي إلى مخزن الأوهام؟ فكيف لرسام أن يرسم ألواناً مجهولة، أتيح له أن يسترق النظر إليها؟ إنه أشبه بكريستال حلب، ذي شفافية لا نهائية، وذي سطوع يكاد لا يُحتمل، (يكاد يقضي عليّ لو كان بدرجة أعلى)، وهو يميل إلى الزرقة. إنه عالم، عالم آخر، له توهّج وكثافة تحيلان عالمنا إلى مصاف الظلال الهشّة للأحلام الغامضة. إنه الواقع، إنه الحقيقة. وأنا أراها من الشاطئ المعتم حيث لا أزال محجوزاً. وثمة نظام في الكون. وفي قمّته، في ما هو أبعد من هذا الستار الضبابي المتألق، تجلّي الله، التجلّي المتحوّل إلى حضور، التجلّي المتحوّل إلى شخص ذاك بعينه الذي كنت نفيت وجوده، للحظة واحدة قبل ذلك، ذاك الذي يسميه المسيحيون أبانا، والذي تعلّمت أنه وديع بوداعة لا مثيل لها، بوداعة ليست تلك الصفة السلبية التي تسمّى أحياناً بهذا الاسم، ولكن بوداعة فاعلة، محطِّمة، تتجاوز كلّ عنف، وتستطيع أن تفجّر أقسى الحجارة، وما هو أقسى من الحجارة، قلب الإنسان.

إنّ تدفّقه المندفع، المطلق، يترافق بفرح ليس سوى تمليل المخلَّص، فرح الغارق الذي أُنقذ في اللحظة الأخيرة، مع هذا الغارق إنني في اللحظة التي دُفِعتُ فيها نحو الخلاص، أدركت بوعي الوحل الذي كنت غارقاً فيه دون علم مني، وأتساءل، إذ أرى نفسي غائصاً فيه حتى نصفي، كيف تسنّى لي أن أحيا فيه وأتنفس...

وفي الوقت نفسه، أُعطيتُ عائلة هي الكنيسة، وهي تتحمّل مسؤولية اقتيادي حيث يجب أن أذهب...

جميع هذه الأحاسيس، التي يعسر عليّ ترجمتها في لغة الأفكار والصور. غير المتكافئة، هي متزامنة ومتداخلة ببعضها البعض، بحيث أني لن أستطيع فهم مضمونها حتى بعد سنوات.

كلّ شيء يخضع، بعيداً وعبر حشد هائل، لحضور ذاك الذي لن أستطيع كتابة اسمه، دون أن تستولي عليّ خشية المسّ بحنانه، والذي تغمرني أمامه سعادة كوني طفلاً ينعم بالغفران، ويستيقظ ليعرف أن كل شيء هو عطية منه!

خارج الكنيسة، كان الطقس جميلاً.

كان صديقي "فيلمان" (WILLEMIN)، إذ يسير بجانبي، يبدو عليه أنه اكتشف شيئاً غريباً في سحنتي، ويحدّق فيّ بإلحاح طبّي: "ولكن، ما الذي حدث لك؟

– إنني كاثوليكي!

وأضفت، وكأني خشيت ألا أكون واضحاً بما فيه الكفاية:

– "رسولي، روماني"، كي يكون إعلاني كاملاً.

– عيناك موسّعتان!

– إن الله موجود، وكل شيء حقيقي.

– آه، ليتك ترى نفسك!

لم أكن أرى نفسي. كنت أشبه بـــ (chouette) في الظهيرة، تواجه الشمس!

بعد خمس دقائق، رويت كلّ شيء لرفيقي ونحن جالسان في مقهى ساحة "سانت أندريه" رويت له كل ما أُتيح لي أن أعبّر عنه عن هذا العالم العصيّ على كل تعبير، والذي انكشف فجأة أمامي، هذا الواقع المتوهّج الذي فجّر دون ضجيج بيت طفولتي، وحوّل كل عالمي إلى بخار. كان حطام نظرياتي يغطي الأرض. وكنت أحدّق في المارة، وهم يعبرون دون أن يروا، وكنت أفكر في ما سيكون ذهولهم لو أُتيح لهم أن يلتقوا ما التقيت لتوّي.

وليقيني بأن المغامرة إياها ستحدث لهم عاجلاً أو آجلاً، كنت أتمتّع مسبقاً بمفاجأة الملحدين، والمتشككين البعيدين عن الشك. وعندما تذكّر أحدنا ذاك

الممثل المسرحي الذي منح السماء دقيقتين فقط، لتسحقه، وإلا منح نفسه الحق في الإعلان على الملأ أنها فارغة، غرقنا في الضحك، إزاء عبثية هذا التحدي الذي تطلقه ذرة التراب هذه، في وجه اللامتناهي. فالله موجود، بل هو هنا، حاضر ومُغيَّب بهذا الدفق من النور، الذي أتاح لي، دونما خطابات ولا صور، أن أفهم كل شيء، وأحب كل شيء. وأنا أرى جيداً ما لمثل هذه الادعاءات أن تُحدث من المبالغات، ولكن ما الذي يسعني فعله إن كانت المسيحية حقيقية، إن كان هناك حقيقة، وإن كانت هذه الحقيقة شخصاً، يصرّ على ألا يكون مجهولاً؟!

تواصلت المعجزة شهراً. في كل صباح، كنت أستعيد باندهاش، هذا النور الذي يشحب إزاءه نور النهار، هذه الرقّة التي لن أنساها أبداً، وهي كل ما لديّ من علم لاهوتي...

إن ضرورة بقائي على هذا الكوكب، فيما كل هذه السماء في متناول يدي، كانت غامضة في نظري، وكنت أتقبّلها من باب الشكر، وليس من باب القناعة. ومع ذلك، فالنور والرقة كانا يفقدان يوماً بعد يوم شيئاً من شدّتهما. أخيراً تلاشيا، ولكن دون أن أعود إلى الوحدة. ولسوف أُعطى الحقيقة بطريقة أخرى، وسيتعيّن عليّ أن أبحث عنها بعد أن وجدتها.

تولى أحد الكهنة إعدادي للعماد، وهو يلقّنني الديانة التي لم يعد يحقّ لي أن أقول أني أجهل كل شيء عنها. وما قاله لي من العقيدة المسيحية، كنت أتوقّعه، وقد تقبّلته بفرح. كان تعليم الكنيسة صحيحاً حتى آخر فواصله، وكنت أكتشف ذلك في كلّ سطر، بمزيد من الاندهاش... شيء واحد فقط فاجأني: القربان المقدس، لا لأنه بدا لي غير مقبول، ولكن لأن المحبة الإلهية وُفّقت إلى هذه الطريقة المذهلة في منح ذاتها، وكان يثير إعجابي، لا سيما وأنها

اختارت لتنجز ذلك الخبز الذي هو طعام الفقير، والغذاء المفضل للأطفال. إزاء كل العطايا التي نشرتها المسيحية أمامي، كانت هذه العطية أروعها.

كنت أظنّ، إذ عُبِّئت بالبركات، أن حياتي ستكون عيداً لا ينتهي. وكان بوسع الأناس المختبرين الذين ائتمنتهم على سري، أن يحذّروني من أن هذه الحالة المميزة، ستعرف حدّاً، وأن قوانين النمو الروحي، هي هي بالنسبة إلى جميع الناس، وأن هذه المتع الناجمة عن اكتشافات مدارج النعمة الحسية، سيعقبها الصخر، والتسلّق، والمخاطر، وإنني لن أكون دائماً هذا الطفل السعيد، فما كنت لأصغي إليهم. وكنت مصمّماً على ألا أُقدِم، مرة أخرى، على خطأ النمو...

تلك كانت حكمتي، وكانت دون حكمتهم صحّة، كانوا على حقّ، وكنت مخطئاً. وبانتهاء العيد، وجدتني في مواجهة الأشياء، والحجارة، وألزمت بعالم كان يستعيد شيئاً فشيئاً، في دهاء، صلابته! وعرفت يوم الجمعة العظيمة. وعرفت يوم السبت العظيم، والصمت الذي يموت فيه الصراخ.

مرتين حلّ بأسرتي أشد الآلام التي يمكنها أن تحل بكائنات بشرية. سوف يفهمني الآباء، والأمهات أكثر، دون مزيد من كلام. مرتين مشيت في دروب المقبرة الريفية. حيث أعددت مكاني، وأنا أبحث في الفظاعة عن ذكرى الرحمة. وكنت عاجزاً عن التمرد، محروماً من ملاجئ الشك (ممّن تُراني أشك، إن لم يكن من ذاتي؟). وقد عشت والخنجر مغروس في صدري، فيما أنا أعرف أنّ الله محبة.

لست أكتب لأتحدث عن ذاتي، بل لأدلي بشهادة، وشهادتي تقتضي مني أن أقول هذا أيضاً. أن القبر الذي أعددته لي، يحتل زاوية في ممرّين، وقد دفعني فضولي لأرى ما هو قبر جاري، وهو مقابل قبري: وإذ به مدفن راهبات

العبادة التعويضية. وأنا أعرف بإفراط ما عسى أن يكون لمداخلات الروح من اختلاف وثبات، لأتحدث عن الإشارة. هذه المصادفة تكفيني. أن الراهبات اللواتي شهدن ولادتي، وكنا على مسافة خمسمائة كيلو متر، سيحضرن أيضاً ساعة موتي. وإني أعتقد، وأؤمن، وأعرف أن هاتين اللحظتين ستكونان متشابهتين، مثلما أن الأموات الذين فقدناهم، لن يكونوا إلا واحداً، عندما تستعاد هذه الرقة.

أيها الحب، لن تكفينا الأبدية للتحدث عنك!

من كتابه (الله موجود: التقيته) أندريه فروسار »

5) أجراس ناكازاكي (ص 16–22)

« اللحم والدم

كانت المادية قد أغوتني منذ دروسي الثانوية. ولما بدأت دراسة الطب، استسلمت في سهولة للإيمان بأن الإنسان ليس سوى مادة. ألم يبيّن لنا أساتذتنا في دروس التشريح، العناصر المادية التي يتألف منها الإنسان؟

صحيح أن التكوين العجيب للجسم ككل، وأن الجهاز المعقد لخصائصه مفصلة، كانا ينتزعان إعجابنا انتزاعاً. إنما يبقى أن كل هذا لم يكن ليتجاوز المادة البحت، وذلك من جميع الأوجه. وفي دروس الفيزيولوجيا، كنا نبحث في وظائف الجسم، المعقدة والمتناسقة، وكانت كلها تفسّر على أنها ظاهرات فيزيائية وكيماوية، ناجمة عن التأثير والتفاعل... وما كانت الدروس المقدّمة تفسح المكان لوجود مزعوم للنفوس والأرواح.

وبعد أن مارسنا عملية تشريح الجثث، أخذنا نتفحّص أجسادنا الحية، بمنتهى الهدوء. إن الجسد مركب عضوي من عناصر كالأوكسيجين والآزوت

الخ... وهي عناصر لا تملك في ذاتها ما يدعو للاحترام. فالحياة إذن، ليست إلا التقاء وتوزيع هذه العناصر، حسب التفاعلات الفيزيائية أو الكيميائية. وإذن ليس في الإنسان ما يستحق الاحترام. وهو في الموت يتفكك ويعود إلى العناصر. والحياة لا تمتد إلا إلى القبر: إذن هل أعقل من أن يقضي الإنسان حياته في الفرح واللهو، إلى أن يحين له أن يقذف به إلى الخارج؟ فلنسكر، ولنغنِّ، ولنرقص، ولنَلهُ، قبل أن تبرد فينا حرارة دم الشباب.

ولما كنت لا أكنّ أي احترام للجسد، ما كنت أشعر بأي حرج في تدنيسه. صحيح أنه كان هناك في أعماق قلبي، قلق مبهم، ما كنت أستطيع إخماده. ولكني ما كنت لأرى فيه صوت الضمير، لأن في ذلك عودة إلى خرافة مهترئة.

كنا يومها نؤمن بسلطة العلم المطلقة، وكانت الكلمة الأخيرة لمبدأ العلم الوضعي، وكنا نلقي في عالم الماضي المنسي، أوهام الضمير. وإن كانت هناك، كما يدعي الطاعنون في السن، نفوس وأرواح، فليظهروها لنا، لنراها بأم أعيننا. ولكن لا! لقد اخترعوا هذه الأشباح حسداً من الشبيبة، ليفسدوا علينا لذّاتنا.

وحدث في عطلة الربيع ما بين السنتين، الثانية والثالثة للجامعة، أن أصيبت أمي بالفالج، فسارعت إليها، وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة. وكان أن توفيت وهي تحدّق إليّ بإلحاح. إن هذه النظرة الأخيرة من عيني أمي، قلبت على نحو جذري، فلسفتي المادية. فإن عينيّ تلك الأمّ التي أعطتني الحياة، وربّتني وأحبّتني حتى النهاية، إن هاتين العينين كانتا تؤكّدان لي بكل وضوح أن أمّي ستبقى دائماً، حتى بعد الموت، بالقرب من حبيبها تاكاشي.

فنظرت إلى عيني أمي، أنا الذي كنت أنكر وجود الروح، وشعرت شعوراً عفوياً أن روح أمي موجودة: فهي تنفصل عن جسدها، ولكنها لن تموت أبداً.

وعاد بيتنا، بعد المأتم، إلى السكينة، بعد أن غاب عنه صوت أمي الطاغي. إلا أني كنت قد تغيرت حتى أعماقي. وما استطعت، على الرغم من كل ما بذلت من جهود، أن أقنع نفسي بأن تلك التي كانت "أمّي"، قد تلاشت بالكلّية. وللمرة الأولى، كانت عيناي تنفتحان على عالم الروح.

وفي السنة الثالثة، بدأنا نتدرب على المعاينة العينية في مختلف فروعها. وبدأنا ندرس الأجسام الحية. فكانت تختلف كلياً عن الجثث، وكذلك عن حيوانات الاختبارات. وكنا نلاحظ أنها ليست مجرد قردة متطورة. فالإنسان الحي خليقة من نوع خاص. أجل، هو دم ولحم، ولكنه أكثر من هذا...

وكنت في أجواء هذه الاختبارات، يوم أخذت بقراءة "خواطر" بسكال. إن إدخال سجين المادية، على نحو مباشر، في أفكار عالِم ذي إيمان عميق، كان أشبه شيء بدفع إنسان جاهل إلى علم الفلك، دون الاستعانة بتلسكوب (مكبّر). فكانت قدماي تلتصقان بالأرض، ولكن نظري كان يحاول عبثاً ولوج السماء. وكان قلبي يتخبّط في الفراغ، فريسة لاضطراب كبير. فقد كان من الواضح أن كل ما يقوله بسكال صحيح دون أدنى شك. ولكن ما كان يهون عليّ أن أسلّم دون مقاومة، بصمة هذه الحقائق... الروح... الأبدية... الله! فإن سلفنا العظيم، العالم الفيزيائي بسكال، آمن بجدية بكل هذه الأمور! إن هذا العالم الذي لا مثيل له، آمن بها حقاً! تُرى، ما هي هذه العقيدة المسيحية، حتى إنّ عالِماً بحجم بسكال آمن بها، دون أن يناقض بها علمه؟!

اتجه فضولي، على نحو تلقائي، صوب المسيحية. وكان بالقرب من الجامعة، كنيسة، وهي أجمل كاتدرائيات الشرق الأقصى. وكان يعيش في جوارها عشرة آلاف مسيحي. وكنت حتى ذلك الحين، أنظر بإعجاب إلى هذا البناء الأحمر العظيم. وكنت أحياناً أصغي باستغراب غامض إلى أجراس الظهيرة.

ولكني كنت، كلما أرى صفوف المصلّين يخرجون من الكنيسة من أجل القيام بتطواف في ألبستهم البيضاء، ويسلكون الطريق المحاذي للجامعة، وهم في طريقهم إلى المقابر، كنت أحتقر هؤلاء العبيد، الذين أفسدتهم الطقوس الغربية. وكان هذا الشعور قد منعني من محاولة التعرف عليهم في ما مضى، وأما اليوم، وقد مزّق بسكال فلسفتي تمزيقاً، فقد بتّ أنظر إلى الكاتدرائيّة بعين جديدة.

وأخيراً قررت الإقامة في "أوراكامي" (URAKAMI). كان إيمان سكان الحي، بسيطاً، صامداً. لم يحاولوا قطّ جلبي إليهم. إنما كنت ألاحظ أن أصحاب البيت، أو الجيران، كانوا يجتمعون في الغالب، ليصلّوا من أجل نيّات معينة. كيف كان لي أن أعرف أنهم كانوا يجتمعون للصلاة من أجلنا، نحن "إخوتهم الوثنيّين"؟ لم أعرف ذلك إلا بعد اهتدائي.

ما كنت تخليت عن عملي، ولما حاولت أن أقوم ببعض الاختبارات الخاصة، تبين لي أن النتائج تختلف كثيراً تبعاً لأسلوب الاختبار. كما تبين لي أن هناك حدوداً للنتائج التي قد يصل إليها هذا الأسلوب أو ذاك. واتضح لي أيضاً أن الميدان الذي يكتشف بأساليب العلوم الطبيعية، والذي يخضع لقوانينها، هو أيضاً له حدوده، وأنه لن يتسنّى مطلقاً لأحد أن يفسر من خلاله مستعصيات الكون: إن وجود الروح مثلاً ليس من اختصاص الوسائل العلمية. إلا أن هذا الوجود يمكن إثباته بأساليب أخرى. فكان خطأي في إصراري على المطالبة ببراهين علمية فقط. وقد كنت أنكر وجود الروح، لأني كنت أسير هذا المبدأ الفاسد، القائم على أن العلم هو الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة. ولما تقدمت قليلاً في ميدان العلم، فوجئت مفاجأة كبرى، إذ اتضح لي أن ميدان العلم ضيق للغاية، وناقص جداً، ومليء بالتناقضات.

ولقد تفاقم اضطرابي بشدة، يوم اتضح لي أن بعض القوانين العلمية التي يسلّم بها الجميع بوصفها قوانين، ليست سوى محض فرضيّات. واكتشفت أيضاً على نحو أفضل، ما ينطوي عليه العلم من هزال، وأساليب البحث من نقص، وعرفت أيضاً أنه يتحتم علينا أن نكون أوفر تواضعاً. ولما خبرت بنفسي العالم الروحي أصبحت أخجل من اليوم الذي كنت أنكر فيه وجود الروح.

يومها، وللمرة الأولى، بدأت أفهم خواطر بسكال.

فور انتهائي من خدمة العلم في "مانوشوريا"، تقبلت العماد. وأخذت، تحت تأثير الروح القدس، أدرك عمق الكون. الإنسان الحي، وهو مركب من روح وجسد، يفصل الموت بينهما بصورة مؤقتة؛ الإنسان المخلوق الذي خصّه الله بمجده وبسعادة السماء؛ الإنسان، صورة الله التي لا يجوز تدنيسها. أهي وقائع واضحة؟ ربما، إلا أني لم أعرف أن أميّزها، إلا عندما أنهيت دروسي الجامعية. وتعلمت كيف أعرف الروح وكرامتها، ومنذئذٍ فهمت أيضاً مدى الاحترام الذي يجب أن أحيط به الجسد. وأدركت على نحو خاص، أثناء المناولة، فيما أنا أكرر هذه الخبرة في اتحادي بيسوع المسيح، أنه لا يجوز لي أن أتصرف حيال جسدي، وفق هواي. فإن القربانة المقدسة، وهي جسد المسيح الحي، تعطى للمؤمنين خلال القداس. وبذلك تصبح روح من يتناولها، واحدة مع المسيح، لحظة يتقبل جسدُه الخبز.

"إن أكل أحد من هذا الخبز، يحيا إلى الأبد"

فتعلمت بذلك أن أحترم جسدي، لأنه سيقوم في اليوم الأخير، بعد أن يستعيد روحه. فإن كان الجسد، إثر الموت، يفقد الوجود على نحو نهائي، فإنه يسعنا دون تردّد أن نلقيه في حفرة، كما لو كان شحاطة قش عتيقة. ولكن هذا الجسد سيعود حتماً إلى الحياة، بوصفه جسداً ممجّداً في حضرة الله، فلا

يجوز إذن الاستهتار به. أنا إذن أحترم هذا الجسد اللحمي الذي خلقه الله. ولذلك، فأنا أتساءل دائماً ما إذا كانت إصابتي باللوكيميا، حدثت بفعل إرادة الله الآب الذي يحبنا، أو ما إذا كان هناك، في الأصل، خطأ ارتكبته بحكم إهمالي، وعندما يترتب علي أن أدم حساباً عن ذلك يوم الدين!

من ناحية أخرى، سأحرص حتى الرمق الأخير، أن أتناول الأدوية التي يمليها عليّ ضميري. وفضلاً عن ذلك، أرجو أن أستخدم جسدي من أجل اختبارات قيّمة، في بحثي عن علاج خاص للوكيميا. ولن أقدم على أعمال عشوائية، كما يفعل إنسان غريق، فيتعلق بأدنى قشّة. ولن أتجرع أي دواء لم تختبر فعاليّته، ولسوف أتعامل مع جسد المريض بفطنة واحترام.

أفلا يتوجّب على جسدي أن يساهم في إسعاد معاصرينا، في عهد الذرة هذا، فيساهم بذلك في تمجيد الله؟ »

6) "توماس مرتُون" (Thomas MERTON)

هو راهب أميركي، اشتهر بمؤلفاته الكثيرة، وبعضها شعري. وقد عالج فيها الأمور الروحية والدينية، كما تصدى فيها أيضاً لشؤون الحرب والتمييز العنصري. واشتهر بحواراته مع الرهبان المسيحيين من جهة، ومع الرهبان البوذيين في الشرق الأقصى من جهة ثانية.

ولد في فرنسا عام 1915، من أب "نيوزيلاندي"، وأم أميركية. كان كلاهما فناناً تشكيلياً، وقد توفّيت والدته عام 1921، وتوفّي والده عام 1931. وتابع دراسته في بريطانيا، وفرنسا، ثم في الولايات المتحدة، حيث اهتدى إلى المسيحية عام 1938، أثناء دراساته الفلسفية. ودرّس في جامعاتها ثلاث سنوات، ثم اختار أن يكون راهباً، واختار السلك الرهباني الأصعب، أي السلك الذي يحتفظ فيه الراهب بالصمت

المطلق طوال حياته، فلا يخرج عليه إلا خلال الصلاة والترنيم، وخلال لقائه بمرشده الروحي في الدير.

أصبح كاهناً عام 1948. وفي هذه الأثناء، كتب سيرته الذاتية، نزولاً عند أمر رئيسه في الدير. وصدر الكتاب باللغة الانكليزية عام 1950، تحت عنوان "الجبل ذو الطوابق السبعة". وقد نقلته إلى الفرنسية، عام 1951، الكاتبة الفرنسية "ماري تادييه" (Marie TADIÉ)، وصدر في باريس عن دار نشر (البان ميشل) (Albin Michel)، بعنوان "ليل بلا نجوم".

انتقيت من الترجمة الفرنسية، الصفحات (147–142)، التي يروي فيها المؤلف، لحظة حاسمة في بحثه عن الله، خلال مطالعته لأحد الكتب الفلسفية، إذ كانت تلك التي اكتشف فيها مفهوم الله.

توفّي "توما مرتون" عام 1968، إثر صعق كهربائي، في أحد فنادق "بانكوك"، في "تايلاند"، إبان اشتراكه في ندوة حوارية مع الرهبان البوذيين هناك.

« ثمن باهظ

في شهر شباط من عام **1937**، كنت أتنزّه في الشارع الخامس. وما كنت أملك إلا خمسة أو ستة دولارات. لفتت انتباهي واجهة مكتبة "سكريبنر" (Scribner)، إذ فيها كتب جديدة جذابة. كنت في تلك السنة أتبع سلسلة من الدروس حول أدب القرون الوسطى في فرنسا. وكانت أفكاري مشدودة إلى ذكرياتي في "مدرسة القديس أنطوان" (Saint-Antoine). وإن ما كان يتسم به كلا القرنين، الثاني عشر والثالث عشر، من بساطة عميقة، ساذجة، خصبة، كان يجتذبني مرة أخرى. كنت ألّفت دراسة عن "بهلوان السيدة" إذ قارنتها بقصة تروى عن آباء الصحراء، كما وردت في موسوعة تضم مؤلفات آباء الكنيسة الناطقين باللغة اللاتينية، وهي معروفة باسم موسوعة "ميني" (Migne).

رأيت في تلك الواجهة، كتاباً بعنوان "روح فلسفة القرون الوسطى"، للكاتب الفرنسي "ايتيين جلسون" (Etienne GILSON). فدخلت وتصفحت الكتاب، وألقيت نظرة على الفهرست، وعلى الصفحة الأولى، وقد خدعت بها، إذ كان المؤلف يقول فيها إن الكتاب ليس سوى مجموعة من محاضرات ألقاها في جامعة "آبردون" (ABERDON)، الأمر الذي لم أرتح له.

واشتريت في الوقت نفسه، كتاباً آخر نسيت كليّاً عنوانه. وفتحت رزمة الكتب في القطار. وعندئذٍ فقط لاحظت على الصفحة الأولى من كتاب "روح فلسفة القرون الوسطى"، هذه الكلمات مكتوبة بأحرف صغيرة: "لا مانع من طبعه".

خاب أملي، وشعرت بالتقزّز، كما لو كنت تلقيت ضربة في معدتي. لقد خُدِعت! فأنا ما كنت اشتريته، لو كنت علمت أنه كتاب كاثوليكي. وراودتني فكرة قذفه من النافذة، والتخلص منه، كما من شيء خطير وقذر، وذلك بسبب الخوف الشديد الذي يستولي على فكر حديث، نيّر، من جراء بضع كلمات لاتينية، بريئة، مصحوبة بتوقيع كاهن...

إن إفهام الكاثوليكي ما تثيره كلمات "لا مانع من طبعه"، من أفكار عديدة، متشابكة ومرعبة، لأمر مستحيل. فقبل كل شيء، هي مكتوبة باللاتينية، وهي لغة صعبة، غامضة وقديمة... تنطوي بالنسبة إلى من كان أصله بروتستانتياً، على جميع الأسرار المرعبة التي يمتلكها الكهنة، ويخفونها عن عامة الناس في هذه اللغة المجهولة. ثم إن تطاولهم، إن من حيث تقييم كتاب ما، أو من حيث الترخيص بمطالعته، شيءٌ يدعو إلى الاشمئزاز المرعب، ويعيد إلى الذاكرة محاكم التفتيش!

هذا هو الشعور الغامض الذي انتابني، إذ فتحت كتاب "إيتيين جلسون".

والواقع أني، بالرغم من إعجابي بآداب الكنيسة الكاثوليكية، كنت دوماً أخشاها. وعلى كل حال، كنت على بينة، إذ اشتريت هذا الكتاب عن فلسفة القرون الوسطى، أنه سوف يبحث في الفلسفة الكاثوليكية. إلا أن كلمات "لا مانع من طبعه"، كشفت لي أنه سيكون على توافق كلي، مع هذا الشيء الغريب والمخيف، الذي يسمى العقيدة الكاثوليكية. فأصبت بصدمة قابلتها بالقرف والخوف.

في ضوء هذه الوقائع، أرى في مطالعتي الكتاب، بدلاً من التخلص منه، نعمة حقيقية. صحيح أني لم أقرأه كله. إلا أني تابعت القراءة فيه أكثر مما كان يحدث لي في مطالعة كتب بمثل هذا العمق. وإني، إذ أذكر جميع الكتب التي اشتريتها دون أن أفتحها، لا أفهم كيف استطعت قراءة هذا الكتاب بالذات، لا بل كيف استطعت تذكّره.

أما الفكرة الرئيسة التي جنيتها، فقد كان مقرراً لها أن تغيّر كل حياتي. وهي كلها في إحدى تلك الكلمات الجافة والغريبة، التي كان يفقه سرها الفلاسفة السكولاستيكيون. إنها كلمة "الوجود الذاتي المستقل" (Aseitas). فهذه الكلمة لا تنطبق إلا على الله، وهي تعبّر عن أعظم صفة له. فقد اكتشفت فيها مفهوماً لله، جديداً كل الجدّة. وقد بيّن لي هذا المفهوم على نحو مفاجئ، أن الإيمان الكاثوليكي ليس على الإطلاق، كما كان يخيّل لي، رواسب غامضة وخرافية، لعهود الظلمة. وقد اكتشفت مفهوماً لله، يجمع في الوقت نفسه، بين العمق والوضوح والبساطة والدقة (Juste). وهو مشحون بمعانٍ لم يُتح لي افتقاري إلى الثقافة الفلسفية إلا حدسها حدساً غامضاً، دون التوصل إلى تقديرها حق قدرها.

إن عبارة (ASEITAS) اللاتينية، التي تعني "الوجود الذاتي المستقل"، تشير

بكل وضوح إلى القدرة التي يتمتع بها كائن ما على إيجاد نفسه بنفسه، لا على أنه علّة نفسه، بل على أنه لا يقتضي أية علة، وأي تبرير لوجوده، إذ إن من جوهر طبيعته أن يكون. وإنه ليستحيل وجود إلا كائن واحد كهذا، وهو الله. فالقول بأن الله موجود من تلقاء ذاته، وبعلّة من ذاته، هو القول بأنه موجود. أنا هو الكائن: هذا يعني أن الله يتمتع باستقلال كلي، ليس فقط بالنسبة إلى كل ما هو خارج عنه، بل بالنسبة أيضاً إلى كل ما هو في ذاته.

إن هذا المفهوم أحدث فيّ تأثيراً عميقاً، بحيث إني كتبت في أعلى الصفحة: "وجود الله الذاتي، المستقل" (ASEITAS) – الله موجود في ذاته".

هذه الصفحة مفتوحة الآن أمامي، ذلك بأني حملت معي هذا الكتاب إلى الدير، ولقد وجدته منذ مدة قريبة، عند الأب الرئيس.

وقد وضعت سطراً تحت ثلاثة مقاطع أخرى، أنسخها الآن لكي يتبيّن القارئ، من خلال النص الأصلي، أكثر منه من خلال كلامي، مدى تأثير هذا الكتاب فيّ:

1- "عندما يعلن الله أنه الكائن، فلكي يكون لأقواله معنى ما، وهو لا يستطيع أن يعني إلا هذا: إنه الوجود المحض".
2- "الوجود المحض، أي إنه لا تواطؤ فيه مع أي نقص أو أي تغيير، أي صيرورة، أي بداية أو نهاية، أو أي استثناء".

لو كان لي يومذاك أن أفكر بعمق مُرضٍ، لكنت اكتشفت بسرعة أن ملء الوجود ينتج عنه ملء الكمال.

وكذلك أثّر فيّ التمييز الذي يقيمه المؤلف بين كل من مفهوم الكائن المطلق، المفهوم المجرّد للكائن بصورة عامة، ومفهوم الكائن اللامتناهي، مفهوم الكائن اللامتناهي الواقعي (Concret)، الذي يتعالى على كل المفاهيم. ولذلك

وضعت خطّاً تحت المقطع التالي، الذي كان مقدّرا له أن يكون خطوتي الأولى نحو القديس يوحنا الصليبي:

« فوق كل صورة حسّية، فوق كل تحديد، يؤكد الله وجوده من حيث إنه العمل المطلق للوجود في آنيّته المحضة. وإن فكرتنا عن الله، ليست سوى تمثّل هزيل وبائس لحقيقة تفوقه بما لا يقاس. وهذه الفكرة لا يمكن أن تفسَّر إلا على أن الله هو الكائن، وهو الحاوي في ذاته، فوق كل شيء، العلّة الوافية لكل شيء. ولذلك يحق لنا أن نقول إن المبالغة في اليقين الذي يخفي الله عن أعيننا، هو هو النور الذي ينير كل شيء... »

وإليكم المقطع الثالث الذي وضعت خطّاً تحته، من كتاب "جلسون".

3- "عندما يعلن القديس ايروتيموس، "أن الله هو مصدر ذاته، وهو علّة جوهره بالذات"، فهو لا يعني، مثل ديكارت أن الله وُجِد بعد إذ استعمل قدرته الكلية كعلّة، وإنما هو يعني أن لا يحق البحث خارج الله، عن سبب وجوده".

أعتقد أن هذه التأكيدات وكثيرات مثلها، تحدث فيّ هذا التأثير العميق، إلا لأني لم أكن أملك فكرة صحيحة عما يعنيه المسيحيون بكلمة الله: فقد كنت سلّمت دون تردّد بأن إله المؤمنين، الذي إليه ينسبون خلق الكل والسيطرة على الكل، إنما هو إله صاخب، مأساوي، غضوب، غامض، حقود وخفي، وهو امتداد لرغباتهم بالذات، ولجهودهم، ولمثلهم العليا.

وفي الواقع، كان مفهومي لله، هذا المفهوم الذي كنت أتهم المسيحيين بنشره في العالم، يرسم إلهاً مستحيلاً:

إنه إله لامتناهٍ، وفي الوقت ذاته محدود، كامل وناقص، أزلي ومتغيّر،

وعرضة لجميع ألوان الانفعالات، من حب وألم، وبغض، وانتقام، التي كانت تنهش الناس. فكيف لهذا الكائن الأحمق والسريع الانفعال، أن يكون بلا بداية ولا نهاية، وأن يكون خالق (الكون).

كنت قد فسّرت "الكتاب" حرفياً، وإذ بالكتاب يقتلني، كما قال القديس بولس: "الحرف يقتل، وأما الروح فيُحيي".

أعتقد أن أحد أسباب الارتياح العميق الذي شعرت به لقراءتي "جلسون"، كان يقيني بأن الله قد ثأر لنفسه من فكري، ذلك بأن كل عقل يحتوي على الرغبة البديهية في معرفة الله معرفة حقيقية، لأننا قد خُلقنا وبنا عطش إلى معرفته ومشاهدته.

أعرف أن كثيرين كفروا بالله، أو يدّعون الكفر به، لا لشيء إلا لأنهم يعتبرون منفّرة ومُشينة، تلك العبارات التصويرية، والتشابيه التي لا يستطيعون تفسيرها ولا فهمها، والتي تستعمل في الحديث عن الله.

إنهم لا يرفضون فكرة الله بدافع احتقاره، وإنما لأنهم يطمحون في مفهوم أسمى من ذلك الذي يجدون. فهم يبتعدون عنه، إذ لا ترضيهم الأفكار والتصورات السخيفة عنه، لظنّهم بأنه ليس ثمة وجود لغيرها. وهم يرفضون الفلسفة، إذ يدّعون بأنها ليست سوى نسيج من كلمات لا معنى لها، جُمعت لتفسير تلك الأكاذيب القديمة إياها، التي لا يرتجى منها شيء.

لكم كان ارتياحي عظيماً، عندما تبين لي أنه ما من فكرة، ولا من صورة حسية بأولى حجة، تستطيع تعريف الله على نحو وافٍ، وأنه يجب علينا ألا نكتفي بهذه المعرفة عنه. وأخذت أكنّ لساعتي، وهذا أمر خطير جداً، احتراماً عظيماً للفلسفة والإيمان الكاثوليكيين، إذ إني عثرت أخيراً على مفهوم واضح

جداً للإيمان، وتبيّنت ضرورته المطلقة. واعترفت بأن عدداً كبيراً من المسيحيّين يملكون مفهوماً ذكياً لله، وأن الذين يؤمنون به، يؤمنون بكائن حق، وأن إيمانهم ليس مجرد وهم...

وما ذهبت إذ ذاك إلى أبعد من هذا.

ولما أغلقت الكتاب، وانتهيت من التفكير بشكل مباشر في حججه، بدأت نتائجه تظهر في حياتي. وشعرت قبل أي شيء، برغبة في الذهاب إلى الكنيسة، فيها من الإخلاص والوعي والعمق، أكثر من ذي قبل. وما كنت شعرت قط، قبل ذلك، برغبة كهذه.

وكانت الكنيسة الوحيدة التي خطرت ببالي، الكنيسة المشيخية، التي كان والدي في ما مضى، يعزف على الأورغن فيها. وقد يكون الله أراد لي أن أصعد مجدّداً، ذلك المنحدر الذي كنت قد هبطته، أنا الذي كنت أحتقر كنيسة انجلترا، الكنيسة البروتستانتية المشيخية (ابسكوبالية).

وعدت إلى هذه الكنيسة، لا لأفتقدها، ولا لأحكم على قسيسها المسكين، وإنما لأتبين ما إذا كان بوسعي إرضاء هذه الحاجة الخفية إلى الإيمان، الذي بدأت بوادره تظهر في نفسي. ولقد كانت مضيافة، تلك الكنيسة الصغيرة، الجميلة، البيضاء. ولقد كان الجو فيها، يوم الأحد، محبّباً، عندما اجتاحتها الشمس من كل نوافذها. ولم يُثرْ فيّ مشهد الخَدَم بثيابهم البيضاء، ولا الأناشيد التي كنا نرنّمها جميعاً، أي انبهار. ولكني، على الأقل، توقفت عن التهكّم الخفي. وعند تلاوة قانون الإيمان، تلوته واقفاً مع سائر الحضور، وكلي رجاء بأن يمنّ الله عليّ يوماً بنعمة الإيمان الحقيقي. »

7) هوغ ماري

"ذات يوم، ستتحدّث عني"

هو عنوان كتاب وضعه شاب فرنسي يدعى "هوغ ماري"، ونشر في فرنسا، عام 2000. كان يومها في التاسعة والثلاثين من العمر. وفيه يروي في بساطة وجرأة مدهشتين، حبه للحياة، للسفر، للبحث عن جمالات هذا الكون، وعن سر وجوده هو بوصفه إنساناً. وأخذ يطوف الأرض مع زوجته الفتية الكسندرا، في سعي منهما للبحث عن ذواتهما، عن غاية وجودهما، وغاية هذا الوجود كله. وما كانا غنيّين، بل كانا ينفقان خلال هذه الجولات المتكررة، ما يجمعانه خلال أشهر من العمل، ثم يعودان معاً إلى العمل. وكانت الحياة تفاجئهما بين حين وآخر، بومضات تستحثهما على المضي في البحث عن سر الوجود. حتى كان لهما في بلدة "مديوغورييه" بيوغسلافيا آنذاك، ما قلب حياتهما رأساً على عقب. وقد رأيت أن أنقل لقراء العربية، هذا الذي حدث لهما في "مديوغورييه" بحرفيته. وهو يضم الفصل السادس من الكتاب، بكامله. (من الصفحة 101–116).

« ذات يوم، ستتحدث عني

نحن في ظهيرة يومنا الثالث في بلدة "مديوغورييه". أجلس مع زوجتي الكسندرا على سطح أحد المقاهي، فنجيل النظر في جموع الحجّاج الصاخبة. أكثر ما يذهلني فيهم، أن كلاًّ منهم يبدو عارفاً بدقة وجهة حياته. أما أنا، فلا، لأني لا أعرف البتة وجهة حياتي...

ضقت ذرعاً بمكوثي هنا، محاطاً بأناس "ألهبهم الإيمان"، فباتوا يتلون الصلوات طوال النهار. لا بأس بقليل منها، أما الإفراط فيها، فلا! فأنا، ما إن

وصلت إلى هذا المكان، حتى أصبت بصدمة. فما أن صعدنا إلى الحافلة، حتى سمعتهم يتلون المسبحة، ويتحدثون عن المعجزات...

ينتابني شعور مزعج بأني أقحمت في فيلم يقوم على سيناريو لا يستهويني البتة، ويتجاوزني بالكلية. أودّ الرحيل والانتقال إلى مكان آخر، مع أني حضرت القداس هذا الصباح، وبذلت بعض الجهود. وأما الآن، فقد استُنفدت... وأنا أردّد طيلة النهار أني لم أشعر بشيء البتة. وقد قيل لنا في الحافلة إن هذا المكان مبارك، وإنه أحد أهم المراكز الروحية على وجه الأرض. ومع ذلك، فما من شيء تحرك فيّ، ولم ينتبْني أي شعور.

غداة وصولنا، استيقظنا في الخامسة صباحاً، كي نتسلق تلّة درب الصليب، المليئة بالحجارة. لكأنّ يداً شريرة تعمّدت أن تغطي الطريق بالحجارة، ليزداد تسلقه صعوبة، علماً بأنه طريق مضن. وكان بوسعي ألا أجيء. وأنا، إلى ذلك، أريد أن أعرف. وكل ما أراه يؤكد لي أني تورطت في حماقة، وأنني خُدِعت، وأنني حسناً فعلت، يوم تخليت عن "الجماعات الكاثوليكية". ولكن ما الذي قادني إلى هذه المتاهة؟

في قمة تلّة درب الصليب، تبدّى لنا المنظر رائعاً. إلا أن الحرّ خانق، والساعة الثامنة صباحاً. كانت الكسندرا قد أحسنت صنعاً، إذ جلبت معها قليلاً من القهوة. وأشعلنا سيكارة، وأخذنا نتبادل انطباعاتنا.

اعترفت لي الكسندرا بأنها لم تشعر بأي شيء، وهي لم تكن تتوقع أي انفعالات أو رؤى، وقد قدمت لترافق والدها. وطالما أن عودتنا بعد ثلاثة أيام، والطقس جميل، فقد بدأت تضيق ذرعاً بي، إذ تسمعني أردّد بأني لم يتحرك فيّ أي شعور.

كل ذلك لم ينقذني من شعوري بالخيبة، إذ كنت أتوقع حدوث شيء ما، ولكن لا شيء حتى الآن. لكأني بقلبي بات أكثر جفافاً من الصحراء الكبرى، مع أني أتمنى أن تبادرني السيدة العذراء بإشارة صغيرة، بهمسة! بالطبع لا أرجو أن أراها، كما يراها الرؤاة الستة، لكني موجود، إذا ما كانت قد نسيتني! وفضلاً عن ذلك، فقد سمعت، منذ وصولنا، قصصاً جميلة عن أناس تبدّلت حياتهم، وعن آخرين انقلبوا، كما يقال، رأساً على عقب. فأين أنا، إذن، من كل ذلك؟ أنا أيضاً أتمنى أن أتغير.

كان اليوم الثاني، 6/23، أشد وطأة من اليوم الأول. فقد أخذ فريقنا – عفواً، فريق الحجّاج – يستثير أعصابي لما كان ينتاب كلاً منهم من ارتياح لوجوده في هذا المكان. وإن حديثهم عن المسيح تارة، وعن العذراء تارة أخرى، يخرجني من أطواري...

كان برفقتنا والد الكسندرا، وإحدى شقيقاتها، وأحد الأصدقاء، وقد تعرفت إليه منذ أن عرفت الكسندرا، فقمنا معاً بنشاطات مشتركة، لا سيما في تنظيم السهرات للشبيبة. ولما كان كل منا يعرف الآخر جيداً، أثرنا مراراً شؤون الدين، وهو على علم بمسعاي في نطاق الإيمان. وأنا أعرف أنه كاثوليكي، ولا أجهل أنه يحضر القداس بين حين وآخر. إلا أن سلوكه هنا قد صعقني، إذ أراه يركع أمام الجميع أثناء الصلاة. ولقد فاجأني هذا الأمر، مع أني أجده "طبيعياً" خارج نطاق الصلاة. ولولا ذلك، لكنت قلقت عليه. ولكن ارتياحه لهذا الأسلوب، كان يستفزني. وإذن يسع الإنسان أن يركع للصلاة، دون أن يكون مهووساً بالدين... وهو يساعدنا، أنا والكسندرا، في اكتشاف الأبعاد الروحية لتلاوة المسبحة... وقد شرح لي أننا كلما تلونا "السلام عليك يا مريم"، نقدم للسيدة العذراء وردة، وهذا الشرح يفرحني،

ولكني بدافع من كبريائي، لم أصارحه بذلك. أما هو، فإنه يتحاشى طرح الأسئلة، ويتابع دربه بكل هدوء. وعلى معرفتي بما ينطوي عليه من نفاد صبر، فإنه يبذل من الصبر الكثير في تقديم العون لنا. لكأنه مارس ذلك العمر كله. على كل حال، فإن موقفه ينطوي على تشجيع كبير لي. وإذا ما أتيح لي أن أؤمن، فإني سأمارس الركوع، كي أتشبّه به!

يومنا الثالث، هو الرابع والعشرين من شهر حزيران، وهو يوم عيد القديس يوحنا المعمدان. كان هذا اليوم مضنياً حقاً. فقد استمعنا في الصباح إلى كاهن من كرواتيا، يقال إنه شاهد السيدة العذراء. كان يحدثنا باللغة الإيطالية، كانت الكنيسة تغص بالحضور. وكان الحر خانقاً. وكان الكاهن في حماسه، يرفع مسبحته وصوته، وقد حدثنا طوال ساعتين، ثم أقام القداس. لقد طفح الكيل بالنسبة إلي، ولم يعد بوسعي أن أتحمل المزيد في هذا الجو الخانق. لقد ضقت ذرعاً بكل شيء. فغادرت الكنيسة، واستمتعت بتدخين سيجارة... وشعرت بشيء من الراحة...

ها نحن إذن جالسان على سطح أحد المقاهي، أرى وأسمع، وقد نال مني الإعياء... لم أعد أجرؤ على مصارحة الكسندرا بأني لا أشعر بأي شيء البتة، لأنها ستثور عليّ دون شك. ولما كنت أنا أيضاً أعاني من توتر، فقد ينتهي بنا الأمر إلى صدام.

تناولنا طعام الغداء، وأخرجنا البطاقات البريدية. لست من هواة الكتابة على مثل هذه البطاقات، لا سيما وأنني لا أعرف ما سأكتب. بلى: سأكتب أني لم أتأثر قط في "مديوغوريه".

ستكون البطاقة الأولى، بكل تأكيد، لإحدى قريباتنا، وهي راهبة. لم تكن يوماً قد زارت "مديوغوريه"، وقد سألتني في إحدى زياراتها، قبل سفرنا، أن أكتب

لها، لأحدثها عن انطباعاتي. وأنا لن أخيّبها. فأمسكت بطاقة جميلة، وكتبت لها، بعد التحيات المألوفة، "لم أشعر بأي شيء في مديوغورييه". ولكن هذه العبارة لا يسعها أن تملأ ظهر البطاقة. فسأكتب لها بخط كبير. وإذا ما عبّرت لها عن عواطفي وقبلاتي الحارة، سيتاح لي تقريباً أن أملأ المساحة... ولكن العبارة المطلوبة ظلت عصية على قلمي، وظل عقلي جافاً كما هو قلبي... وأخيراً هاجمتني حشرة كبيرة فتحدّثت عنها وملأت بذلك ظهر البطاقة.

وما أن انتهيت من الكتابة، حتى سمعت صوتاً في داخلي يقول لي: "قم بالخطوة الأولى". إنه لأمر عجيب. لكأني بالكلمات تنطبع في قلبي، ولا يسعني أن أصف ما يحدث لي، إلا على هذا النحو. أشعر بشيء من الاضطراب. ينتابني الشك. يبدو لي أني عرضة لأوهام، ولتخيلات مفرطة. ولكن الكلمات تتكرر في داخلي، هي هي: "قم بالخطوة الأولى"، "هوغ، قم بالخطوة الأولى..."

"... وهتفت اليصابات بأعلى صوتها وقالت:

"من أين لي أن تأتي أم ربّي إليّ؟" (لوقا 1/ 41–43)

صدى إحساس واضح بأن السيدة العذراء هي التي تكلمني، وبدأت معها حواراً داخلياً. أو بالأحرى، أخذت أحدثها أنا، وهي تكرر دون ملل، وفي دعة عظيمة، لا تخلو من حزم شديد: "قم بالخطوة الأولى...". ترددت أولاً، ثم تجاهلت، ولكني أجد من الغرابة بمكان أن تحدثني بهذه الطريقة، علماً بأني قادم من باريس! إن كان سفري ليس بالخطوة الأولى، فما عساها تكون هذه الخطوة الأولى؟ وأعربت لها عن انزعاجي، وكان جوابها لي الدعوة إياها، ولكن في حب عظيم.

"ثارت ثائرتي ضد نفسي، وهذا العالم بأسره. وها أنا سأفعل بما أنه يتوجب

علي أن أقوم بالخطوة الأولى، ولكنها لن تكون خطوة واحدة. فنهضت في تصميم، وقررت تسلق تلّة "كريزيفاك"، كي أنجز درب الصليب بمفردي، ولسوف يكون ذلك أكثر بكثير من خطوة. الحر خانق، والساعة الثانية بعد الظهر، والشمس في كبد السماء. قد تكون فعلتي ضرباً من الجنون، ولكني بحاجة لأن أنفّس عن نفسي، كي أستعيد بعض الهدوء، وقد بدا لي أن هذه الرياضة هي خير ما أقوم به للتو. واستجبت لنصيحة الكسندرا، فحملت معي "مطرة" من الماء، وانطلقت في تصميم. كنت حزيناً لفراقها، ولكني كنت مقتنعاً بضرورة القيام بهذا التسلق.

بين باحة الكنيسة وبداية مرتفع التلة، مسافة كيلومترين: فقدّرت أني، بعد نصف ساعة، سأبدأ درب الصليب. بالطبع لم يكن ثمة غيري ليقوم بهذه الخطوة الأولى، بسبب الحر...

وبدأت الصعود، فيما أنا أفكر في الله، في العذراء مريم، في حياتي، في الحجارة، في رُكبتيّ، في الحشرات التي تهافتت عليّ، في الحرّ، وإذ بي أمام الحجر الذي يرمز للمحطة الأولى من درب الصليب: "بيلاطس يحكم بالموت على يسوع". كان الحر قد بلغ حداً دفعني لأن أتناول مطرة الماء، وما أن أخذت أفتحها، حتى سمعت صوتاً يقول: "الله أولاً، بعد ذلك ستشرب". فرضخت تلقائياً... فصليت "أبانا" و"السلام" و"المجد"، ثم شربت، وانطلقت للمحطة الثانية. فتكرر السيناريو نفسه: "الله أولاً، ثم تشرب"... "أبانا"، و"السلام"، و"المجد"... وتكرر المشهد نفسه، حتى بلغت المحطة الرابعة عشرة. وعندها توقفت أمام الصليب الكبير، في محاولة مني لأفهم هذا الذي أعيشه. وكنت مسترخياً بعض الشيء، فسألت الله أن يتكرم وينير قلبي، لأنني لم أكن أدرك شيئاً. شعرتني في ما يشبه الضياع... ولكني لم أتلقّ أي جواب من

السماء، ما لم يكن قد أتى، ولم أدركه! فتوجهت إلى السيدة العذراء. إلا أنها كانت صامتة، تماماً كما كان ابنها... ولكن أنت، أيتها العذراء، من طالبتني بالقيام بالخطوة الأولى، وأنت هي من طلبت ذلك مني، وأنت هي من ألهمني الصلاة قبل أن أشرب. فقد أنجزت ما طلبت مني... أجيبيني، مريم، مريم، يا مريم، أجيبيني، ساعديني، أرجوك يا مريم، أرجوك...

ابتعدت عن الصليب، وأشعلت سيجارة، وأخذت أحدّق في الطبيعة المحيطة بي. بحثت عن مكان ظليل، واسترسلت مع أفكاري أحدّث الله. يبدو لي وكأننا في لعبة "الطمّيمة"... ما أن أحاول العثور عليه، حتى يفلت مني، وعندما أنساه، يعاود الحضور. أنا وإياه، لسنا على موجة واحدة. ولكن، لماذا، يا إلهي، لماذا؟ أين أنت؟ أين تختبئ؟ كيف لي أن أعثر عليك؟... وأنتِ، يا مريم، لماذا أتيتِ بي إلى هذا المرتفع، إن كنت تريدين أن تدعيني وحيداً مع أفكاري؟ هل من شر صنعته؟ ما الذي أسأت فعله؟ ساعديني، ساعديني!...

الحر، حتى في الظل، خانق. لم يتبقّ لي نقطة ماء. أنا عطش. لم أعد أستطيع التفكير. بدأت أهبط المنحدر، في شيء من الخيبة. لا عزاء لي سوى وجود "الكسندرا" في انتظاري قرب الكنيسة.

عندما رأيتها، شعرت بتحسن صريح. هي أيضاً كانت سعيدة بعودتي. سألتني ما إذا كنت أشعر بتحسن ما، وما إذا كان تسلّقي التلة قد قدّم لي شيئاً ما... وبدا عليها أنها تشعر بفشلي، فكفّت عن طرح الأسئلة. ثم قالت إن مجموعة حجيجنا في "الحرش الصغير"، وهم في طريقهم إلى مقابلة الرائية "فيشكا". واقترحت علي أن أنضم إلى الجميع، لا سيما وأن الكهنة يتقبلون اعتراف من يرغب في الاعتراف. ثم ذكرتني أني قلت لها ونحن في باريس، قبل سفرنا هذا، أني سأعترف هناك، إذا ما توفرت لي الفرصة!.

وفي شيء من الاستسلام، الخالي من أي حماس، تبعتها نحو "الحرش الصغير". أقرّ بأن فكرة الاعتراف تكبّلني بالرعب. لقد مضى خمسة وعشرون عاماً على آخر اعتراف لي... لم أعد أدري كيف يجري الاعتراف... ماذا عساني سأقول للكاهن؟ سأبدو له دون شك، أشبه بإنسان غبي... فضلاً عن ذلك، فأنا أكرر منذ سنوات، للمساكين الذين كانوا يبحثون عن راحة ضمائرهم في الاعتراف أمام كاهن، أني أفضل التحدث مع الله مباشرة، وأني لست بحاجة إلى أي إنسان، كي أتحدث مع الخالق، وأن الأغبياء وحدهم، هم الذين يعترفون أمام كاهن! على كل حال، ففي الديانات الأخرى، يتحدث الإنسان مع الله دون وسيط.

إلا أني قبل أن أغادر باريس، كنت قد تلفّظت بعبارة بائسة. إذ قلت إني، إن ذهبت إلى "مديوغورييه"، سوف أعترف. يا لي من أحمق! كيف أفلت من هذا الفخ، دون أن أهدر كرامتي؟

ووصلنا "الحرش الصغير"، اللعين. ونظرت الكهنة، ثم همست بخفر في أذن الكسندرا: "إني لا أشعر بأي ثقة حيالهم! ولكن الكسندرا ظلت مصرّة. وشجعتني على الاجتماع بأحدهم، والمعروف عنه أنه أمضى عشرين عاماً في أفريقيا. وأضافت:

"سيكون لكما، على الأقل، ما تتحدّثان عنه...". قلت: "الكسندرا، أنت تعرفين أنهم كلهم يشبه بعضهم البعض، هذا، أم غيره". فأجابتني: "أنت أنت، تعرف كل شيء... أنت دائماً على حق! افعل ما يحلو لك! فالأمر لا يعنيني!" قلت لها: "كلا! كلا! أنت على حق! هذا الكاهن بالتأكيد أفضل من غيره... سأعترف عنده!". لم يكن بوسعي، وأنا في ما أنا فيه، أن أدخل في خلاف مع الكسندرا. وأنا أكره الخلافات، والكسندرا تشير علي دوما بما هو خير...

وفيما كنت أردّد في ذاتي، أنه يتوجب علي أن أكثر من الإصغاء إليها، قرّرت أن أعترف لدى الكاهن القادم من إفريقيا...

ولكن، يا له من إحراج! ليست الكسندرا هي التي ستعترف!

تمالكت نفسي. كان أمامي شخصان أو ثلاثة، والكل ينتظر دوره... لدي متسع من الوقت... دخّنت السيجارة الأولى، ثم الثانية... ليس ثمة سوى رجل واحد قبلي... تناولت السيجارة الثالثة... يا إلهي! جاء دوري! حدّقت في ساعتي لحظة توجهت نحو الكاهن المعرّف، كانت تمام السادسة والأربعين دقيقة! إنه موعد ظهورات السيدة العذراء للرؤاة الستة!

أنا غير مرتاح، غير مرتاح. فقدت كل اعتزاز بنفسي، أجل، كل اعتزاز. توجّهت ببطء متثاقل نحو الكاهن. كنت أشبه بطفل من الكشافين، يحمل على ظهره كيسه الثقيل. كان الكاهن بادي الارتياح. كان يحدّق فيّ وأنا أتقدم نحوه، وقد ملأت وجهه ابتسامة عريضة. كان كمن يقول لي: "هيا، هيا! إني في انتظارك!..." لم يكن بوسعي أن أعود من حيث أتيت. وما أن وصلت إليه، حتى قذفته بهذه الرشقة من الأقوال:

"أبونا، لا أرغب في التحدث معك. أنا لا أعرف ما الذي جاء بي إليك. أنا لا أحب "مديوغورييه". لست أدري ما سأقول لك. مضى على آخر اعتراف لي خمسة وعشرون عاماً. إن لم تساعدني، ستحل بي كارثة!..."

كنت أتوقع، بعد هذه الثورة، أن يجيبني بدوره أنه هو أيضاً ليس راغباً في التحدث معي، وأني أستطيع العودة من حيث أتيت، لأترك المكان لمن يودّون الاعتراف... ماذا عساني كنت أرجو من كاهن، أكثر من ذلك؟

غير أن هذا الكاهن فاجأني بقوله:

– أنت، ما اسمك؟

– هوغ!

– هوغ، اجلس! أنا أحب الناس الذين يشبهونك!

لم أصدق! لقد تملّكني. فجلست بالقرب منه، وأنا جامد... وأخذ يتكلم. أخبرني عن الجمعية التي ينتمي إليها. ثم قال إني إذا كنت هنا، فذلك لأن الله يريد أن يكلّمني، وإن لدي أموراً كثيرة أريد أن أقولها له. واقترح عليّ أن أبدأ بالابتهال إلى الروح القدس كي يفتح قلوبنا...

هنا، غاص كل شيء!

هبطت علي موجة جارفة من الحب. الحب يجتاحني! إنه في كل مكان. في ذاتي، حولي. إنه يغمرني، وهو يتعاظم. شعرتني محبوباً إلى حدّ لا يمكن تصوره، محبوباً... محبوباً... ثمة من يحبني حباً جنونياً، أنا، أنا "هوغ"، أنا محبوب، محبوب، أتفهمون ذلك؟ ما كنت لأفكر بأن الإنسان يمكنه أن يكون محبوباً إلى هذا الحد... إزاء هذا لحب اللامحدود، شعرتني بائساً... لِمَ لم أشعر بذلك يوماً؟ وكلما ازداد شعوري ببؤسي، تعاظم شعوري بالحب. وكلما كان يتعاظم شعوري بالحب، كان شعوري ببؤسي يتفاقم... يا إلهي! ما كان لي يوماً أن أعرف مدى شعور الإنسان بمثل هذا البؤس!

أكاد أتفجّر... أكاد أتفكك... الحب يتعاظم... امتلأت جميع مسام جسدي بقدر من الحب، يضغني على حافة الانهيار...

إن الله، لحسن الحظ، أعطانا أن نبكي... وفي السادسة والثلاثين من عمري، انفجرت بالبكاء... أبكي، وأبكي، وأبكي بكل مسام كياني... لا مكان للخجل... أنا في ارتياح لا يوصف. أنا مغمور بهذا الحب. لا أريد أن أفقده. انتابني شعور عظيم في قلبي، بل يتوجب علي أن أقول "انطبع" في قلبي...

"أنا الله! أنا إلهك! أنا خالقك. أنا أحبك كما لا يسعك تصوّره. وأياً كان ما فعلت، فأنا أحبك وأغفر لك!"

استسلمت للبكاء. سألت الغفران. أنا أيضاً أحب. أريد أن أُحِبّ، وأن أُحَبّ. أعرف أن الإله الروح القدس هو الذي يكلّمني، أعرف ذلك! وهذا كل شيء!

وتواصلت الدموع في الانسكاب غزيرة، في صمت. لا يسعني أن أقول شيئاً. وإذا ما تكلمت، فسأذوب دمعاً...

والآن، هو الله الآب الذي يكلّمني في قلبي:

"أنا هو الله. أعرف أنك تبحث عني. ولكنك لا تبحث عني حيث أنا. والآن، وقد عرفت، فابحث عني حيث أنا..."

بالتأكيد هو يشير إلى جميع مساعيّ السابقة في دنيا الباطنية والماورائيات. إنه يعرف كل شيء عني، وهو يحبني، يحبني، يحبني!

ما زلت أبكي. كل دمعة تغسلني، تنتزع مني الخطايا المتراكمة منذ سنوات وسنوات!

ثم كان ليسوع أن يلمس قلبي. فقال لي:

"هوغ، أنت تبحث عن السلام. أنا هو السلام! أنا وحدي أستطيع أن أهبك السلام الذي ترجوه..."

لكم هو يغمرني بالحب. لقد قال لي ذلك بمنتهى الوداعة والسلام.

إن سماع هذه الكلمات، أمر لا يصدق بالنسبة إلي، إذ كنت منذ سنوات، أردّد لمن يريد أن يستمع إلي، ولا سيما "الكسندرا"، إن الشيء الوحيد الذي أتطلع إليه، إنما هو السلام. وها هو يسوع، المسيح هنا، يسمعني الجملة عينها، هذه الجملة القيمة، كما لو كان حاضراً في كل ذكر لها.

ولم أكن أدرك، إذ كان يقول ذلك لي، إنه إنما يريد أن يقول لي: "اطمئن!".

ليس بوسعي أن أحدّد المدة التي استغرقها اعترافي، ولا الطريقة التي انتهى بها الاعتراف. وأنا جالس الآن مع الكسندرا على سطح المقهى. لا أرغب في الكلام. أريد أن أبكي. ولاحظت الكسندرا أنني في حالة قصوى من الاضطراب، ولكنها لم ترهقني بالأسئلة. إنها حقاً خارقة. كانت الدقائق تمضي كحبّات المسبحة. وفجأة، نبتت في قلبي الرغبة في مغادرة سطح المقهى. أشعر بأنه يتوجّب عليّ أن أعود إلى "الحرش الصغير"، دون معرفة السبب. هذا غباء! ليس لي ما يبرر عودتي إلى "الحرش"، ولكن يتوجب علي أن أفعل ذلك. ثمة شيء يشدّني، يدفعني!...

فوجئت الكسندرا برغبتي. إلا أنها لم تقل شيئاً، بل اقترحت مرافقتي.

يبدو لي أن العذراء، الفائقة القداسة، هي التي تدعوني للعودة إلى هذا المكان، البالغ التأثير علي.

ولحظة وصولي، لم أرَ سوى الكاهن المعرّف إياه، وامرأة كانت تعترف لديه. وما إن رآنا، حتى هبّ واندفع نحوي، وهو يقول:

"هوغ، من شدّة تأثري بما حدث لك، نسيت أن أمنحك الغفران! هي المرة الأولى، كما أرى، يحدث لي مثل هذا الأمر. كنت بحثت عنك طوال الليل، لو اقتضى الأمر..."

ولما كان قد مضى خمسة وعشرون عاماً، على آخر اعتراف لي، وبسبب ما كنت فيه من انفعال، لم أنتبه إلى أني لم أنل نعمة الغفران من الكاهن المعرّف!...

أما مريم، فلم يفتْها ذلك!

"تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين والمثقلين بالأحمال، وأنا أريحكم.

احملوا نيري عليكم، وكونوا لي تلاميذ، لأني وديع ومتواضع القلب" (متى 10/28–29)

8- "نيقول فاليري" (Nicole VALÉRIE) - (1919-1998)

هي كاتبة رومانية. ولدت عام 1919. تخرجت من المعهد العالي للموسيقى، في العاصمة "بوخارست". وخلال الحرب العالمية الثانية، انضمت إلى "حزب الفلاحين الوطني". وتسلمت ما بين عام (1945) و(1947)، إدارة صحيفة هذا الحزب الرسمية. ولما أحكم الشيوعيون قبضتهم على رومانيا، اعتقلت الشرطة السرية، "نيقول"، بصفة ناشطة سياسية، وقضت في السجن أربع سنوات. وفي عام 1969، غادرت مع زوجها رومانيا، واستقرت في باريس، بعد أن نالت حق اللجوء السياسي. وفي فرنسا، أسست لعمل ثقافي وديني واسع، تواصل حتى وفاتها عام 1998. وقد نشرت العديد من الكتب، كان من أهمّها كتاب بعنوان "بوركت أيها السجن"، وضعته باللغة الفرنسية، وصدر عن دار نشر "بلون" (PLON). وقد روت فيه انتقالها من الماركسية إلى المسيحية. رأيت أن أنقل منه ما جاء في الصفحات (41-62).

« بوركتَ أيها السجن

كنت أؤمن بالله، أجل، ولكن بالأحرى على نحو روتيني... كنت أحياناً أذهب إلى الكنيسة، ولكني كنت أعيش، في نهاية المطاف، كما يعيش العديد من الملايين الذين يدّعون أنهم مسيحيون، لأنهم يمتلكون شهادة عماد.

كان أمي، خلال طفولتي ومراهقتي، قد حشتني بالعقيدة المسيحية. ولكني، كالكثيرين غيري، لم أعرف أن أقدّر حقيقتها وجمالها.

من ناحية أخرى، فإن الاضطرابات المرافقة لعمري، والتأثير السيئ للذين يفهمون الحياة على أنها أقصى استمتاع ممكن باللحظة الحاضرة، كما أن بعض خيبات الأمل، يسبّبها أولئك الذين يرون أنفسهم "خدّام الله"، كل ذلك أطفأ الشرارة الأخيرة، التي كانت تتوهج في أعماقي.

وعلى نحو مبكر، استسلمت بفكري وجسدي للاستهتار، وأخذت أبحث عن السعادة في متع الحياة.

كنت أملك جسماً جذّاباً، ومواهب موسيقية وفنية، تشعرني بكثير من الغرور. وكانت سنوات شبابي تمضي كحلم حلو، كغيمة وردية تدفعها نسمة الربيع الرقيقة.

ولكن عندما بلغت الثانية والعشرين من عمري، بدأت أكتشف سطحية حياتي، وما في أعماقي من رغبة في الاستقرار، ومن تطلع نحو الخير والعدالة والحقيقة. فتوقفت قليلاً عن مغامراتي المجنونة، وبحثت عن الكمال في فلسفات فارغة... بل مضيت في بحثي حتى استهواني السحر.

وبعد فترة، تخليت عن كل شيء، وأنا أكثر يأساً وسأماً.

ولكني بفضل قدرات عمري غير المحدودة، كنت أنطلق من جديد نحو "شيء آخر"، يحدوني الأمل.

وهكذا دخلت غمار الحياة السياسية. يا للأسف! إن سراب الانطباعات الأولى، وأفراح السنوات الأولى من نشاطي السياسي، تبخرت بسرعة.

كنت أدّعي العثور على الكمال لدى الآخرين، وكنت أحلم به للآخرين. إلا أني لم أفكر قط بالتأمل في صورتي الداخلية، كما في مرآة سحرية.

إذن، عندما بلغت مفترق الطرق، كان الله يبدو لي بعيداً جداً عني، ولم أكن لأتوجه إليه، حتى في أصعب اللحظات. والحقيقة، أني، بسبب اعتزازي بنفسي، لم أكن لأفكر باللجوء إليه إبان حاجتي.

فكيف بي أصلي له، هو الذي أهملته، وتخليت عنه، بل كما تقول أمي، جدّفت عليه.

كلا! ما كنت لأتوجه إليه في أي حال!

اعتصمت إذن بكبريائي الصلب، بالرغم من الضربات العديدة التي تلقيتها في حياتي، وواصلت العمل في السياسة.

وا أسفي. لكم من سنوات مرّت قبل عام 1948، إذ سلّمت فيه أمري بالكلية لله، دون أن أكون قدمت له أي شيء.

إن لقائي بـــ "سابين" (Sabine) سبق وهيّأ اهتدائي.

"سابين" هذه جسّدت في نظري منذ اللحظة الأولى، تحقيق الإنسان في المسيح، هذا المسيح الطيب والوديع، حمل الذبيحة المكفّر عن خطايا البشرية، منبع السلام والفرح الحقيقيين.

كانت أمي قد التقت ("ريشار" و"سابين" فورم براند) (Wurmbrand)، خلال الحرب العالمية الثانية. ولما عرفتهما، لم تعد تفارقهما.

عندما حدثتني أمي عنهما، رفضت الإصغاء إليها.

وعندما عرضت علي زيارتهما، أجبتها بتلميحات شريرة وساخرة.

ولكن أمي كانت عنيدة، فلجأت إلى حيلة، فدعت بعض الأصدقاء إلى سهرة في منزلنا، منهم ريشار وسابين. فاضطررت للبقاء في البيت، ولكن على مضض.

وتعارف الجميع في شيء من الفرض. كان "ريشار"، وهو قسيس يملأ البيت بمن يرافقه من المعجبين. لم أتعرف إلى زوجته. فسألت عنها، فرأيتها: هي صغيرة، سمراء، نحيلة، ولكنها تملك ابتسامة عريضة لا تفارقها، وكانت جالسة بهدوء على كرسيها، وكأني بها فتاة صغيرة خجول ومهذبة. أما ريشار، فقد استحوذ على اهتمام الجميع. وكان ماهراً جداً في ابتكار طرق يحدّث فيها الناس عن المسيح، ثم رتّل لهم إحدى ترانيمه المحببة، "الراعي الصالح". وطلب إلي مرافقته على "هارمونيوم" (Harmonium) والدتي. فلبيت طلبه وكلي ثقة

بأنه يسعى بذلك للتقرب مني، حتى يتحدث إلي. وكنت أجافيه، هو وأتباعه، بحيث كنت أسخر منه في داخلي، فيما أنا أردد في نفسي: "لا تحلم بأن تنطوي علي هذه الحيلة".

من هذه السهرة كلها، لم يتبقّ في ذاكرتي سوى وجه سابين وموقفها.

لم أنس يوماً واحداً ابتسامتها الدافقة بالنور والتواضع.

لقد تصورت عندها أنه تجسد تحقيق الإنسان في المسيح!

شيء ما في أعماقي كان يؤكد لي ذلك.

وولّدت هذه القناعة في أعماقي، رغبة لا تقاوم في معرفة المزيد عن "سابين".

أمي لم تقل لي عنها الشيء الكثير. إنما كانت تردد باستمرار: إنها "قديسة".

وذات يوم، سألت إحدى السيدات التي تعرفها، أن تزورنا، فعلمت منها الكثير عن "سابين".

عرفت أن "سابين" أمضت شبابها كله بعيدة كل البعد عن الله، وأنها عاشت حباً شهوانياً جارفاً، مع "ريشار" الذي كانت تعبده.

وعندما اهتدى "ريشار" إلى المسيح، بلغ يأسها حدّاً أقدمت معه على الانتحار. ثم اكتشفت المسيح بدورها، وانتظمت حياتها مع "ريشار" في إطار الإيمان بالمسيح. وهي تسعى وإياه لجلب أكبر عدد من الناس إلى يسوع.

في هذه الأثناء، مرت سابين بمأساتين كبريَين: كانت الأولى مقتل والديها، ثم مقتل إخوتها في معسكرات الاعتقال النازية.

عرفت كل ذلك عن "سابين".

كنت أود أن أحدّثها، أن أسمع صوتها، ذلك بأنها لم تكلّمني ولا كلمة واحدة، في الليلة التي التقيتها فيها لأول مرة. ولكنها نظرت إلي مرات كثيرة،

وشعرت في كل مرة بإشعاع ابتسامتها المشرقة يغمرني بالنور، تلك الابتسامة التي كان واضحاً جداً أنها تنبع من أعماق استقر فيها السلام والسعادة!

ولكن كيف السبيل إلى لقائها دون سبب؟

كنت أخشى، إن فعلت، أن تظن وزوجها "ريشار"، أني اهتديت إلى المسيح.

ومضى وقت نسيت فيه "سابين".

كانت ثمة هموم كثيرة ومؤلمة تواجهنا. والحرب كانت تسحقنا، وقصف الطائرات يتواصل متكاثفاً...

فمن أين لي الوقت لأفكر بالله؟

يا لشقائي!

وبعد فترة طويلة جداً، التقيت "سابين".

كان زوجها "ريشار" وأخي قد اعتقلا عام 1948. وتأثرت كثيراً لاعتقال "ريشار". أما اعتقال أخي، فقد كان يقتلني!

وكنا نجهل مكان اعتقالهما. وجاءنا من يقول لنا إن أخي في سجن "جيبارا" (Jibara) المخيف!

قررت أن أمضي إلى هذا السجن، ومعي بعض الطعام، لعلني أتيقن من وجود أخي في هذا السجن.

قبل انطلاقي إلى السجن، جاء هاتف من "سابين"، تطمئن فيه من أمي عن أخي. فأعطتني أمي الهاتف، واتفقت مع "سابين" على المضي معها إلى سجن "جيبارا"، لعلنا نستطلع الأخبار عن أخي وعن "ريشار".

يصعب علي أن أصف انفعالي إذ كنت أحدث "سابين" على الهاتف، وخصوصاً إذ كنت أنتظرها في البيت، لنمضي معاً إلى السجن. لم يكن بوسعي

أن أفهم سبباً لاضطرابي هذا. وكان يبدو لي أننا كنا، كلتانا، عائدتين من بلد بعيد ومختلف، لنلتقي بعد سنوات طويلة جداً من الغياب.

كنت أتصور أن ذلك كان سبب اضطرابي.

ومضيت مع "سابين" إلى سجن "جيبارا"، وهو يقع على مسافة بعيدة عن العاصمة "بوخارست".

كنت أحسّني بجوارها، وكأني مع إنسان أحبّه منذ زمان طويل.

لم تكلّمني "سابين" عن المسيح.

لم تقل لي إني كنت غارقة في الخطيئة.

لم تقل لي إن الموت يترصدنا في كل خطوة نخطوها.

ولم تقل لي إنه يتوجب علينا أن نتصالح مع الله.

لم تكشف لي شيئاً عن سلامها، وعن فرحها، وعن منبع هذا السلام وهذا الفرح.

ولكني، من خلال حديثنا العادي، في الذهاب والإياب، فهمت أن "سابين" تعيش في كنف الرب، وفي انسجام تام معه!

جعلتني أفهم تماماً أن الله يستطيع أن يغيّر إنساناً ما بحيث يرقى به إلى تلك الدرجة المتفوقة التي نسميها في تصورنا الضعيف للكمال، قداسة.

لقد تولّدت لدي تلك القناعة، خلال نصف النهار الذي أمضيته مع "سابين"، ولم يعد، منذ ذلك الحين، شيءٌ يفصلني عنها.

في السجن

لم يحدث شيء جديد بعد الظهر. وزّع علينا الطعام مساء. انتظرت الساعة العاشرة، ليسمح لي بالنوم، ما لم أُدعَ للتحقيق، كما وُعِدت بذلك. كنت تعبة حقاً. كنت أشعر بألم مضنٍ في قدمي وفي كليتي. كنت أشعر بالدوار. وكانت

تشتد وطأته عليّ، كلما فكرت في ألمي... وعلى العكس من ذلك، كنت، كلما نجحت في التحليق على جناحي الفكر والصلاة، أحس أن آلام جسدي وأثقاله تتبخر إلى درجة التلاشي تقريباً.

فتح باب زنزانتي في "الموعد المحدّد". في طريقي إلى غرفة التحقيق، كنت أردد كلمات المزمور (118) في قلبي، ومنها هذه الآية: "ماذا يستطيع الناس أن يفعلوا بي؟". فاستطعت أن أهدئ من انفعالاتي.

صحيح أن بعض الرجال يستطيعون أن يسببوا أذى بالغاً. ولقد أنزلوا بي أذى فادحاً في تلك الليلة، وطوال فترة اعتقالي في الزنزانة الانفرادية.

لقد تحمل جسدي عذاباً هائلاً. وأخضعت أعصابي لامتحانات بالغة القسوة. هؤلاء "الرجال" كثيراً ما داسوا بأقدامهم كرامتي، وقذفوني بأبشع الأوصاف والإهانات. تألمت في جسدي أياماً ولياليَ. ليس لي رغبة في ذكر الأساليب التي استخدمها هؤلاء "الرجال"، ليحملوني على الاعتراف بما لم أفعل، أو على اتهام الآخرين بما لم يخطر لهم ببال.

وعلى الرغم من ضعفي الجسدي، بل والفكري، كنت، طوال هذه الأيام التي لا يمكن وصفها، قد نظمت في زنزانتي، أشبه شيء بدليل حاولت جاهدة أن أحتفظ به حاضراً في ذهني.

وكنت أردّده دون ملل، كي أطبعه في دماغي، بحيث أستطيع – إذا ما نجح جلادي في إفراغ جسدي من المقاومة، بل وعقلي – أن أنقذ نفسي، بفضل هذا الدليل المحفور في أعمق أعماقي.

وكنت أعتمد عليه كي يعينني على استعادة نفسي، وعلى التمسك بثبات في إيماني ومحبتي ليسوع.

وأما هذا الدليل، فقد كان يقوم على النقاط التالية:

1. إن الله محبّة

2. لن يسمح الله بأن أبتعد عن الطريق الذي يقود إليه.

3. أنا في السجن، لأن يسوع قد هيّأ لي فيه لقاء مقدّساً، لكي يُطهّرني، ويثبتني في الإيمان، ويبنيني روحياً.

4. لا يحق لي أبداً أن أصلي كي ينقذني من العذاب، أو حتى من حكم الإعدام. ومثلما أن الصائغ يعرض للنار قطعة من الفضة ليجعل منها عملاً فنياً، فيمسكها بكماشة، ولا يخرجها من النار إلا في اللحظة التي تبلغ فيها الدرجة المناسبة من الليونة، هكذا يفعل يسوع، فيضعني في بؤرة العذاب، حتى يجعلني طيعة وفق ما يرضيه. فقد أذن لي بأن أُسجن، وأنا أنتظر في خضوع أن يصنع بي ما يحلو له. وهو، كالصائغ، سينتزعني من آلام كمّاشته الجبارة، عندما يجدني قد بلغت المرونة المطلقة التي ترضيه.

5. إن الرب لن يسمح قط بتعرّضي لتجربة تفوق قواي. وإذن لا يحق لي أبداً أن أقول: "لقد نفدت قدرتي على الاحتمال"، أو "أخرجني من هنا"!

6. يتوجّب عليّ أن أستغل الزمن الذي سأقضيه وراء القضبان، لكي أتغيّر روحيّاً، وأصبح مفيدة لغيري، وأتعلّم الصبر، وقيمة التضحية، من أجل القريب، وأستبعد من قلبي كل أثر للحقد، حيال الذين يعذبوني. (ص50)

ذات مساء، كنا متحلّقين حول طاولة الطعام، نصغي إلى كلام الله في الكتاب المقدّس. فجأة، قرع جرس الباب مرتين. لم يكن الوقت المتأخر وقت زيارة أصدقاء. ونظر كل منا إلى الآخرين، وكأني بنا نتساءل: "تُرى، من سيعتقل الآن؟". فأردت الإسراع إلى الباب لأفتحه وأستقبل رجال الأمن، وأبادرهم بالقول: "كنت أنتظركم". وفكرت فإنه يتوجب علي أن أضحّي بنفسه، أن أرحل كالكثيرين، نحو مجاهيل السجون. "أن أغادر الأهل والأصدقاء. متى تراني سأراهم مجدداً؟

كنت مستغرقة في هذه الخواطر، فلم ألحظ أن صديقتي "سابين" قد سبقتني إلى الباب، ورأيتها تعود حيث كنا، ولكنها لم تكن وحيدة، إذ كان يقف بجانبها رجل متوسط القامة، لا يمكن تحديد عمره، وفي عينيه شخوص وخوف وشك.

قالت لنا صديقتي "سابين":

"اجلسوا. هذا الرجل يحمل لنا أخباراً من السجن الذي أطلق منه سراحه".

ثم التفتت إليه وقالت له:

"أرجو أن تعتبر نفسك بين إخوة لك".

جلس ضيفنا المسكين، وهو يجيل فينا نظراً غائباً.

كانت قصته شبيهة بقصة الآلاف... انتزع من بيته لساعة واحدة، ولم يعد إليه إلا بعد أربع سنوات...

كان ما يزال يتكلم... ولكني لم أعد أستمع لما يقول، وقد أخذني الدوار... كان يتكلم بسرعة، ويردد دون ملل اسم السجن الذي اعتقل فيه...

انسحب أصدقاؤنا بلباقة، الواحد تلو الآخر...

عندما وجد نفسه وحيداً مع ثلاث نساء، تجرأ وبلّغنا الرسالة التي كان قد ائتمنه عليها زوج "سابين".

أكد لنا أن "ريشار" في وضع جيد، لا يتعرض لأي تعذيب أو إهانة، ولا ينقصه شيء.

كنا نعلم أن الحقيقة غير ما روى هذا المسكين، وكنا شاكرات له، لأنه غامر بالمجيء إلينا، وبتقديم التعزية لنا... على كل حال، حسبه أنه أكد لنا أن زوج صديقتي لا يزال على قيد الحياة.

وبصورة عفوية، قالت "سابين"، وابتسامة رقيقة تعلو وجهها:

"ليتمجد اسم الله! ولنشكره معاً من أجل نعمة إطلاق سراحك، ومن أجل الأخبار التي حملتها لنا... ليباركك الرب!"

فوثب الرجل غاضباً، وقال:

"أعرف يا سيدتي أنكم مسيحيّات متشدّدات. ولكن أرجوكنّ لا ترغمنني على التصرف على نحو خال من الأدب. لا تتحدّثن عن الله أمامي. أنا لا أؤمن به. أنا لا أؤمن به، إن الله غير موجود!".

واتسعت عيناه الغائرتان، واشتعل نظره الباهت، وأخذت بشرة وجهه المتجعدة ترتجف، واحتقنت أوردة جبهته الشاحبة حتى كادت أن تنفجر. فتساءلت في دهشة:

"من أين تراه تأتيه هذه القوة؟"

للحظات سبقت، كان صوته مختنقاً. وكان كل ما فيه يبدو وكأنه قد نفد، من جراء سنوات اعتقاله الأربع! يا للتبدّل!

فقالت له صديقتي "سابين" بصوتها الوديع الهادئ:

"يا سيدي، اسمع. ليس لك أن تلومنا، إن كنا نؤمن بالله!

فأجاب:

"أنا لا ألومكن، يا سيدتي. الأسوأ من ذلك أنكنّ تستثرن غضبي المطلق! أنتنّ تعشن في الجحيم الراهن، وأنت بالذات مهددة بالسجن في أي لحظة، وأنتنّ تُصررن على عدم التخلي عن السجود المذل أمام إلهكم! أنتنّ تقدمن شعائر التكريم، وتشكرن إلهاً لا وجود له! إنه لعارٌ عليكن، أنتنّ المثقفات بالذات! إن موقفكن ينطوي على الجبانة، بقدر ما يثير من التقزز. اعلمن، يا سيداتي، أن الإله الوحيد الموجود، إلهي أنا، هو البغض والانتقام. ذلك الإله، هو الذي سندني في السجن، ولقد أعطاني القدرة على الصمود خلال سنوات جلجلتي،

التي أمضيتها في الزنزانة الرابعة والعشرين الشهيرة. واسمحن لي أن أؤكد لكنّ أننا جميعنا أتباع هذا الإله أكثر مما نتصور، وكلنا نعيش مبغضين لبعضنا البعض. ونحن ننتظر بفارغ الصبر، اليوم الذي يتيح لنا فيه التاريخ، أن نمارس عقيدتنا، بحيث نزل بمضطهدينا عذابات تفوق بوحشيتها تلك التي أنزلوها بنا.

فقلت له:

– إن كنت تدرك ما تقول، يسعنا أن نتصور عقيدتك على صورة دولاب، يمكّن جميع أتباع "إلهك" من إشباع انتقامهم، كل بدوره، وفي هذه الحال، ماذا عساك تفعل، عندما سيقودك "التاريخ" من جديد إلى السجن؟

– سأحاول مرة أخرى أن أعود إلى قمة الدولاب...

– ولكن، أيها السيد، لنتكلم بجدية. ألم تشعر يوماً، على الرغم من بغضك، كم أنت ضعيف وصغير، ومدى الخسة والحقارة الذي تبلغه بسبب حقدك هذا، ونزعتك إلى الانتقام؟ ألم تلمح قط هذه الزاوية الصافية من روحك، التي بصمها الله منذ الأزل، ببصمة الحب والحنين إليه، وحاجتك إلى الانحناء أمامه، والخضوع لمشيئته؟ ألم يخطر ببالك قط أن تسأله نعمة الإيمان والحكمة؟

فقال:

– ممّن أطلب الحكمة؟ من الفراغ؟

فسألته:

– وإن كان موجوداً؟ والحق إنه موجود، وهو يسمعك.

لقد قلت إنك أطلقت من السجن "بفعل عجيبة"، والآن...

فقاطعني:

– عبارة "بفعل عجيبة"، إنها هي طريقة طريفة للتعبير، كنت أريد أن أقول إن الشرطة السرية أطلقت سبيلي، دون أن أفهم حجتها المنطقية... هذا ما عنيته بعبارة "بفعل عجيبة". إنها صدفة! وأما إلهكم هذا، فإني أرثي لكنّ إذ تمنحنه

إيمانكن وطاقتكنّ! على كل حال، أنتنّ تعيسات حقاً، لأنكن إن حدّقتن في الأشياء بصدق، فمن تراكنّ تعبدنَ أيتها الساذجات؟ إنه إله ظالم، عابث، قاس، إله يحمل السوط ويضرب بالحري المؤمنين به. فأنا مشفق عليكنّ أيتها السيدات، عندما أراكن خاضعات على هذا النحو إلى هذا الإله الذي يترل بكن القهر!"

فجأة صرخت فيه "سابين":

– اخرس! آمرك أن تخرس! يكفي! إنك تجدّف يا رجل... أنا أخاف عليك. اخرس، ولنسكت جميعاً لحظة. دعونا نهدأ!

أحنى الرجل رأسه، ولكنه احتفظ بملامح الاحتقار على وجهه!

أما نحن الثلاث اللواتي شاهدنا غضبه، فقد كنا نسأل الله أن يمنّ عليه بالغفران.

وبعد لحظات قليلة، نهض واستأذن بالذهاب.

فمدّت له "سابين" يدها مصافحة، وهي تبتسم بهدوء، وأكدت له أن بيتها مفتوح له في كل لحظة. فأجابها:

_ أرجوكنّ المعذرة. فقد أحرجتكنّ، أنا أعرف أني عنيف، وأن أعصابي تلِفة. أعيش في اضطراب دائم، وأنا أبحث عن طريقي في بداية حياتي الجديدة.

فسألته: "أليس" في خفر:

– حياة جديدة، بروح قديمة؟

وهمست له "سابين" بسرعة، وهو يهم بمغادرة البيت:

– ومع ذلك، فالله موجود، وهو يحبك. وبفضله، استعدت أنت حريتك، وأنقذت من السجن، وهو ينتظر توبتك، ليهبك سلامه!

خرج الرجل في الليل، وفي عينيه وميض غريب...

فسألتُ "سابين":

– "سابين"، من هو هذا الرجل الغريب الذي زارك الآن؟

– يدعى "غريغوار انتروبوفيتش". هذا كل ما أعرفه.

– لم أسمع قط بهذا الاسم.

– أعتقد أنه غير روماني. ص(53)

* * * * *

في زنزانتي، مضى اليوم بطيئاً. وبين حين وآخر، كان يخترق صمت الزنزانة الشبيه بصمت القبور، صدى أجراس الكنيسة من بعيد، وأصوات أطفال يلعبون في إحدى المدارس. وكذلك ضجيج السيارات القليلة...

وانتابني على حين فجأة دوار، وإحساس بالمرض شبيه بحالة التسمّم. وتسمّرت قدماي دون القدرة على الحركة، وظللت واقفة وسط الزنزانة في جمود تام. وعلى الفور، أطلق حارسي من كوة الزنزانة صفيراً، وهو يقول:

– تحركي! تحركي!

للأسف، لم أستطع أن آتي بحركة، ما من شيء فيّ بات يخضع لإرادتي. والهدير يدوّي في رأسي. كانت يداي ترتجفان، وهما في ارتخاء تام، وهمس الحارس ثلاث مرات:

– تحركي! تحركي! تحركي!

دخل الحارس الزنزانة، ووقف بجانبي. هزّني، وحاول عبثاً إبعادي من المكان الذي كنت فيه. فخرج ليجلب سطل ماء.

وبذلت جهوداً جبارة... وتحركت... خطوة أولى، فثانية، فثالثة... ثم عدت إلى الجدار، ومن ثم إلى الباب... كان الحارس في الممر... "أحسست" وطأة عينه الشريرة من خلال كوة الباب. ولكن ثقلاً هائلاً سمّر من جديد قدميّ. لم أعد أدرك إن كنت أمشي، أو إن كنت واقفة مكاني. فقلت في قلبي:

"يا رب، أعطني اليقين بأنك تسمع صلاتي. اجعلني أدرك أنك تسمعني... أنك حاضر معي!

كنت بجوار الجدار، فأسندت عليه جبيني. برودة الجدار لذيذة، وقد أنعشتني على الفور.

همس الحارس من جديد:

– تحركي!

فتحركت نحو الباب.

وعند عودتي إلى الجدار، أسندت جبيني إلى الجدار الأبيض، فغمرتني على الفور موجة من النور والسعادة. وأخذت عيناي الضائعتان من الوهن، تريان بوضوح، على الجدار بالذات، تحت جبيني الذي كان يمتص برودته، أحرفاً وكلمات محفورة عليه، هي:

"أيها الرب، أنت وحدك تعطيني القوة!

أنت وحدك تستطيع أن تنقذني من هنا!"

وعندما استعدت وعيي التام، تابعت "نزهتي"، وإن بشيء من الجهد الجسدي، إلا أني كنت في منتهى السعادة، إذ استطعت أن أقرأ، لأول مرة منذ اعتقالي، كلمات صلاة كهذه.

واشتدت قواي عندما جاؤوني بالحساء (الشوربة)، وسمح لي بأن أتناولها وأنا جالسة. وعندما انتهيت من تناول طعامي، وثبت نحو الجدار لأرى عليه من جديد تلك الكلمات الغالية. أجل، كانت هنا، محفورة بلباقة. ولكن دهشتي كانت عظيمة عندما لمحت عند أسفل هذه الأسطر الرائعة، توقيعاً، وكان توقيع... "غريغوار انتروبوفيتش"

* * * * *

بعد سنوات من إطلاق سراحي، حاولت أن أتقصى أخبار "غريغوار انتروبوفيتش". وعلمت أنه قتل خلال معركة نشبت بين الشرطة الشيوعية وبعض رجال المقاومة.

أتراه تسلق الجبال، ليبحث عن الله الذي حرره، استجابة لصلواته، أم ليقاوم باسم البغض الذي كان يتأكله؟

الله وحده العليم... (ص 58)

هذا اليوم، لازمتني صورة "غريغوار انتربوفيتش" طويلاً، وكذلك، الشتائم التي أطلقها المحقّقون في وجهي، حيال السماء.

كنت أحس بإشفاق لا حدّ له، حيالهم، لأن روح كل واحد منهم، كانت إلى هلاك. وكنت أحاول الصلاة من أجلهم. ولكن قدرتي على الصلاة كانت دون السابق. فقد كنت عرضة لنفاد صبر واضطراب لم أعهدهما قط في ما سبق. ثم دخلت في غيبوبة كاملة. ولما استعدت وعيي، كان هناك رجل بلباس أبيض، يمرّر تحت أنفي قطعة من القطن، مشبعة بالأثير. كان هو طبيب السجن. وقد قال لي عندما عدت إلى كامل وعيي.

"سوف يتحسن وضعك. وسأسأل لك البقاء في السرير حتى يتحسن وضعك. وسأسأل لك أيضاً المزيد من الغذاء، لأنك بالغة الوهن".

تمتمت:

شكراً.

في ذاك المساء، لم أُدعَ للتحقيق، وكان الطعام أوفر من المعتاد. وفضلاً عن الشوربة الكثيفة، الممزوجة بقطع من البطاطا، تلقّيت أيضاً مطبوخاً من الخوخ. ولكني كنت من الإعياء، بحيث أني لم أستطع أن آكل. فحمل لي

الحارس الطعام إلى الزنزانة. ولكني، في المساء، كنت عاجزة عن النهوض من سريري. وعندما عاد ليأخذ صحن الشوربة وكاس الخوخ، قال لي:

– لماذا لا تأكلين؟ أتريدين أن أشي بك إلى الإدارة؟

قلت:

– لا أستطيع أن آكل. إعيائي يمنعني.

قلت بهدوء:

– يستحيل عليّ ذلك الآن. ولكن دع كأس الخوخ إلى الغد، فقد أستطيع أن أبلعها.

قال:

– تبلعينها؟ ولكن للخوخ نواة صلبة. ألا تعرفين ذلك؟

وخرج تاركاً الكأس على الطاولة.

مضت الليلة دون أن أشعر بأي شيء... ولم أستطع أن أنفذ من "برنامج" النزهة في الزنزانة، إلا بضع خطوات... كانت قدماي منتفختين، فاستحال علي أن أنتعل حذائي. وكنت أسير منذ أيام، حافية القدمين.

في الفطور، قدم لي بعض الحليب، مزيداً من الخبز، فأكلته، ناسية كأس الخوخ الموضوعة على الطاولة الصغيرة. ولا بد لي من الاعتراف بأن الحليب حُمِل إليّ وأنا في السرير.

وقلت بعفوية:

– يا رب، أشكر لك هذه الاستراحة.

وشعرتني على شيء من القوة، وراغبة في النهوض. فاقتربت من الطاولة، وأكلت مطبوخ الخوخ، أي شربت عصيره، وتركت الخوخات في أسفل الكأس. ثم حاولت أن أخطو بضع خطوات، لأني كنت مخدّرة بالكلية.

ونظرت من جديد، بالقرب من المدفأة. إلى صلاة "غريغوار". لكم أفادتني هذه الكلمات المنقوشة على الجدار! ترى، إن كانت أفادتني، هل الذين تعاقبوا من بعده في الزنزانة، لم يستفيدوا هم أيضاً روحياً، من هذه الأسطر القليلة؟

عندها، خطر ببالي أن أحفر بدوري على الجدار، كلمات من الكتاب المقدس، صلوات ومزامير...

أكتب... ولكن بماذا؟

إن أنا فعلت، دون أن أكون على اتصال مباشر مع زملائي في السجن والآلام، أوفّر فرحاً لآخرين سيحلّون محلّي في زنزانتي، بعد أن أكون غادرتها، ستقدم لهم عزاء ما...

ولكن بماذا أكتب؟

فتح الحارس الباب، ودخل مع الطبيب الذي سألني:

– كيف حالك؟

أجبته:

– أشعر بشيء من الخدر، والتشنجات تستبد بقدمي مع أنهما مخدّرتان.

– لماذا لا تظلين هادئة في سريرك، طالما أنك في فترة "رضى"؟

– أشعر بالحاجة إلى السير لأنشّط قدميّ، ولا يسعني أن أظلّ مضطجعة في السرير، لأن الألم يتحكم بجسمي كله.

– لماذا لم تأكلي الخوخات؟

– شكراً. سآكلها الآن.

– سأرسل لك بعض الأدوية، كي تستعيدي نشاطك بسرعة أكبر.

– أجل، "بسرعة أكبر"، لأن المحقّقين بحاجة إليّ...

– اسمعي. لا داعي للنقاش معي. مهمتي تقوم على معالجتك فقط. أمامك 48 ساعة من الراحة، تعقّلي واستغلّي الفرصة. وها قد مضى 12 ساعة عليها.

بعد ذهاب الطبيب والحارس، باشرت بأكل الخوخات المهمات. أقول "المهمّات"، لأنهما كانا يعتبرانها بالغة الأهمية، وهذا برهان على ندرة هذه المادة في مثل هذا السجن، ثم لأني اكتشفت أني، إن أكلتها بسرعة، كما في مسابقة، أستطيع أن أنفذ خطتي! ففي أسفل الكأس لم يتبقّ سوى النواة! إذن سأحاول أن أستخدم النواة "لأكتب" على الجدار!

كنت واثقة من أني سأغادر هذه الزنزانة ذات يوم. سوف أنقل إلى سجن آخر، أو قد أقتل... ولكني قبل ذلك سأسعى لتقديم خدمة لأحد ما... وها إن كل شيء قد بات جاهزاً كي أسلّح روحياً خلفائي في هذه الزنزانة.

اخترت إذن بدقة النواة الحادّة أكثر من سواها، وأخفيتها تحت الوسادة حتى تجف. ثم اضطجعت في السرير حتى يعاد الطعام. ثم جيء لي ببعض الأدوية، فتجرّعتها تحت عيني حارسي. ثم اضطجعت لأحصل على فترة راحة، كنت بأمس الحاجة إليها.

كنت أتحرّق لبدء عملي، ولكن ذلك كان مستحيلاً، لأني كنت مرغمة على ممارسة امتياز البقاء في السرير.

إلا أن أغرب ما حدث لي، هو أني، على الرغم من إعيائي التام، ورغبتي المزمنة في البقاء في السرير، كنت، إذ أفكر بالعمل المرتقب، أحس بقواي تتضاعف وتدفعني للقيام بالمهمة.

ولكن ذلك كان غير ذي جدوى، وبعيداً عن كل حكمة. وأمضيت ساعات الراحة هذه في الصلاة، ولا شيء سوى الصلاة.

بعد أسابيع طويلة من السهر، والمناورات والاضطراب، والتعذيب

والتحقيقات تحت أضواء كاشفة تعمي العين، وبعد الشتائم واللعنات والتهديدات، وانعدام الراحة، أي بعد فترة متلاحقة من أيام حفلت بعذاب الجسد والروح، حقّ لي أخيراً أن أستريح!

والمجهود الوحيد الذي أجزته لنفسي، كان "سَنّ" نواة الخوخ على حديد السرير، بحيث أبرزت الرأس الحاد، كي لا يسقط الكلس عن الجدار، وأنا أنقش الكلمات عليه. وفعلت ذلك كلما كان الحارس يغلق كوة الباب، إلى أن أسمع خطواته تقترب من الباب من جديد. فإن السمع يزداد إرهافاً في الوحدة، وكنت ألتقط أدق حركة، عبر صمت الممرّ المخيف.

بعد ليلتين من "الراحة"، تجدّد التحقيق. وكنت، كلما عدت في الصباح، إلى زنزانتي، مع سائر السجناء، وبعد سماعنا شكاوى لا نهاية لها، من شأنها أن تمسّ حتى قلب الحيوان، كنت أعود إلى عقاب الترهة في الزنزانة. وقد أشبعني المحقّقون إهانات، عندما لاحظوا أني مازلت، بعد فترة الراحة التي منحوني إياها، متمسكة بموقفي الصلب.

وبدأت "عملي"، دون أن أفكر بالآلام الهائلة التي سيسبّبها لي. كانت قدماي وجسدي كله، عرضة للآلام، وكان رأسي في غليان بعد ساعات التحقيق.

كتبت على الجدار، بجانب كتابة "غريغوار انتروبوفيتش":

"إن الله يسمع صلاة الجريء"

وأضفت بعد مسافة قصيرة:

"إن البراءة تتحقق بالتوبة،

إذ يعترف الإنسان، من أعماق قلبه،

بجميع خطاياه الماضية".

وهكذا بدأت أختار الآيات، وكانت كلها في غاية الجمال، بعضها من

المزامير، وبعضها صلوات لقدّيسين، وخواطر مختصرة، ونصائح تساعد على الاقتراب الرائع من يسوع.

كنت أكتب باندفاع وصدق إنسان عرف جميع مراحل البحث عن الله، والخضوع له.

وكنت أجرؤ وأرجو أن تتغلغل هذه الكلمات إلى أعماق قلب من سيأتون ذات يوم، إلى هذه الزنزانة، ليعيشوا فيها – كما حدث لي – فترات مرعبة، وقد تكون أقسى فترات عمري. ذلك بأنه لا حدود للشر، لا سيما إذا جاءنا من قبل ملحدين مناضلين.

ولكن لم يكن بوسعي أن أبالغ في اختيار النصوص، ولذلك تحرّيت أهم النصوص التي أعرف.

استخدمت الجدار المقابل لسريري. ولكني لم أهمل الجدار القريب من السرير. ولقد كتبت عليه المزمور (91) بكامله، بالإضافة إلى الآية التي كانت ماتزال تهبني شجاعة:

"الله معي، فلا أخاف شيئاً.
ما الذي يستطيع البشر أن يفعلوه بي؟"
ما الذي كان يحدث في أعماقي طوال هذه المدة؟
بالطبع، هذا "العمل" لم ينته في يوم واحد، ولكنه أستغرق أياماً كثيرة.
وازداد عدد المحقّقين، فانتقل من ثلاثة إلى أحد عشر. بالطبع، لم يأتوا دفعة واحدة، ولكن ثلاثاً ثلاثاً.
وكان ينضم إليهم أحياناً "معلم"، كنت أعرفه من خلال ما كانوا يبدون نحوه من احترام خاص، الذين كانوا يتحدثون معي.

وقد يبدو غريباً، لا سيما في نظر الذين لا يؤمنون بالعجائب التي يجريها الله مع من يثقون به، أن التحقيق فقد كثافته منذ اليوم الذي رأيت فيه أن أتوقف عن الكتابة على الجدران.

ثم إني سعيدة بالعمل المنجز، وما عدت أشعر بالحاجة لمواصلته.

وفي اللحظة التي توقفت فيها كلياً عن الكتابة، أخذ التحقيق يتباطأ.

كنت أدعى بانتظام، في الساعة العاشرة ليلاً، ولكن لم يكن غيابي ليطول أكثر من ساعتين أو ثلاث، وكنت عند عودتي إلى الزنزانة، أستطيع أن أنام حتى الصباح. وخلال النهار، كان يسمح لي بالسير أو بالبقاء جالسة على حافة السرير. ولكن كان محظوراً علي أن أستلقي في السرير. ولكني كنت أعتبر حتى ذلك، عطية رائعة من السماء. أقول من السماء، لأني، قبل تلك الهدنة، كنت قد تقبّلت من السماء بالذات، عذابات أيام لا تنتهي. فقد كنت أرى في إدارة السجن وفي المحقّقين، وفي الحراس، كما أرى في وزراء وألوية جهاز الأمن، مجرّد ممثّلين في مسرحية، كان يسوع يقوم فيها بالدور الرئيسي، بحثاً عن الخراف الضالة.

لن أنسى أبداً الزنزانة رقم (24)، التي احتضنتني يوم اعتقالي، والتي أمضيت فيها ثلاثة أشهر. كانت ثلاثة أشهر أمضيتها مع الله، في أفراح انتزعت مني الدموع، وفي آلام تقبلتها بطيب الخاطر.

(تابع ص212–222)

9) "دوغلاس هايد" (Douglas HYDE)

هو بريطاني الجنسية. ولد عام 1911. التحق بالحزب الشيوعي حتى عام 1948، وطوال فترة الحرب، وحتى عام 1948، كان رئيس

تحرير مجلة الحزب الشيوعي في لندن، "الديلي وركر". وفي عام 1945، أعلن انسحابه مع زوجته من الحزب الشيوعي. وبعد سنوات صدر له كتاب بعنوان "آمنت"، وقد ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان: "كنت شيوعياً". وهو في هذا الكتاب، يشرح انتقاله من الشيوعية إلى المسيحية. اخترت منه الفصل الثامن عشر، الذي يصف فيه انتقاله هذا، الطويل والمضني، من الشيوعية إلى المسيحية. وقد ترجمته عن الفرنسية.

« XVIII

بعد الحرب العالمية الثانية، تركزت أنظار شيوعيي العالم على أوروبا الشرقية، حيث كانت تنصهر الديمقراطيات الجديدة. هذه الديمقراطيات كانت قد تأسست بفضل الجيوش الحمراء المحرّرة، وليس إثر حرب أهلية، كما كان قد تنبأ ماركس وانجلس ولينين.

لذلك كان لا بد من نظريات جديدة تُبسَط في الدروس التي نظّمها الحزب.

كان من الخطأ الادعاء بأن الشيوعية حلّت في الديمقراطيات الجديدة دون أعمال العنف، التي كان قد تنبأ عنها فلاسفة الحزب. والحقيقة أن هذا العنف اتخذ له مظاهر جديدة. فالحرب كانت قد أعلنت ضد أسوار رجعية عرفها العالم حتى اليوم. هذه الرجعية كانت قد جذبت إليها أسوأ الرجعيين في كل بلد احتلّه النازيّون. ولذلك كان لا بد بعد الحرب، من عملية تطهير مُحكَمة، تشمل كل من اتهم بالتعامل مع النازيين. وبذلك تم القضاء على العناصر التي كان لا بد من إبادتها في حال نشوب حرب أهلية. ولقد تم القضاء عليها باسم الشرعية، ووفق النظم الديمقراطية، ودون حرب أهلية.

في الديمقراطيات الجديدة، اتضح أن كبار الصناعيين كانوا عملاء للنازيين. وكذلك كبار المزارعين. فكان لا بد من القضاء عليهم. وهكذا كان. ووُزّعت أراضيهم على العمال والفلاحين، تماماً كما يحدث إبان حرب أهلية.

(ص101–102)

إن مراسلنا الذي زار المجر (هنغاريا)، أشار بقوة إلى مشكلة خاصة كان الحزب يعاني منها. صحيح أن الحزب كان سيد الحكم. ولكن سكان المجر في غالبيتهم كاثوليكيون. وكانوا يبدون معارضة قوية. فكان لا بد من التغلب على معارضة الفلاحين. والحصول على تأييد الشعب، بغية الحصول على تأييد الغالبية، وعزل الزعماء الكاثوليكيين.

ولقد وصف لنا مراسلنا الأساليب التي يتّبعها الحزب.

دلّت التحقيقات التي أجراها في الريف المناضلون الشيوعيون، على أن الفلاحين كانوا تحت سيطرة التدجيل الكاثوليكي، بحث أنهم، ما سئلوا عما يرغبون في تحقيقه قبل أي شيء آخر، أجابوا:

ترميم الكنائس!

وضبط الزعماء الشيوعيون أعصابهم... إن كانت تلك أماني الفلاحين، فلسوف تحقق على أكمل وجه! وتطوع المناضلون الشيوعيون، على إلحادهم الجذري، للعمل على ترميم الكنائس. فكانوا كل أسبوع يغادرون المدن شطر الريف، حيث كانوا يقضون جميع ساعات فراغهم.

وكان "راكوزي"، زعيم الحزب، يأتي بنفسه، كلما تم ترميم إحدى الكنائس، ويلقي في الفلاحين كلمة، يبين لهم فيها أن الشيوعية وحدها قدّمت لكنائسهم الخَربة بعض المساعدات. فكانوا غالباً ما يكلّلون "راكوزي" بأكاليل الورد، وهم يعلنون أنهم كانوا ضحية خداع الكهنة! فلقد كان هؤلاء

يدّعون أن الشيوعيين أعداء الكنيسة، وأنهم لن يتورعوا عن سحق الكنيسة، لو كان يتسنى لهم ذلك. فكان الضحك الساخر خير جواب على هذه الادعاءات.

هذه الخطة كانت شبيهة بتلك التي كنت قد طبقتها أنا، لسنوات خلت، يوم أعلنتُ، بغية تضليل المسيحيين، أن الشيوعية والمسيحية توأمان.

ولكني الآن، ما عدت واثقاً من تأييدي لهذه الخطة. فلقد ظهرت فيّ، منذ ذلك الحين، شخصيتان متباينتان. فكانت الواحدة تتغلب أحياناً على الأخرى. ولكن غالباً ما كانت السيطرة للشيوعية.

وكانت الشكوك والمخاوف والتساؤلات، تمدّ صحتي هدّاً. ومع ذلك ما كان يخيّل إليّ أنه باستطاعتي أن أكون إلا شيوعياً. وكنت دوماً، بعد تعرضي لهزّات عنيفة من الشكوك حول قضية معينة من سياسة الحزب، أدافع بعنف عن الحزب، خاصة عندما كان المهاجم رجلاً غير شيوعي.

وكان هزالي آخذاً بالازدياد، حتى خشي علي الطبيب الخاص، من السلّ، بسبب سعال مزمن ما أتى عليه علاج.

وكنت على علم بعالم المشافي والمصحات، فما شعرت بأني أنشرح لهذا النبأ، وتلقيته ببلادة عجيبة.

أما حبّي القديم للحياة، أما رغبتي في النضال حتى الثورة، أما أملي العنيد بحدوث الهزّات السياسية، أما تطلعي العميق إلى العيش في إشراقة يوم تطلع فيه شمس الشيوعية على انجلترا، أما كل ذلك، فكان قد تبخّر.

وذهبت إلى المستشفى، وأنا أشبه شيء بالأبله المستسلم للقدر.

إن ما أشاهده من آلام في عيون هؤلاء المرضى، ليرعبني... ولقد كنت، طيلة السنوات الأولى لإيماني بالشيوعية، كلما وجدتني أمام ألم ما، سواء كان

المتألم إنساناً أم حيواناً، أجدني على وشك الإيمان بأن هناك كائناً شيطانياً يسيّر هذا الكون.

والآن أيضاً، فما أن ألقي نظري على هؤلاء المرضى، حتى أسائل نفسي كيف يؤمن الناس بوجود إله رحيم!

وبعد انتظار ثلاث ساعات ونصف، عاينني الطبيب. ولقد أجرى لي الفحوص على الأشعة، طبيب أخصائي. وبعد بضعة أيام، تلقّيت النتيجة التالية:

"هذا الرجل، على خلوّه من أي إصابة، يخطو نحو التهلكة، إذا لم يخلد إلى الراحة. فهو دون شك يعيش في حالة توتر عظيم. وقد يكون ذلك بسبب عمله".

فقررت أخيراً اللجنة التنفيذية للصحيفة، أن تعيّن لي مساعداً. وأخذت أعمل بدل الاثنتي عشرة ساعة كل يوم، تسع ساعات فقط!

كان الطبيب قد أشار علي باستنشاق الهواء النقي. فاستأجرت حديقة صغيرة، مكسوة بالأعشاب والأشواك. وكان عملي ينتهي في تمام السادسة مساء. فأخذت أقضي كل يوم بضع ساعات في العمل بالحديقة. وكان هذا العمل يولّد فيّ شعوراً بالسعادة، كنت قد فقدته منذ نهاية الحرب. (نحن في سنة **1946**).

وطُلب إليّ يوماً أن ألقي سلسلة من الدروس حول المبادئ الماركسية. وعلّلت النفس بالأمل في استعادة إيماني الراسخ، السابق، بالشيوعية، وإشعال الجذوة السابقة. وبدأت أحرّر الدروس. فلاحظت أني أعلّم دون اقتناع. فخالفت توجيهات الطبيب، وألقيت المحاضرات بنفسي، أدافع عن الشيوعية بعنف، وأهاجم أعداءها بعنف أكبر. ولكن الشعلة الأولى أبت إلا أن تظل

خابية. فكنت أعود إلى كتبي حول القرون الوسطى، وإلى كاتبي المفضل "شوسر" (Chaucer)، فأطالع المؤلفات حول فن القرون الوسطى وآدابها، وأنا ناقم على انهزامي.

وفي الشتاء، توفرت لي ظروف للمطالعة أكثر مما تسنى لي طيلة سنوات وسنوات. إلا أن كتبي الماركسية، بقيت على الرف، ما لم أكن بحاجة إلى الاستشهاد منها بنص ما...

طيلة سنوات عديدة، كان لي ما يدبر حياتي ووجودي. ولكن إلى أين أذهب الآن؟

"إن المجلة الأسبوعية المسيحية"، قد بدأت في أعماقي عملية كان من شأنها أن هدمت جزءاً كبيراً من معتقداتي السابقة. ولكنها تركت فيّ فراغاً...

وكنت يوماً بعد يوم، أتعطّش إلى إيمان جديد، يكون على طرفي نقيض تقريباً، مع إيماني السابق. ولكن كان يبدو لي أنه من المستحيل أن يصبح هذا الإيمان إيماني.

وتابعت مطالعة الصحافة الكاثوليكية، بحثاً عن "قذارات" قلّما كنت أجدها. بل على العكس، كنت أجد فيها حلولاً كثيرة تتسم بمنطق قدسي، ولكنها لا تخلو من الكراهية للشيوعية.

XIX

اثنان معا على الطريق

ازددت شغفاً بمطالعة "المجلة الأسبوعية". وأخذت في الوقت نفسه، أقرأ صحيفة "Catholic Herald"، التي أعجبتني بموقفها من قضية القنبلة النووية، ومن الاستسلام دون قيد أو شرط في نهاية الحرب.

كنت كلّ مساء، أحمل بعض أعدادها إلى البيت، وأدعها هنا وهناك، أملاً

مني بأن تقرأها زوجتي "كارول" بدورها. وما كنت أجرؤ على الاعتراف لها بما كان يجري لإيماني بالشيوعية. فقد كانت قدّمت تضحيات كبيرة للحزب الشيوعي، وما كان لدي أي دليل على حدوث أي تغيير في تفكيرها. ولقد تخلت في سبيل الحزب عن حياة زاخرة بالرفاهية، ووقفت له كل وقتها وقوتها. وهي تعمل معي في صحيفة "الديلي وركر". وعندما شعرت أن إيماني بالشيوعية أخذ يتلاشى، تمنيت من كل قواي ألا يبتعد أحدنا عن الآخر، وإلا فإن أسرتنا صائرة إلى التفكك، إذا ما ظل أحدنا يبذل قصارى جهوده في خدمة الحزب، فيما الآخر يكون قد فقد إيمانه به. وكانت زوجتي حاملاً بولدنا الثاني، وكانت قد توقفت عن أي عمل في الصحيفة وعن أي نشاط حزبي، ولكن بصورة مؤقتة.

ذات يوم، كنت أقرأ "المجلة الأسبوعية"، ففوجئت بفكرة كانت من الوضوح بحيث بدت لي سخيفة، ولكنها كانت من التناقض مع كل ما سبق لي أن آمنت به زماناً طويلاً، وقد ألقت الشكوك على مجمل أفكاري تقريباً، منذ ذلك الحين.

منذ عشرين سنة، ثرت على التوزيع غير العادل للمال، وعلى الظلم الاجتماعي الذي كان ينتج عن ذلك. وكنت قد قلت في نفسي: "إن التوزيع غير العادل للملكية، يولّد ظلماً اجتماعياً فادحاً، إذن إن الملكية الخاصة فاسدة، ومن الضروري إلغاؤها".

ملايين الناس فكروا مثل هذا التفكير. ولقد أثّرت هذه المبادئ في أجيال كاملة.

وهاأنذا أصدم فجأة، وبعنف، بطابع هذا التفكير الخاطئ.

إن التوزيع السيئ للملكية، لا يعني بالضرورة أن الملكية فاسدة في ذاتها.

وإنما هذا يعني أكثر ما يعني، أن الفساد موجود في توزيع الأموال، وأنه لا بد من البحث عن طريقة توزّع بها الأموال، أكثر عدلاً على مجموع السكان. وإذن ما يجب أن يقال، هو هذا:

"إن التوزيع غير العادل للأموال، يولّد ظلماً فادحاً، إذن يجب أن توزّع الملكيّة، توزيعاً أعدل".

حتى ذلك اليوم، كنت أعتبر من البديهيات الأولية، أن كل الذين يثورون على الظلم، يجب عليهم أن يلتفتوا ناحية الشيوعية، ليجدوا الحل الموافق. وإذن، فإن كل من كان يقاوم الشيوعية، يريد أن يبقي على الظلم واللامساواة، مهما كان الثمن. وما كنت قد فكرت يوماً أنه من الممكن وجود حلول غير شيوعية لهذه المشكلة.

فإذا كانت إحدى القضايا الجوهرية في الشيوعية، مرتبطة بمنطق على هذه الحال من الضعف والبتر، كيف يحق لي بالتالي أن أسلّم بنتائج هذا المنطق، وكأنها آيات منزلات: الفلسفة الماركسية، البرنامج السياسي، أسلوب العمل، ونظم الحياة؟

لقد انفتح فكري أخيراً، انفتاحاً كلياً على أفكار هي والأفكار الماركسية، على طرفي نقيض.

كنت قد حصلت على أكبر عدد ممكن من مؤلفات "تشيسترتون" (Chesterton) و"بلّوك" (Belloc)...

(وأخذ يطالع بنهم كتباً لمؤلفين مسيحيين... وبعد إذ يعترف بتأثره البالغ بالفكر المسيحي... يصل إلى هذا الاعتراف):

يقيني الداخلي بانفصالي عن الشيوعية، ويمدّ يدي نحو المسيحية، وبعثوري على الفراغ، هذا اليقين كان مؤلماً جداً. ففي المسيحية أمور كثيرة كنت

أرحب بها. ولكن الأمور التي كنت أرفضها كانت أكثر منها. فالفن والثقافة ونظام الحياة، وما كنت أعرف عن فلسفة المسيحية، كل ذلك كان يجتذبني إليها. ولكن فكري كان يصطدم أبداً بأساسها الإلهي (الإيمان بالله وبالمسيح!)

ومرة أخرى، أخذت صحتي تتحايل عليّ. وبدأت أنهار، ففقدت النوم، واعتقد طبيبي الخاص أني مصاب في القلب. وبعد المعاينة أكد لي أن الدلائل تشير إلى أني مصاب بالذبحة الصدرية. وأمرني بالتوقف فوراً، عن كل عمل...

وما أن عدت إلى البيت، حتى فتحت أحد الكتب الطبية، فعرفت:

1. أن هذا المرض لا شفاء منه.
2. أن المصاب به، معرض دائماً لأزمات تزداد كثرة وشدة، حتى تقضي إحداها عليه. إذن شمعتي سوف تنطفئ قريباً. أنزلوا الستار. انتهت المهزلة.

وعدت إلى حديقتي، وأنا أتحاشى أي تعب، كما كان يليق بإنسان مصاب بالقلب، فالمستقبل قاتم، وكنت أتساءل ما إذا كان بإمكاني أن أعود إلى عملي، حتى بعد راحة طويلة.

ومرّ شهر، حاولت خلاله أن أكيّف نفسي مع وضعي الجديد. ثم قصدت أحد المستشفيات، المختصة بأمراض القلب.

ولما غادرت المستشفى، كنت أعلم أني لست مصاباً في القلب... "هذا الإنسان مصاب بتوتر كبير". كذا حكم الطبيب.

فعدت إلى الصحيفة، وإلى عملي السابق.

كنت قد قضيت أشهراً طويلة، والنوم بعيد عني، فأُعطيت بعض المنشّطات لأقوى على الصمود. وكانت الحياة في إدارة الصحيفة، هي هي لم تتغير.

وقرأت كتاب "الإيمان المسيحي"، للكاتب "رونالد كنوت" (Ronald KNOT)، فوجدتني على الصعيد الفكري، على اتفاق تام معه. ولكن الكتاب لم يستطع إقناعي بوجود الله. وكان الإيمان به قد مات منذ زمان طويل. فلم يتحرك أي شيء في أعماقي.

وفي إحدى الأمسيات، كانت إذاعة لندن تبثّ نشرة الأخبار. لا جديد. مرة أخرى، كانت الإذاعة تتحدث عن بعض الخلافات داخل الأمم المتحدة.

وكنت على وشك إسكات الراديو، عندما انفجرت زوجتي "كارول" فجأة، وهي تقول بصوت غاضب:

"ما عدت أطيق "مولوتوف" (Molotov). إنه يقول دوماً: لا! لا! لا! ثم إن سياسة روسيا، منذ نهاية الحرب العالمية، تزيدني قرفاً على نحو متفاقم!"

كان مثلها كمثل قدّيس يعقّب على إذاعة قدّاس، بدفقة من التجديفات القذرة. فالتفت إليها غاضباً، وصرخت في وجهها:

– هذا جميل! زوجة زعيم شيوعي!

فأجابت بلهجة التحدي:

– وما يهم؟ قلت ما قلت! وأنا على استعداد لأن أكرره لك، إن طاب لك ذلك.

وواصلت كلامها، وهي تستنكر كل ما جرى في أوروبا الشرقية منذ انتهاء الحرب العالمية، وتؤكد أن روسيا ستطلق قريباً شرارة الحرب العالمية الثالثة. ثم انفجرت ضد المسؤولين في الحزب الشيوعي الانجليزي. وبدأت أتجاوز تأثير الصدمة الأولى، فيما كان قلبي ينبض بعنف. ثم قلت لها مؤنّباً بلهجة على شيء من الجدية:

– إنك تتكلمين كمجلة "Universe"* (العالم)! ماذا تريدين إذن عمله؟ هل تريدين أن تصبحي مسيحية، أم ماذا؟

واشتدت ضربات قلبي عنفاً، عندما أجابتني بلهجة واثقة:

– لكم أتمنى ذلك!

وللمرة الأولى منذ بضعة أشهر، صارح كل منا الآخر، بالحقيقة الكاملة. وحدّثتها عن الطريق الطويلة التي قطعتها. وبيّنت لها كيف وعيت أن ثقافة القرون الوسطى لم تمت بموت نظام الإقطاع! وأنه مازالت هناك ثقافة مسيحية حية. وكيف أني كرهت البغض وحرب الطبقات. واليوم، كثيرون هم على أتم الاستعداد لتقبل رسالة الحب والسلام.

(منذ بداية حياتنا الزوجية، ما تفوهت أمامها بكلمة حب إلا بمعناها الجسدي. لذلك كان لهذه الكلمة، وأنا ألفظها، صدى غريب في نفسي).

وحدثتها عن قناعتي بأن الشيوعية دلّلت بتطبيقها على خطئها، وأن التعاليم المسيحية القديمة، تتجلى على حقّ مائة بالمائة. فإن الكاتبين "تشيسترتون" و"بلّوك"، والمجلة الأسبوعية، أقنعوني بأن الكاثوليكيين على حق أصلاً، وأننا نحن على خطأ. فالبراهين الخمسة لوجود الله، التي يقدّمها القديس توما الاكويني، قوية ولا مردّ لها. ولكن كان لا بد لي من الاعتراف بأنها، وإن استولت على منطقي وجرّته إليها، لم تستطع أن تحوّل الله في نظري وبالنسبة إلي، إلى كائن حي. كنت أستطيع الإقرار بوجوده فعلياً، ليس إلا...

ثم تكلمت كارول. منذ فترة غير قصيرة، وهي تتمنى في سرّها، ألا ندع ابنتنا "روفينا" تنشأ في بيت شيوعي. فقد كانت "روفينا" جميلة، وإذا ما سلّمنا فرضاً بأنها ستصبح فتاة جميلة، ماذا سيحدث لها إذا هي لم تهتدِ إلا

* مجلة انكليزية مسيحية

بهدي مبادئ "انجلز" عن الأسرة؟ بكل بساطة، إنها ستنتقل من رجـــل إلى آخر".

"كارول" كانت قد قرأت المجلات المسيحية، التي كنت أخلفها ورائي في البيت. فاستمدّت منها لوحة لحياة العائلة، تختلف اختلاف النقيض للنقيض، عن المفهوم الشيوعي للعائلة...

وفيما هي تتكلم، كنت أعود بالذاكرة إلى السنوات الماضية.

كنت مؤمناً بالأخلاق الشيوعية، وكنت أطبقها دوماً. كثيرون من أصدقائي تمكنوا من تكوين مفهوم عن الحب، يدانيهم من البهائم... أما تجاربي الخاصة، فقد بيّنت لي أن السعادة ونشوة الحياة مفقودتان هنا.

وكنا، أنا وكارول، على اتفاق للاعتراف بأن الماركسيين مخطئون، سواء انتهينا إلى هذا الحكم، على ضوء تجاربنا الشخصية، أو على وضع واقع عائلات أصدقائنا المفككة.

أما الكنيسة المسيحية، فإنها تقف شامخة صامدة كالصخر، ولا تواطؤ فيها. لكم كانت على حق!

واعترفت كارول بدورها أنها، على إيمانها بصحة المسيحية، تعجز مثلي عن الإيمان بالله. وقررنا معاً، وسط الابتسام المازح، أن نسمي أنفسنا "مسيحيَّين لا يؤمنان بالله!"

وظللنا على هذه الحال طوال أشهر كثيرة، نتلقن الفكر المسيحي في كتب نلتهمها بحماس، ونتلمس تطبيقه من خلال الصحف المسيحية.

ولكن، بعد كل هذا، كان يستحيل علينا الإيمان بالله.

* * * * *

تأثرت حتى أعماقي للإعدامات التي نزلت بأعداء الحزب في أوروبا الشرقية، وبالمواكب المحزنة، المؤلفة من المنفيين عن أوطانهم...

أما استهتار أصدقائي الشيوعيين، فقد كان يستثير غضبي، بعد أن مارسته بنفسي سنوات طويلة. ذلك بأني أخذت أفكر في الناس كأفراد، وأفكر بمصير كل واحد منهم، وليس كجماهير مبهمة، لا شخصية، ولا من خلال الحلول السياسية التي كنت أعتبرها إلى اليوم خيرهم الأسمى.

وقد حدث هذا الانقلاب في تفكيري، على نحو خاص، في أيلول من عام **1946**، عندما اعتقلت سلطات "تيتو" المطران "ستيبيناك" (Stepinac)، وأحالته إلى القضاء. فقد كنت أعلم، تماماً كما يعلم جميع الشيوعيين، أنه لم يحاكم لأنه مجرم حرب، أو لأنه عضو في حركة مناوئة لحكم "تيتو"، بل بسبب إيمانه. كان يحاكم لأنه كاثوليكي. وإن سلوكه في المحكمة، ورفضه مناقشة التهم الملصقة به، وتأكيده الجريء لما كان يعتقد أنه الحق، كل ذلك ترك فيّ تأثيراً خارقاً...

في مكتب الصحيفة، كان الجميع يتلقون الأنباء عن المطران "ستيبناك" بسخرية لاذعة. وكانوا كلهم على يقين من أنه سوف يقتل، إما رمياً بالرصاص، وإما شنقاً. وكان مراسلونا يتذوقون مسبقاً، وبلذة فائقة، كما كنت أفعل أنا أيضاً قبل سنوات، إعدام أمير من أمراء الكنيسة. وعندما حكم عليه بالأشغال الشاقة ستة عشر عاماً، أصيب الجميع بخيبة عميقة، ولكنها سرعان ما تبدّدت بسبب ما قدّم لنا من تفسيرات سياسية. فالوقت لم يكن بعد قد حان لإعلان الهجوم العام على الكنيسة. وما كان هذا الوقت ببعيد، ففي صفوف الحزب، وفي الاجتماعات الفرعية، كان النقاش يدور حول الحرب المقبلة ضد الكنيسة، وكان الجميع يهلّلون لاحتمال نشوبها.

بعض أعضاء المكتب السياسي، الذين كانوا قد زاروا "تشيكوسلوفاكيا"، علموا أن الحرب ضد الكنيسة، سوف تعلن دون عناء كبير في المناطق التشيكية، نظراً لقوة الحزب فيها. ولكن المناطق السلوفاكية، كان الأساقفة والكهنة فيها يسيطرون سيطرة أعمق وأوسع على الكاثوليكيين. فكان لا بد من اتخاذ "إجراءات خاصة" ضدهم. وبلغ اللجنة التنفيذية في "الديلي وركر"، أن هذه "الإجراءات الخاصة"، سوف تتحقق عن طريق عمليّة مسلّحة. لقد كان من المتوقع أن يرتكب الفلاحون الكاثوليكيون، عاجلاً أو آجلاً، بعض أعمال العنف، فيفسّر أحدها على أنه بداية ثورة مسلحة ضد الحكم الشيوعي، فتطبق بحقهم وضدهم، إجراءات معاكسة صارمة، من شأنها أن تحقق التصفية الكاملة، الضرورية. فيخيم الإرهاب عليهم، ويعيدهم إلى السكينة.

ذلك كان المخطط.

لو لم أكن قد قرأت وفكّرت وفق الخط المسيحي، لكنت بكل تأكيد أيّدت هذا المخطط، ووافقت عليه. ولكني الآن أشعر بانزعاج كبير، كان يتحول إلى قرف، كلما كنت أستمع إلى جميع هذه التفسيرات.

لا! لم يطرأ أي تغيّر على الشيوعية. إنما أنا الذي تغيّرت. لقد بدأت أشعر أن تطبيق نظرياتنا ومخططاتنا، أخذ يصطدم بمعتقداتي الجديدة.

أجل، هذا ما حدث. فقد بدأت أحكم على الموقف الشيوعي وفق الأخلاق، لا وفق التكتيك، الأمر الذي يناقض الماركسية بالكلية.

ما كنت أعي تمام الوعي كل هذا التطور، ولكني كنت أزداد ميلاً إليه بشعوري. وكنت أراقب نفسي، كما لو كنت أتفرج بشغف أحياناً، وغالباً بدهشة، على تطوّري العقلي والروحي.

ما عاد يرضيني الآن الاعتقاد بأن الغاية تبرر الوسيلة.

فإن الشيوعي، ما إن يبدأ بالتمييز بين ما هو عدل وظلم، بين ما هو حق وباطل، وبين ما هو خير وشر، أقول إذن ما إن يبدأ بالتفكير وفق قيم روحية، حتى تتصدع جميع معتقداته الماركسية".

(في هذه الأثناء، أُثيرت، داخل صفوف الحزب، قضية تخفيض مستوى الحياة في أوروبا الغربية، كي يداني مستوى الحياة في أوروبا الشرقية، التي ما كان لها أن تنهض بسرعة نظراً لاقتصادها الذي يعتمد على الزراعة بنوع خاص... وبحثت الأحزاب الشيوعية إمكانية نسف اقتصاديات أوروبا الغربية. فكان من شأن هذا البحث أن صدّع مرة أخرى، آخر حصن من معتقدات الكاتب الماركسية. حتى كتب يقول في الصفحة 225):

"عندئذ قال ممثل المكتب السياسي للحزب:

"لن يكون بمقدورنا أن نرفع سريعاً مستوى حياة الديمقراطيات الجديدة، إذ إن اقتصادها يعتمد على الزراعة خاصة. ولكن هناك وسيلة أخرى من شأنها أن ترفع نسبياً هذا المستوى. وهذه الوسيلة ليست إلا تخفيض مستوى الحياة في البلدان الغربية. ولسوف يحقق الحزب بسرعة هذا الهدف". قلّما يحدّد هدف الحزب بمثل هذا الوضوح.

وعلى ضوء هذا التطور الجديد، بدت لي كلمات زميلي قاتمة. إن سياستنا الداخلية وحدها قد احتفظت بي وقتاً في صفوف الحزب. أما الآن، فكان يبدو لي أنها هي أيضاً صائرة بالضرورة إلى التلاشي.

* * * * *

XXI المأزق الشيوعي

كانت كل خيبة أمل تأتيني من سياسة الحزب، داخل انجلترا وخارجها، تدفعني إلى الالتفات بمزيد من الحماس، إلى كتبي الكاثوليكية، وإلى التفكير بنهم في المعضلات التي كانت تثيرها. فقد كنت أجد فيها دوماً قِيماً ثابتة، ومنطقاً يتحدى كل امتحان، وأخلاقية جذابة تنتزع التأييد انتزاعاً، ونظرة إلى الحياة كتب لها أن تنال رضى كل من يتقبلونها بكل شمولها، ويخبرون صحتها بمعاناتهم الروحية الذاتية.

ولكني لم أكن بعد في عداد هؤلاء.

وفي الواقع، كنا، "أنا وكارول"، قد توقفنا عند هذه التسمية، "كاثوليكيان لا يؤمنان بالله". ولقد كنا نتحرّق الآن من أعماق القلب على هذا الإيمان، ولكن دون جدوى. وكنا نكثر من المطالعات حول "المعضلة الكاثوليكية"، كما أسميناها. كنا نسلّم عقليّاً بكل ما كنا نقرأ، إذ إن هذه العقيدة تتحدى كل امتحان، بالرغم من توجّه فكرنا الجديد، المفرط في النقد. ولكن ما كنا نجهل أن التسليم الفعلي بحقيقة الكاثوليكية، غير كافٍ، إذ كان علينا أن نستشعر هذه الحقيقة، أن نعرفها من خلال معاناتنا الداخلية الذاتية لها.

وكان وجود الله العقبة الكبرى في طريقنا.

بالأمس، كنا نعتقد مخلصَين أننا عرفنا كل الحلول دون اللجوء إليه. فقد كنا نرتاح إلى المادية الجدلية، التي فسّرت الكون بأسره. فهي أعلنت، مثل نيتشه، أن الله قد مات. وكنا نؤمن بذلك، ونشعر أنها تنطق بالحق.

كان الله قد مات بالنسبة إلينا، منذ سنوات.

وكانت الظواهر تشير إلى أننا استغنينا عنه تماماً. وما وعينا يوماً، في ذواتنا،

وجود أي حياة داخلية، أو أي حياة روحية. فالشيوعية كانت قد ملأت كل حياتنا. ويوم تسربت الشكوك إلينا، حول سياسة الحزب وأساليبه، وحتى حول ما يبدو نضاله، لم تنسف هذه الشكوك، بالضرورة، ولساعتها، هذه المادية الجدلية. كما وأنه ما كان لها أن تثبت أن الشيوعية فاسدة في مبادئها.

ولكن كان يبدو أنه من المحتّم عليّ أن أصل إلى... روما!

فقد طُلب إلي أن أقوم بدراسة حول كتاب "أفرو مانهاتن" (Avro MANHATTAN)، وهو بعنوان "الكنيسة الكاثوليكية ضد القرن العشرين"، وحول كتيّب للقسيس، "ستانليه ايفانس" (Stanley EVANS). فالكتاب الأول كان مؤلفاً ضخماً يهدف إلى إدانة الكنيسة الكاثوليكية بالفاشية، وذلك من خلال عرض للسياسة التي انتهجها الفاتيكان منذ الحرب العالمية الأولى.

أما الكتيّب الثاني، فقد كان يرمي إلى الهدف ذاته، ويحاول إدانة الكنيسة بالرجعية ومعارضتها لكل تقدم.

بالأمس، كان هذان الكتابان قد وفّرا لي ألذ المتعات، حيث كنت بواسطتهما، كسوت الكاثوليكيين والفاشيين معاً، بالأوحال. ولكني فشلت. ونقمت على نفسي لهذه المحاولة. وكانت تلك آخر محاولة يائسة أبذلها في سبيل إنقاذ الحياة التي أحببت. ولكن المحاولة باءت بالفشل الذريع.

أكثر من هذا، كنت أفاجئني أردّد:

"الكنيسة الكاثوليكية ضد القرن العشرين؟

ثم ماذا؟ وأنا أيضاً ضد القرن العشرين، إذا ما كان يُفهَم بالقرن العشرين هذا العالم المعتوه الذي أشاهده من حولي، والذي خبر حربين عالميّتين، وعدداً من الثورات لا يحصيها إلاّ الله... وها إن غيوم الحرب تتكاثف مرة أخرى، ولما تنتهي الحرب الأخيرة.

ضد القرن العشرين؟

ضد قرن القنبلة النووية؟ ضد عالم ضائع؟ ضد عقيدة كانت تضطهد رجالاً أمثال المطران "ستيبيناك"، وتخطط لإرهاب أحمر ضد الفلاحين السلوفاكيين؟ ضد هذا الوضع المختل الذي أعقب الحرب، حتى هنا في انجلترا؟ ولمَ لا؟ أنا أيضاً ضد كل هذا!"

لم أستخدم ضد الكنيسة، الذخيرة الموجودة في كتاب "مانهاتن" فحسب، بل اكتشفت فيه، بالرغم من انحياز المؤلف، بعض عناصر نظريتها الاجتماعية. وضع الكتاب ليوجد أعداء للكاثوليكية، وإذ به يزيدني إيماناً بها.

أما القسيس الانجليكاني "ستانلي ايفانس"، فقد كنت أعرفه. كما وأني كنت أعرف أي نوع يمثل من رجال الدين المؤيدين للشيوعية. فإن الحزب يستغل أمثاله، ولكنه قلما يحترمهم. أنا أيضاً سبق لي أن مارست استغلاله. فقرأت كتيّبه بقرف. لقد كان يريد أن يبرهن أن الكنيسة كانت دائماً، وفي كل مكان، تناصب التقدم العداء. ثم ماذا؟ فالقضية كلها تتعلق بما يُفهم بكلمة "تقدم"!

هل كانت قنبلة "ناكازاكي" تقدماً؟

عندما أخبرنا بعض موظفي "الديلي ووركر"، أن إحدى محاكم لندن حكمت على شاب في الثامنة عشرة من عمره، بتهمة السرقة، في حين أنه كان يعيش مما تكسبه بطرق لاأخلاقية، زوجته البالغة من العمر عشرين عاماً، والتي سبق لها أن طلّقت، هل كان علينا أن نقول: تقدم؟ الاستعدادات التي تتخذها حكومة المجر، من أجل اضطهاد الكنيسة، والقضاء على ديانة الغالبية الساحقة من السكان، هل تعدّ تقدّماً؟ هل نعتبر أن جيلنا في تقدم، في حين أن مازال يبتعد يوماً بعد يوم عن فكرة قيمة الفرد، ليُحلّ محلها قيمة الجماهير المُغفلة؟!

ثم، هل بات من الثابت، أن العالم محكوم عليه "بالتقدم"، كما كنا نعتقد؟

وأن الماضي هو بالضرورة دون الحاضر، خيراً وحضارة، ودون المستقبل بأولى حجة؟ هل من المحتوم أن يتفوق كل جديد على كل قديم، دائماً وبشكل آلي؟

ما عدت أذكر أين قرأت هذا الوصف للرجعي: فهو الذي يبلغ شفا الهاوية، فيحدّق في الخطر، ويتراجع لساعته... إن وضعاً كهذا يصمني أنا أيضاً بالرجعية. ولم لا؟

فقد يكون "التقدميون"، كما وصفهم "تشيسترتون" في إحدى محاوراته، هم الرجعيين الحقيقيين. وقد يكون أولئك الذين يبصرون الخطر، ويتراجعون لساعتهم، التقدميين الحقيقيين، لأنهم يملكون الحل الصحيح، في حين أنه أقدم الحلول على الإطلاق.

إن الأفكار التي فجّرها فيّ هذان الكتابان، دفعتني إلى التقدم نحو روما.

ما كنت قد دخلت كنيسة كاثوليكية.

قرأت يوماً عند مختار الحي الذي كنت أقطنه، إعلاناً عن نقاش نظّمته إحدى فرق "سيف الروح". وما سبق لي أن حضرت يوماً اجتماعاً كاثوليكياً. وما كانت أي صلة لتربطني بأي كاثوليكي. ورغبت في حضور هذا الاجتماع. وأخبرت "كارول" بذلك، وأنا أكاد أخجل من نفسي. وقرّ رأينا على أن أحضر هذا الاجتماع، وأنا جالس في آخر القاعة، خشية افتضاح أمري، على أن أحمل لها جميع انطباعاتي.

كان بودّنا أن نعرف ما إذا كان بإمكاننا أن "نهضم" الكاثوليكيين كأفراد.

وصلت متأخراً، وفي ذلك ما يبرر بقائي في آخر القاعة. وتسللت داخلها، تماماً كما لو كنت أشترك في مؤامرة. كانت نفسي مزيجاً من أحاسيس غريبة، إذ كنت أقبع على كرسي خلفيّ في العتمة. هاأنذا إذن بين قوم يمثّلون القطب المعارض لكل ما ملأ حياتي، طيلة العشرين سنة الماضية.

كان يعتلي المنصة راهبان يسوعيّان، ونائب عمالي كاثوليكي، هو "ريتشارد ستوكس" (Richard STOKES)، كثيراً ما سبق لي أن هاجمته كعميل للفاشيين، والضابط "باور" (Bower)، وهو نائب كاثوليكي سابق من حزب المحافظين، كنت قد هاجمته هو أيضاً، هجوماً أعنف، والممثل "روبرت سبيغلايت" (Robert SPEAGLIT)، الذي كانت الأوساط الفنية الشيوعية تصمه بالرجعية والجهل.

إن بعضاً مني ثار بشكل عفوي. إلا أن الآخر كان يقول:

"هؤلاء كاثوليكيون. وهم ينتمون إلى ماضٍ تحبّه. وهم ينادون بأفكار، أنت معجب بها اليوم. أما فلسفتهم، فأنت على وشك تبنّيها، وأسلوبهم في الحياة، هو الذي ترغب فيه منذ زمان طويل".

وما عتّمت أن شعرت نحوهم بمزيد من محبة. صحيح أن السذاجة طبعت ما كانوا يثيرون من المشكلات السياسية، وما كانوا يقدّمون من حلول. إلا أن عالمهم كان عالماً أشد استقامة وصراحة ونظافة، من عالمي. فأحببته. وقلت في نفسي:

"أعتقد أنه بمقدوري أن "أهضم" الكاثوليكيين".

كنت أخشى ألاّ ينتهي بي الأمر إلى ما انتهى إليه، إذ عاودني كل ما شحنت به طفولتي، من أفكار بروتستانتية مسبقة، كنت أعتقد بموجبها أن جميع الكهنة والرهبان والراهبات، يعيشون في إباحية، وأن الآباء اليسوعيين ليسوا سوى لصوص حقيقيين. وإلى ذلك، كنت أحتفظ كشيوعي، بكل أفكاري المسبقة، فلقد كنا حكمنا في الحزب، أن الفئة الكاثوليكية من سكان انجلترا، هم أكثر الناس تخلّفاً، وأكثرهم جهلاً، وأكثرهم رجعيةً، وقد أغرقتهم الخرافات، وقضى عليهم الكهنة، دون أمل ببعث.

لاحظت وجود بعض الكهنة بين الحضور، وتبين لي أثناء الاستراحة، أن علاقة ودّيّة لطيفة تقوم بين الكهنة والمدنيين.فأخذت أرتاب بعض الشيء، من صحة تلك الادعاءات التي آمنت بها زماناً طويلاً. ورغبة مني في تجنب الأحكام المتهورة أو الخاطئة، كنت أردّد في نفسي هذا القول:

"حتى لو كان جميع الراهبات، وجميع الرهبان والكهنة، دجّالين إباحيين... حتى لو كان الكاثوليكيون أكثر الانكليز رجعية... هذا لا يعني أن الكاثوليكية على خطأ. ففي مقدور الكاثوليكية أن تكون صالحة، حتى لو كان الكاثوليكيون، بوصفهم مجموعة، سيئين. ليس من العدل أن نحكم على الكنيسة من خلال الكاثوليكيين. يتحتّم علينا أن نحكم عليها من خلال تعاليمها"

كنت أريد أن أتجاوز العقبة الأخيرة، الإيمان بالله. وانتظرت، عقب انتهاء الاجتماع، الكاهن الذي كان يشرف على النقاش. كان الأب اليسوعي "فرنسيس ديفاس" (Francis DEVAS). ولقد تبين لي من تصرفه على المنصة، أنه مفعم بالطيبة والتفهم.

حدّثته طيلة الدقائق التي استغرقناها في طريقنا إلى المحطة. وكشفت له عن هويتي، وأنا أنقّل النظر حولي، مخافة أن يلمحني أحد الشيوعيين القاطنين في المنطقة. حدثته عن العشرين سنة التي قضيتها كملحد مناضل، وعمّا آلت إليه حياتي من تعقيد... وسألته:

– هل يستطيع إنسان كالذي أصف، أن يصبح كاثوليكياً؟

فقال:

– إن الكنيسة، إنما وُجدت للخطأة.

بدت لي هذه الكلمة الأخيرة، بالية جداً. لقد كنت أهملت كلمة "خطيئة"،

منذ السنوات التي كنت فيها مبشّراً بروتستانتياً. فالخطيئة لا مكان لها في قاموس الشيوعي.

قلت للأب إن ماضيّ كشيوعي، سوف يرهن مستقبلي أياً كان، وأنه يستحيل اللعب بالوحل، دون تلطيخ الذات.

كنت كمن يناقش نفسه، وكمن يحاول الحكم على نفسه فرفّت عينه وقال:

– بإمكان من لا يستطيع أن يكون كاثوليكياً صالحاً، أن يصبح كاثوليكياً سيئاً. ذلك بأن الكاثوليكيين السيئين أنفسهم، يملكون أكثر مما يملك الشيوعيون. فالكنيسة ليست ملأى بالقديسين!".

ويتبين لي اليوم، أكثر من الماضي، أن هذا الإنسان الذي بدا لي طيلة وقفته على المنصة، كثير الافتقار إلى الواقعية، قد برهن عن تفهّم لبق (تفهّم يسوعي، في أسمى ما في هذه الكلمة من معنى) للطباع الإنسانية.

أغراني بالأمل في أن أصبح، أقلّه "كاثوليكياً سيئاً". ولكنه كان قد عرف أنني لست ممن يرضون لأنفسهم بأن يكونوا "سيئين".

وعرفت منه أنه لا بد لي، قبل أن أصبح كاثوليكياً، من أن أتبع سلسلة منتظمة من الدروس الدينية، وأنه سوف يكون تحت تصرفي في "فارم ستريت" (Farm Street)، إن كنت راغباً في ذلك.

وأسرعت في العودة إلى البيت، لأحمل لكارول بشرى ترحيب الكنيسة الكاثوليكية بنا، إذا ما خطونا يوماً الخطوة الأخيرة. وجلسنا نتسامر حتى منتصف الليل. وكنا نثير دوماً المشكلات عينها، ونصطدم دوماً بالعقبة عينها. ما كان شيء يحول دون اعتناقنا الكاثوليكية، اللهم إلا الإيمان بالله!

وكنا نصطدم دوماً بهذه العقبة، دون تحقيق أي تقدم ملموس. نقرأ،

نناقش، نتحرّق، دون بلوغ الهدف. وانتهى بنا الأمر إلى الغرق في يأس مطبق. أفما من شيء وراء هذا الحنين؟

وفي ذات مساء، إذ كنا نتناول طعام العشاء، وقلت لكارول إنه لا بد لنا أخيراً من مجابهة الواقع: علينا إما أن نتخلى كلياً عن كل هذا البحث، وإما أن نستعدّ للاعتراف بالإيمان الجديد.

وكان بعض مني يدعم هذا الاقتراح، على أنه حل لا مهرب منه، وكان البعض الآخر يسخر منه، ويتراجع تلقائياً، كأنما أمام عمل مشين.

وسمعتني أحدث نفسي:

"الساعة الآن العاشرة إلا خمس دقائق. ونحن لا نؤمن بعد بالله كواقع حي. فلنبدأ الإيمان بعد خمس دقائق، في تمام العاشرة. ولنعمل ولنفكر كما لو كان الله موجوداً بالفعل".

وبدأنا التنفيذ في العاشرة تماماً. ولم يحدث شيء. ومضت أسابيع طويلة، ولم يحدث شيء أيضاً. ما كنا نتوقع لا رُؤى، ولا منّاً من السماء، ما كنا نؤمن بعالم السماء، فكيف كان لنا أن نرقب المعجزات؟ إنما، وهذا ما كنت أردّده بغضب في نفسي:

"فعل الإيمان هذا، كان لا بد له من أن يحدث بعض التطورات النفسية، وما حدث أي تطوّر".

كان كل شيء في الإدارة، يتفاقم سوءاً.

سياسة "الكومنفورم"* الداخلية، بدأت تتخذ لها الخط الذي كنت أخشاه. وباشرنا تدريجياً، من خلال صحيفتنا، تهيئة أفكار القراء لتقبّل الانقلاب الرسمي العتيد لسياسة الحزب.

* هو مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية. تأسس في مؤتمر فرسوفيا عام 1947، وألغي عام 1956.

وفي إحدى الأمسيات، غادرت المكتب، وأنا غارق في أحلك يأس. وشعرت باندفاع شديد يجرّني إلى إحدى الكنائس الكاثوليكية. وتذكّرت الكنيسة الإيطالية، القريبة والواقعة في حي " " (Clartemmuel Road). وصلتها. وما أن صعدت الدرج، حتى أغلقت الأبواب.

وحاولت أن أتذكر كنيسة أخرى، كنت قد رأيتها، وفكّرت إذ ذاك في كنيسة "اسماث ماركت" (Exmuth Market) القريبة. وأسرعت الخطى عبر الأزقة الضيقة، ولما وصلتها، حدّقت فيها عبر العتمة، فكانت أشبه شيء بقلعة مخيفة. وأخافتني، فهربت!

إلى اليوم، كانت أشهر طويلة قد مرّت، وأنا لا أعرف طعم النوم، إلا بفضل حبوب منوّمة. ولكن، ليلتي تلك، ما استطاعت الحبوب أن تغمض لي عيناً.

وفي الصباح التالي، استقليت القطار اليومي حتى محطة "هولبورن" (Holborn). وتسلّلت عبر الطريق التي كنت قطعتها مدة سنوات، في سبيلي إلى عملي في المكتب، وكنت مارّاً بساحة "إيلي" (Ely). فاسترعت انتباهي لوحة كنت قد شاهدتها مئات المرات، كتب عليها: "كنيسة القديسة اثلدريداس الكاثوليكية" (St Etheldredeas Catholic Church). وألقيت نظرة سريعة على طريق مسدودة، وعلى بناء كنت قد رأيت فيه هو أيضاً ذلك الحين، أحط نموذج لفن البناء الديني. سبق لي أن شاهدت عدداً لا يستهان به من الكنائس الكاثوليكية. ولكن كان يخيّل إليّ أن هذه الكنيسة إنما هي أبشع كنيسة في العالم. فإن استطعت أن أتحمل هذه البشاعة، أستطيع أن أتحمل أي شيء آخر.

ولكنه تبيّن لي أن البناء الكريه، الذي طالما أثار اشمئزازي، لم يكن كنيسة.

إنه الجدار الخلفي لمستودع موجود في آخر الطريق المسدودة. وعندئذٍ فقط، لمحت كنيسة صغيرة، منعزلة بعض الشيء. لكم من مرة مررت بجوارها، دون أن أنتبه لها. والآن ما كان يخطر ببالي أنها كنيسة كاثوليكية. فهي دون شك، تعود إلى ما قبل "عهد الإصلاح". وإن واجهَتها، على الرغم من آثار الغارات الجوية، كانت تشير إلى أنها تعود إلى عهدي المفضّل.

ودخلت واجتزت رواقاً هادئاً تلفّه العتمة. وولجتُ كنيسة هي حقاً تحفة غوطية. وأحسست في الحال أنني في بيتي. وبدت لي الأمور وكأني عدت إلى كنيسة بلدة "موند" (Moundej) الرائعة، في منطقة الغال، حيث يحق لأصغر قريبة أن تعتز بكنيسة جديرة بأن تكون كاتدرائية. أما هذه الكنيسة، فكان لها ما يميّزها. ففيها الماء المقدس في الأحواض، وفيها تماثيل القديسين في بيوتها الجدارية. لم تكن كالتحف التي سبق لي أن شاهدتها في الكنائس الغوطية، إبان زياراتي لها. وأما هنا، فلكل شيء دور. وكانت الكنيسة تتفجر بالحياة.

كان اللبّاد الأسود يستر الثغرات التي فتحتها القنابل في الزجاج، بحيث كانت الكنيسة كلها غارقة في ما يقارب العتمة. وما كان فيها إنسان، والحمد لله. فجلست في المقعد الأخير. وجاء بعض الناس، ثم ذهبوا. ومكثت جالساً وحدي.

في هذا اليوم، وصلت المكتب متأخراً. وكان المحرّرون ينتظرون توجيهاتي. فوزّعت عليهم العمل بأقصى سرعة ممكنة، كي يتسنى لي الانفراد في مكتبي. كانت تلك المرة الأولى، التي دخلت فيها كنيسة كاثوليكية، وإذا بي أكتشف أنها تحفة غوطية، وأنني اكتفيت بالجلوس فيها. لم أصلّ. لم أفعل شيئاً.

وتركت المكتب باكراً. وقررت المرور بالكنيسة لفترة وجيزة، قبل أن أستقل القطار، ومكثت فيها ساعة، جالساً وسط العتمة، ولا نور لي إلا شعلة صغيرة تتراقص على الهيكل. وعدت إليها في صباح الغد، بعد أن تأكدت من

خلو المنطقة خلوّاً تامّاً من المارّة. فكانت تعود بي الذاكرة إلى الأيام الأولى من الحرب، حيث كانت الشرطة تتعقبني دون هوادة.

وكنت أزداد إعجاباً بالكنيسة، كلما ترددت عليها. ولكني ما استطعت إلى الصلاة سبيلاً. كان الركوع مدعاة للسخرية والاحتقار. (أن يموت الإنسان واقفاً، خير من أن يحيا الأبدية راكعاً). إن الركوع دلالة خنوع وحقارة زحّافة. يا للشعوذة الهائلة أن يركع إنسان، ويحدّث كائناً غائباً، لا وجود له! إلا أني كنت أعود إلى الكنيسة، صباح مساء.

وكان صباح يوم جمعة، ابتعت عند مدخل الكنيسة، نسخة من الصحف الكاثوليكية المعروفة، وأودعتها محفظتي. ولما وصلت بناء "الديلي وركر"، كدت أنفجر ضحكاً، وأنا أسائل نفسي ما الذي سوف يقال، لو فتحت المحفظة، وتبعثرت الصحف على أرض المكتب؟!

ومرّت أسابيع، وأنا أتردد دون انقطاع على الكنيسة، ولم يحدث أي تطور. كنت أحب الكنيسة وهندستها، وأحب جو السلام المخيّم عليها. ولكن ليس هذا ما جئت أبحث عنه.

وفي مساء يوم أحد، إذ كنت خارجاً من الكنيسة، طرق مسامعي وقع خطوات تتعقبني عبر الرواق المظلم. وكانت تتوقف إذ أتوقف، وتسرع إذ أسرع. لقد خبرت هذا النوع من التعقّب زمناً طويلاً، فما كان لي أن أجهل ما يحدث لي. ولكني لم أبصر أحداً. ولقد علمت فيما بعد، أن أحد اللصوص كان قد اعتاد التردد المتواصل إلى الكنيسة، يفرغ صناديقها، ويفرغها من الشموع. فأصدرت الأوامر إلى أحد خدّام الكنيسة، أن يترصّده. ولاحظ هذا الرجل إنساناً غريباً يأتي الآن إلى الكنيسة في أوقات محددة، لا يمارس أياً من الطقوس الكاثوليكية، ولا يبدو عليه أبداً أنه يصلي، إنما يظل على الدوام جالساً، جالساً، جالساً... فقرّ رأيه على أني أنا المجرم،

وبات يحاول القبض عليّ في حالة الجرم المشهود. ولقد وفّق بعد فترة وجيزة، إلى القبض على السارق الحقيقي، وهو يستولي على الشموع المنصوبة على الهيكل.

كان القطار الذي أستقله، يغادر المحطة ساعة ما يبرز الشفقُ الكون أسود على صفحة السماء. وكنت أحسّني في غاية الإعياء مريضاً فارغاً، أكثر من أي وقت مضى. لقد فقدت إيماناً ولم أجد إلا العدم. كنت كمن فقد جذوره. لم أعد أملك أي شيء.

وتأملت بيوت لندن اللاصقة بزرقة السماء الشاحبة. وهناك، في العلاء، على وجه السماء، وفوق المدينة، صليب يعتلي برجاً شاهقاً. أطلت التأمّل فيه، فيما القطار يتجاوزه، وأدرت نظري ناحية المدينة محدّقاً، حتى غاب في الأفق. ورأيت صليباً آخر يعتلي بناء آخر. وما كاد يختفي حتى لاح صليب ثالث ورابع...

وفي فكري، اندفعت فقرة من "نزهة الحصان الأبيض"، لـــ "تشيسترتون"، كنت أعدت قراءتها منذ فترة قريبة، اندفعت ترافق عجلات القطار:

"لذا، أنا أحمل إليك هذه الأبيات،

التي حملت إلي الصليب

منذ أن شاهدتُ عليك في لمعان نقي

العلاقة التي شاهدها "غيترم" (Guthrum)

عندما ترك بواخر الرعب تتحطم

وجعل السلام يخيّم على المجر."

أمن الممكن وجود هذا العدد الكبير من الكنائس الكاثوليكية؟

ذلك هو السؤال الذي طرحته على نفسي، إذ كنت أشاهد الصلبان تتعاقب. ولماذا لم أشاهدها قط بالأمس؟ وفي سماء "هرن–هيل" (Hern-Hill)، أغنى ضواحي "ستريتام" (Streatham)، كانت الصلبان ماتزال تلوح ثم تغيب. وكانت نغمات العجلات ما تزال ترافق أبيات "تشيسترتون".

"من فم أم الله
أخرج خروج كلمة مجنّحة
فأنا ذاهب أجمع القوم المسيحيين
عبر الطرقات، وعبر الأنهر والمستنقعات
لكي يموتوا في معركة لا يعلم إلا الله، تاريخها
ولكني، أنا واللهِ، أعلم سببها.
تلك هي كلمة مريم،
كلمة شوق الدنيا
لن يكون هناك بعد اليوم، تعزية
لا بل، ستزداد السماء حلكة
والبحر سيضحي صاخباً..."

وفي صباح الغد، وعلى الطريق ذاتها، نظرت هنا وهناك، بحثاً عن الصلبان. وما كان هناك صليب واحد، حتى فوق الأبنية التي كانت تسهل عليّ معرفتها منذ الأمس. إنما كانت هناك لاقطات التلفزيون فوق أبنية الضاحية. يبقى أنها رسمت بجلال، طيلة أمسية كاملة، صليب الله على سماء لندن المسائية.

وفي ذلك الصباح بالذات، حدث أمر جديد.

كنت على عادتي، جالساً في عتمة الكنيسة، على أحد المقاعد الخلفية، عندما دخلت الكنيسة فتاة في العشرين من العمر تقريباً. كانت رثة الثياب. وهي تميل إلى القباحة. بدت لي وكأنها خادمة إيرلندية صغيرة. عندما مرّت أمامي، لاحظت قسمات وجهها. هي أيضاً تعاني من الهموم، كان من الواضح أنها تنوء مثلي بحمل ثقيل. وانسابت دون تردّد بجوار الحائط، ومرّت أمام الهيكل، ثم اتجهت نحو اليسار، حتى بلغت أحد المراكع، حيث جثت على

ركبتيها، أمام تمثال العذراء مريم، بعد أن أشعلت شمعة، ووضعت بعض النقود في صندوق. ولقد تسنى لي، بفضل النور المنساب من الزجاج المغطى ومن الشمعة، أن أراها وهي تتلو المسبحة. يداها تتحركان، ورأسها ينحني من وقت لآخر. كنت أجهل كل شيء عن هذه الصلاة الكاثوليكية. فيها كان يتمثل عالم أجيال الإيمان. كان ذلك العالم الذي تلمّست سيري نحوه. هل كان عالم شعوذة؟ كنت في غاية البعثرة.

ولما مرّت أمامي ثانية، حدّقت مرة أخرى في وجهها. لقد تلاشت همومها. كنت على ثقة من ذلك. فيما أنا، أحمل عبئي منذ أشهر، ومنذ سنوات. ولما تبيّن لي أني أصبحت وحدي، تسلّلت كالكلب المضروب، بجوار الجدار الجانبي، وتماماً كما كانت قد فعلت، ومررت أمام الهيكل الرئيسي، متوجّهاً ناحية اليسار، ووضعت بعض النقود في الصندوق، وأشعلت شمعة، وجثوت على المركع... وحاولت أن أصلي للعذراء مريم.

ولكن كيف يصلي لها الناس؟ كنت أجهل ذلك تمامً. هل كانت ترفع إليها الصلاة مباشرة، أم أنها لا تعدو كونها واسطة؟ هل ينظر الناس إلى التمثال، ليروا الحقيقة التي تختبئ وراءه، أم أن الصلاة كانت توجّه إلى هذا التمثال وحده؟ وهذا أيضاً، كنت أجهله...

حاولت أن أتذكر صلاة للعذراء، من أدب القرون الوسطى، أو أبياتاً من "تشيسترتون" و"بلّوك". وظل رأسي على فراغه. وكانت الشمعة تواصل همسها مرتجفة، وهي تتضاءل... ولكني ما كنت أنبس بكلمة. وأخيراً سمعتني أردّد بضع كلمات، بدت لي أول الأمر، ملائمة للموقف. ولكن سرعان ما توقفت... لا بأس! لقد عرفت أنني بلغت نهاية بحثي. إن كلامي لم يصادف العدم!

10) "أندريه لوفيه" (André LEVET)

وُلد عام 1932، من عائلة فرنسية فقيرة، لم ترزق إلا صبيّان، وكان هو الأصغر. وكان مشوّشاً وطائشاً، بقدر ما كان أخوه هادئاً وناجحاً في المدرسة. فكان محط نقمة وسخرية من والديه. وحدث أن توفي أخوه بمرض. فازدادت نقمة أهله عليه، حتى بلغت حداً جعله يهرب من المنزل ويهيم في الشوارع، وهو بعد في العاشرة من العمر. وكان يبحث عن اللقمة... وأخذ يسرق... وجاء يوم حلّ فيه نزيلاً في "بيت الأحداث"، يتنقل من بيت إلى بيت، حتى بات خبيراً بالهرب من هذه "البيوت". ثم انتقل إلى السجون، نتيجة استرساله في أعمال السرقة، حتى ارتكب ذات يوم جرماً، جلب له حكماً بالسجن مدة خمسة عشر عاماً. وكان يومها في الثانية والثلاثين من العمر...

صدر له في باريس، عام 1988، كتاب بعنوان "هروبي الأخير مع يسوع المسيح"، عن دار نشر "لاستيه نوفيل". وقد نقلته إلى العربية، وطبع في لبنان عام 2004، فارتأيت أن أختار منه الفصول الثلاثة الأولى، أنقلها بحرفيتها:

« من كتاب "هروبي الأخير مع يسوع المسيح"

الفصل الأول

سجن الموعد

عام 1964، كنت كتلة من الحقد: فقد صدر بحقي حكم باعتقالي خمسة عشر عاماً، اعتقالاً جنائياً، نتيجة إدانتي بسرقات موصوفة. لحظة إعلان الحكم، زأرت من الغضب وأعلنتُ بقسَم تصميمي على الهرب.

وإثر محاولتين ناجحتين في الهرب، أعقبتهما محاولة فاشلة، لأني لم أجد من

يساعدني على حفر ثلاثين متراً، المتبقين من نفق كان سيبلغ خمسين متراً، تحت أنابيب محطة التدفئة المركزية في "كليرفو"، نُقلتُ إلى معتقل مدينة "شاتو تييري". وبدل أن يحملني هذا الاعتقال على التعقّل، حوّلني إلى وحش خطير، يستحيل ترويضه. ففي سلسلة هروبي من البيت الوالديّ، ومن مراكز الأحداث، ومن السجون، كنت قد اجتزت الطريق المنطلقة من سرقة بطاقة نقديّة خبأتها في قاموس لوالدي، والمنتهية إلى السطو المسلّح والمتكرّر، لإدارات المجمعات التجارية الكبرى.

لم يكن يعنيني، أنا المتمرّد، إلا الحريّة.

وفي سبيل استعادتها، كنت قادراً على الإقدام على أسوأ الأمور حتى القتل. دون شك، كان ذلك هو الدرك الأخير الذي تبقّى عليّ انحداره، كي أبلغ قاع البئر التي كنت أغوص فيها منذ طفولتي.

كنت كالوحش المطارد، الذي أُصيب بمقتل، فارتدّ يهاجم صيّاده، أعني به المجتمع. زنزانتي، طولها ثلاثة أمتار، وعرضها متر ونصف المتر. ليس فيها سوى الكتاب المقدس. وهو على الأرض. تارةً أفتحه لأقرأ فيه صفحة أجدني أعيد قراءتها دون ملل (وماذا عساني أفعل سوى ذلك في هذا القفص؟). وطوراً أستبعده وأنبذه في إحدى الزوايا، كما كان يحدث لي يوم كنت تلميذاً سيئاً.

كان هذا الكتاب امتحاناً لدماغي النشوان بالحرية. فقد كان يستهويني باستمرار. ومع ذلك كنت أستبعده... كان يسحرني ويبعث فيّ القرف. إنّ هذا الإله الطيّب، الذي حدّثني عنه الأب "لي" في رسائله، يريحني، ولكني أكره هذا العالم الشرير الذي أبدعه.

وفي ذات يوم، وجّهت تحدّياً لذاك الذي لم أكن أؤمن به. صرخت: "إن كنت حقاً موجوداً، فتعال لزيارتي. أجل، ها إني أحدد لك موعداً في الساعة

الثانية صباحاً. سنتحدّث. وإن كنت حقاً تفعل كل ما هو مروي في هذا الكتاب، فسيكون بوسعك أن تفتح قضبان زنزانتي، فأخرج، وعندها يتسنى لي أن أستعيد حريتي، وأواصل انتقامي من هذا المجتمع الفاسد. ولكني لا أصدق شيئاً البتة".

كان ذلك يوم 11 حزيران 1969.

في ذلك المساء، نمت، على عادتي، قرابة الساعة الثالثة والعشرين، وقد استعنت بالقدر المحدد من المهدّئات، التي تتيح لي النوم، دون استيقاظ، من خمس إلى ست ساعات.

وفي 12 حزيران، خلال الليل، شعرت بضربة قوية. فنهضت دفعة واحدة، وقد ظننت أن إنساناً غريباً تسلّل إلى زنزانتي. وكنت مستعدّاً للضرب. وصرخت: "من هنا؟". على الفور جاءني صوت، وكان صوتاً يصدر من أعماقي وينفجر في أذنيّ، ويدوّي في ذاتي كما لو كان في نفق. وكان الصوت يقول:

– إنها الساعة الثانية يا أندريه، ونحن على موعد.

– من أنت؟ ماذا أتيت تفعل هنا؟

لم أكن أشعر بالخوف. قفزت إلى الباب وقرعته بقبضتي. كررت قرعه طويلاً. فتقدّم حارس الليل وسألني ما الذي يحدث. (ولكم كنت جاهرت برغبتي في الحرية حتى بات الجميع يعرفون تصميمي على الهرب). قلت له:

– لماذا تزعجني، وماذا تريد أن تروي لي عبر باب الزنزانة؟

بالطبع لم يفهم شيئاً مما قلت له. وأكّد لي أنه لم ينطق بكلمة. سألته:

– كم الساعة؟

– إنها الثانية صباحاً.

الثانية، الثانية تماماً.

التفت إلى زنزانتي. ابتعد الحارس. خطوت بضع خطوات. وعندها عاد الصوت الداخليّ القوي يدوي في أذنيّ، قال:

– لا تكن كافراً، أنا إلهك. أنا إله جميع البشر.

لم أشعر بأي غضب. فأجبت:

– لم أرك قط. لماذا تأتي لإزعاجي؟ أنا لا أراك. لا أعرفك. أغرب عني.

في هذه اللحظة تلاشت زنزانتي البالغة الصغر، والغارقة في العتمة، تلاشت بالكلية. تلاشى سقفها. تلاشت جدرانها. هبطت السماء في الزنزانة، واختفت القضبان الخضراء مع الكوّة الصغيرة، وحل محلّها نور رائع لا يمكن وصفه.

ووسط هذا النور، ظهر إنسان. إنسان لا أعرفه، لم يُرني سوى قدميه المثقوبتين، ويديه المثقوبتين وجنبه الأيمن المثقوب.

وارتفع من جديد صوت قوي سمعتُ كلماته. لم يكن الصوت منبعثاً من داخلي، ولكنه كان يدوّي في الزنزانة:

– هذا من أجلك أيضاً.

في هذه اللحظة فقط، سقطت القشور من عينيّ، القشور المثقلة بتسع وثلاثين سنة من الخطايا. الآن سيتاح لي أن أرى بوضوح، وأن أرتقي وأن أفهم: إنه المخلّص وأنا الخاطئ. لأول مرة في حياتي ألين وأحني ظهري. لأول مرة في حياتي أسقط راكعاً أمام أحد وأبكي. فثمة من يريد أن يحبّني، لأول مرة في حياتي.

طوال خمس ساعات، من الثانية صباحاً حتى السابعة، موعد فتح الزنزانات، ظللت راكعاً. كان لا بد لي من أن أعود القهقرى بكل المساوئ التي ارتكبتها، كي تخرج مني، كما من دُمّل بالغ القيح، كل أعباء القيود

والإهانات، والتجاوزات، والقبضات المهدّدة والسرقات، جميع تلك الشرور، وجميع تلك الأحقاد التي تثقلني، والتي لم يعد بوسعي حملها. لقد أتى يسوع، في رحمته العظيمة وحبّه الكبير، ليردّني منها، أنا الذي لم أكن سوى وحل. إنني طوال سبع وثلاثين سنة، كنتُ المسامير في يدي يسوع، وفي قدميه. وإنني كل أيام حياتي كنت أمسك بالرمح الذي أطعن به جنبه.

وطلبتُ الغفران. إلا أنه كان يستحيل عليّ أن أرفع عينيّ إلى إلهي، إلهي الذي بتّ أعرفه.

وعندما قدم الحرّاس في السابعة صباحاً، ووجدوا أندريه راكعاً، باكياً في زنزانته، توقفوا حائرين، ثم اضطربوا إذ طنوا في ذلك حيلة أمهّد لها لهروب ناجح. ذلك بأن أحدهم لم يرَ هذا "القبضاي" في مثل هذه الحال.

وفي الواقع لم يكونوا على خطأ. فلقد أنجزت حقاً هروبي: كان هروبي الأخير مع يسوع المسيح.

مضى حتى الآن على هروبي هذا ثمانية عشر سنة. أجل، اليوم يسعني أن أقول إنه كان أروع هروب أنجزته في حياتي. وهذا الهروب الرائع قد أتاح لي أن أكون حراً، حراً على نحو مطلق! حراً بحرية الله، "حراً بإيماني"، حتى لو كان ذلك ضمن جدران زنزانتي الأربعة. فعندما لا يعود يتبقّى في الزنزانة سوى إنسان يدور على نفسه، في فسحة تفتقر إلى الحياة، وعندما لا يعود يتبقّى سوى كوّة صغيرة بقضبانها الخضر، عندها يكون أيضاً، مع السجين، الإيمان بالله، أي حرّيّة النظر إلى القريب بحب.

عندما فتح باب زنزانتي، لم يكن ثمة وحش يبصق في وجه حرّاسه، أو يلّوح لهم بقبضته تهديداً. بل كان هناك كائن بشريّ، خاضع، وقد تبدّل كلياً. فبعد اليوم لن أبصق في وجه حرّاسي، ولن أضرب أحداً، ولن أسرق أيّاً من إخوتي

البشر، لأني أرى فيهم وجه يسوع. فإن أنا بصقت على قريب أو ضربته أو سرقته، فإنما أكون قد بصقت على يسوع المسيح، وضربته وسرقته!

إن يسوع المسيح هذا، إن هذا الإله قد زارني في زنزانتي، وأنا في منتهى فقري، ليهبني الغفران والسلام والحب، وليزرع فيّ الحياة.

لقد دخل زنزانتي دون أن يخفي نوره، وشمس حبه ورحمته، كي يستنبت القمح في حياتي، مع ألوان رجائه. وقد أتاح لي معه أن أحقّق حياتي.

فزرع في قلبي رغبة جنونية، هي رغبة من يُحبّ ويُحَب، كي يكون جنون هذا الحب معدياً، ولكي ينتشر هذا الحب من حولي، فيصيب البشر بالعدوى، بحيث يمتد هذا الحب إلى العالم بأسره، ويُضحي العالم في متناول الجميع.

أجل، فأنا منذ الآن، قد تصالحت مع إلهي.

* * * * *

الفصل الثاني

من النقاهة إلى الشهادة

كان لقائي بالله قد فتح لي باب الحرية، إلاّ أنه لم يفتح لي باب السجن. فمازلت خاضعاً لعقوبة سوف تستمر ست سنوات طويلة قبل إطلاق سبيلي. أقول: سنوات طويلة، لأني، على الرغم من اهتدائي إلى الله، وعلى الرغم من ساعات الوحدة في زنزانتي، التي أستطيع خلالها أن أحوّل قلبي نحو الله، لأبتهل إليه وأسأله العون والعزاء، وعلى الرغم من حضور "صديقي الجديد" بقربي، فإن السجن يظل مكان عذاب. فالمحن كثيرة. وهي تتفاقم بكثرتها كلما أدركت مدى الألم المحيق بإخوتي السجناء. فكل إنسان هنا، أياً كان، يحمل صليباً ثقيلاً على منكبيه، وغالباً ما لا يسع المرء فعله سوى التحديق فيه، وهو يصارع ضيقه ويأسه. ودفعةً واحدة، بدت لي آلامي الخانقة بمثابة نقطة ماء

تافهة، في محيط الآلام، الذي يغمر البشرية. قبل ذلك كان ألمي يشحنني بالبغض، أما الآن فهو يحملني على الحب. كنت دون ملل أتجه نحو إلهي. فأية كانت محني، كان يتبقّى لديّ دائماً ذلك الرفيق الموثوق جداً، هو الذي وضع نفسه على رأس القطيع البشري الذي يحمل الصليب. أصلي إليه وهو يساعدني. فإنه لم يحدث لي، ولا مرة واحدة منذ اهتدائي، أن شعرت باليأس. فمهما تلبدت السماء في قلبي، كان هناك دائماً شعاع شمس يعطيني الدفء، وزاوية من السماء الزرقاء يقوم فيها المسيح الذي يقوّيني. تعلمت أن أتقبّل الألم في حب، دون تمرد ودون بغض. فالجميع يحملون صلبانهم، ويسوع نفسه لم يشأ أن يرفض صليبه. حتى عندما كان الألم يشلّني، كنت أحتفظ بثقتي بالله، كي أحبّه وأشكره.

وتعلمت في السجن أيضاً أن أكون موضوع سخرية أو رفض بسبب إيماني. "أين هو إلهك؟..." إن إخوتي السجناء يتخذون من اهتدائي مادّة للسخرية. وكنت خلال فترات الصمت التي أمضيها في الصلاة، أصلي من أجلهم. فإنهم لا يعرفون يسوع ولا يفهمونه، وهو الوحيد دون شك الذي يحبّهم. فإنهم يقابلونه بالسخرية والرفض. كنت أصلي وأسأل لهم الغفران، لأنهم يذكّروني بما كنت أنا عليه، قبل أن يأتي إليّ ويزورني في زنزانتي.

ولكن السجن ليس فقط مأزقاً. فإن إيماني يكبر ويتدعّم. ففي الوقت الذي تفتّح فيّ حب الله، في هذا الوقت عينه شعرت بالحاجة الملحة إلى مشاركتهم لي في الله. وبدأ بالنسبة إليّ، طوال سنوات الاعتقال في زنزانتي، عمل التبشير: لقد أُصبت به كما بجرثومة، وأنا أسعى لنشر هذا "المرض المعدي" بين إخوتي السجناء. جميع هؤلاء الأسرى داخل أسوار السجن، أتمنى أن أصالحهم مع الله.

إن ما فعله الله بمسكين مثلي، والطريقة التي حرّرني بها من سجني الداخلي

والذاتي، الذي كنت بنيته بنفسي، والذي هو أسوأ بما لا يقاس من أي سجن خارجي، ذلك اللقاء الرائع، كنت أريد أن أشرك فيه الجميع. كنت أريد أن أقول وأن أصرخ: إن الله يحب جميع الناس، حتى أكثرهم صغارة وفقراً وبؤساً، بل خصوصاً هؤلاء. كنت أود أن أرسّخ في جميع إخوتي السجناء، الرجاء الذي وُلد في قلبي، لأنه بدّلني وحوّلني، ولأنه أعطاني حريّةً مطلقة، حرية لم يعد بوسع أي شيء أو أي إنسان، أن ينتزعها مني.

وفي محاولتي التقرّب من رفاق السجن، واجهت شيئاً آخر غير الإخفاقات... ففي دنيا هؤلاء المحرومين، وُفّقت بالعثور على قلوب منفتحة. أتذكّر جاك. كان في الثالثة والعشرين من العمر. ذات يوم، دار الحديث بيننا. طرح عليّ أسئلة حول إيماني وحول يسوع المسيح. وفي ختام مناقشتنا، قدمت له "كتابي" المقدس ودعوته لقراءته، ليرى ما فعل يسوع وليصغي إليه. وبعد فترة، نُقل جاك إلى سجن مركزي للفتيان. فقد كان حكم عليه في السابق بعشرين عاماً حكماً جنائياً. وقبل إطلاق سبيله بصورة شرطية، بلغتني بعض أخباره. كان قد آمن بالمسيح. لقد وجد الله. كنت سعيداً. بعد مغادرته السجن المركزي، حدثني عنه سجين كنت قد تعرّفت عليه. فقد أكد لي اهتداءه إلى يسوع، وقال لي إنه لم يكن يكفّ عن التكلم عن المسيح، مع الجميع وفي كل مكان. ثم أضاف: "لقد أصبح مجنوناً بيسوع". كنت في ذروة السعادة. لم يكن بوسعي أن أتذوّق فرحة أعظم من تلك... لقد جنّ جاك بيسوع. لينتقل هذا الجنون إلى السجن كلّه، وليهتدِ الجميع إلى يسوع، وليغرق العالم كلّه بمثل هذا الجنون، جنون حبّ الله الذي يجعل البشر أحراراً.

لكم أتمنى أن نصاب جميعاً بعدوى الله. وعندما يحين الوقت لأستعيد حريّتي بين الناس، سوف أواصل عملي التبشيريّ خارج جدران السجن. أريد أن

أعرّف الجميع في العالم بأسره، على حبّ الله العظيم لجميع الناس. أريد أن يتصالح الجميع مع الله، لكي يتحقّق لنا العالم الذي نحلم به جميعنا، ولكي تكون السماء بمتناول الجميع.

هذا الكتاب الذي طالما تصفّحته في زنزانتي، والذي كثيراً ما كنت أُلقيه جانباً، لم يكذب عليّ. وما أبرزَته لي الأناجيل الأربعة، كان بحق وجه يسوع الحقيقي. وكنت كلما فتحت الأناجيل وقرأتها، كان يطلّ عليّ الرب نفسه الذي التقيته. لقد نظر إليّ بوجهه النوراني، فحقّق معي المصالحة الكبرى. فقد بتّ متصالحاً مع إلهي. ولكني أعرف أن هذه المصالحة الكبرى هي في متناول الجميع، وأريد لها أن تمتد إلى البشريّة كلها. وسأبذل جهدي كي يعرف الجميع هذا الإله ويعترفوا به. هذا الإله إنما هو حب. هذا الإله الذي يستطيع أن يدخل قفص حيوان مفترس، خاضع لحراسة مشددة، دون استئذان أحد، لكي يُريَه يديه وقدميه، وعليها علامات الحب اللامتناهي، هذا الإله هو هو الذي يبحث عن أفقر الناس، عن الذين لا يملكون شيئاً، عن أولئك الذين دمّرتهم المخدّرات، وعن المومسات الواقفات على الأرصفة، وعن الذين يبحثون عنه... هو هو الإله الذي يستطيع أن يتقبّل روح محتضر وهو يلفظها، دون أن يكون قد سمع باسمه ولا مرة واحدة.

عندما اجتزت عتبة السجن، بعد ست سنوات من موعدي مع يسوع المسيح، واستعدت الحرية، ووقفت عند باب السجن، يدي بيد يسوع رفيق هروبي، كنت أعلم أنه يتوجّب عليّ منذ الآن أن أعيش حياة جديدة، حياة حب وحياة شاهد للرجاء. كان عليّ أن أُظهر لجميع الناس ما كان الله قد فعله في طيبته العظيمة وفي رحمته الواسعة، لأحد أصغر أصاغر الخارجين من السجن. كان علي أن أُظهر ما هو وجه الله، وكيف هو يتألق بنور الحرية.

لسوف أمضي عبر جميع الطرقات لأحدّث من يريد السماع لي. ولجميع الذين سيستمعون إلى شهادة الرجاء الذي أحمله، سأبيّن حرية الله المدهشة.

كانت إحدى أول رغباتي أن أصبح كاهناً، وهذا بديهي... وإنه حقاً لأمر بديهي بعد لقائي بيسوع المسيح. ولكن المسيح لم يكن يريدني كاهناً. سوف يساعدني بعض الناس على تفهم هذه الحقيقة وعلى تقبّلها. وكانوا على حق. ذلك أنه لو كان لي أن أصبح كاهناً، لتوجب عليّ أن أمضي سنوات طويلة بين جدران معهد لاهوتي. كان ذلك يقتضي شجاعة فوق طاقتي، وكان الرب يريدني على الفور. لقد كان يريدني بالتمام حيث كنت دائماً في السابق: كان يريدني في الشارع. إن الله لا يقتلع الإنسان من تربته. فهو يريدنا حيث وضعنا. فهو هنا يأتي إلينا ليبحث عنا، وهنا يريد أن يرسلنا. كان الله يريدني قريباً من أفقر الناس وأكثرهم حرماناً. لقد أرسلني إلى الذين يتألمون. إذن لم أصبح كاهناً. وقد أتاح لي ذلك أن أتجوّل في كل مكان. لقد تنقلت بين المدن والقرى. عبرت شتى الطرقات، وزرت المدارس والمعاهد والسجون والأديرة. التقيت في الطرقات المدمنين على المخدّرات والمومسات، جميع هؤلاء المعدمين والمكبلين، تماماً كما كنت أنا بالذات. وما من شك أني لو كنت كاهناً، لما كنت استطعت أن أكون بمثل هذا القرب منهم. كنت اضطررت للاهتمام برعية. وما كان أتيح لي أن أذهب بمثل هذه الحرية، عبر جميع الطرقات التي كان ينتظرني فيها يسوع، من خلال إخوتي المعدمين. لقد كانوا على حق، أولئك الذين قالوا لي: "إن الرب ينتظرك فوراً في الطريق". ومع ذلك، فأنا أيضاً، بطريقتي هذه، كاهن. فالمؤمن العادي هو أيضاً، بفضل نعمة العماد، مرتبط بالكنيسة، بصلاته وشهادته. وإن العماد ليجعل منا، بمعنى ما، شعباً كهنوتياً. إن كلاً منا يخصّه الله بدعوة وبرسالة. إن كلاً منا يمثُل أمام الرب،

ويقدم ذاته بسخاء لله الآب، في المسيح يسوع، بفعل الروح القدس. فإن المعنى نفسه الذي أضفاه يسوع على ذبيحته، يتوجب علينا أن نضفيه نحن على اشتراكنا في الذبيحة الإلهية. فإن كنا ودعاء ومتواضعين، فإنما نحن نتشبّه بذاك الذي نتقبّله في القربان المقدس. وباشتراكنا في القربان، نصبح بشراً جددا لنبني عالماً جديداً. فإن حبّنا لله، وحبّنا ليسوع، وحبّنا لإخوتنا، لا بد له من أن يجعل البذرة الإلهية فيهم تزهر. فلن أكون إذن كاهناً، بل شاهداً حيثما تسنّى لي، شاهداً لحب الله ولحريّة الله.

عندما كنت في السجن، تبيّن لي أنه لا يجوز للإنسان أن يبقى وحيداً، وأنه لا بد لنا دائماً من رفقة. ولقد اكتشفت ذلك، لأن زنزانتي كانت تضمّ صديقاً صغيراً هو عنكبوت سمته "بالوع".

لقد جاءني بعد ظهر يوم ربيعي. ودون أن يستأذنني، نسج ستاراً ناعماً بين أنبوب التدفئة والجدار. وأصبحنا، بعد عناء شديد، صديقين ودودين. وكنت أتساءل ما إذا كان بوسعي أن أروّض عنكبوتاً صغيراً يبتلع كلّ شيء. وسرعان ما تبيّن لي أن العنكبوت أيضاً يمكنه أن يكون صديقاً للإنسان.

وتقاسمنا الزنزانة نفسها طوال أشهر وأشهر. كنت شديد الإعجاب بعنكبوتي "البالوع". لقد احتلّ مكاناً في حياتي ومكاناً في قلبي. كنت أكلّمه بوداعة وأقدم له حشرات أضعها له على نسيجه. في الفترة الأولى كان يستولي بسرعة على فريسته، ويضعها في عشّ نسيجه. وقد احتجنا إلى أيام كثيرة حتى تسنّى لنا أن نتفاهم ويتصل أحدنا بالآخر. ولكن ما إن تحقق الاتصال، حتى غمرنا الفرح. كنت أكتفي بالتحدث إليه بهدوء، بملامسة نسيجه برقة، وبطرف إصبعي، حتى يخرج إليّ. ولقد أصبحنا صديقين عظيمين لا يفترقان. لقد احتلّ "البالوع" في حياتي كسجين مكاناً لم تُمنَ فيه الصداقة

بأي خيبة أمل. كان "البالوع" رائعاً. لم أكن أملّ من التحدث إليه. ويوم غامر ومشى على أصابعي، بلغ فرحي الذروة.

خلال الشتاء، كنت أتقيّد بنظام غذائي صارم. وكانوا يأتون بقطعة من اللحم المهروس، وكنت أريدها دوماً نيّئة كي أقدم منها قسماً "لبالوعي". لم يكن يحب ذلك كثيراً. ولكن مقابل ذلك، كان له ذخيرة حقيقية من الغذاء. إن نسيجه كان مليئاً بالحشرات التي كنت أقدّمها له في الصيف. ولقد فوجئت إذ اكتشفت أن العنكبوت يستخدم الخيط نفسه الذي ينسج به نسيجه، ليلف به الذباب والحشرات في شرنقة.

لقد أمضيت مع "البالوع" ساعات لا تنسى. وفي ذات يوم اختفى. فبحثت عنه عبثاً في زوايا الزنزانة. هل تُراني سحقته دونما انتباه؟... لست أدري. ولكم حدث لي، فيما بعد، أن وجدتني أحدّق في الزاوية الصغيرة التي جاءني منها ليشاركني وحدتي. ففي السجن تكتسب أتفه الأشياء أهمية ضخمة.

في الواقع، في هذا الطريق الجديد المرسوم أمامي، كانت الصلاة هي في الحقيقة رفيقة دربي في كلّ لحظة. فلا بدّ لنا من الصلاة إلى الله دون انقطاع. لأن الصلاة هي السلاح الرئيسي الذي سيمكنني من تخطّي العقبات. وسرعان ما أصبحت الصلاة الغذاء الضروري، الذي لا غنى عنه، الذي يقوّيني ويُحييني، والذي يهبني القوة على الجهاد والحب، وعلى الطلب أيضاً في الغالب. فإن الصلاة الصادقة النابعة من أعماق القلب، تنال دوماً سؤالها... إلا أن الله يجيبنا ببطء أبدي. وأنا أصلّي إلى الله دون انقطاع، لأسأله المزيد من النور، والمزيد من القوة، والمزيد من الشجاعة، ولكي يجدّد فيّ الرجاء واليقين بالتحرر المطلق. لكم أتمنى ألاّ يعود هناك أغنياء وفقراء، ولا أناس يضحكون فيما غيرهم يبكون، وأطفال يُتخمون بفرط الأكل، بينما سواهم من الأطفال

يموتون هزالاً وجوعاً. ولكم أتمنى أن يفهم أخيراً الناس الذين يملكون بيوتاً كثيرة، ضرورة اقتسامها مع المشرّدين الذين لا سكن لهم سوى الجسور. ولكم أتمنى على الذين يحشون كل يوم بطونهم، أن يفكّروا في الذين ليس لهم ما يضعونه في أفواههم.

لا أريد أن أسلم بوجود مسنّين، وقد تُركوا وحيدين في زاوية ما، وكأنهم مكنسة منسية. لن أقبل بعد اليوم بمنبوذين في المجتمع، ولا بقيام حروب. أريد أن يرفض الجميع المتاجرة بالسلاح. لن أسلّم بوجود مومسات ومتعاطي المخدّرات. لن أقبل بوجود من يُشار إليهم بإصبع الاتهام. لا أريد شقاء بعد اليوم ولا بؤساً. لا أريد إلاّ حب الله. أنتظر اليوم الذي سنُحرق فيه – كما بنار عظيمة من الفرح تعبيراً عن شكرنا لله – المدافع وأسلحة العالم كله، لكي نسكبها ونحوّلها إلى أدوات للعمل. أتلهّف لليوم الذي يصبح فيه جميع البشر إخوة، في الفرح، تمجيداً لله، ولليوم الذي يكون للجميع فيه أرض يزرعونها ويحصدونها، كي يتسنى لهم أن يأكلوا. أتلهّف لليوم الذي يعترف فيه الجميع بأنهم أبناء الله.

يترتب علي بعد اليوم أن أبشّر الناس بالمسيح قاهر الموت، بالصلاة والشهادة. وإن تلك لحقيقة سمعَتْها أذنيّ ورأتها عينيّ: إنّه حقاً حي! "أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا". الله حي. الله حب. الله رحمة. أريد أن أشهد بذلك أمام جميع إخوتي، بحياة مستقيمة وأخوية، وفي خضوع تام لمجمل إيمان الكنيسة. فليس ثمة محبة مسيحية حقيقية، خارج التسليم بإيمان الكنيسة. فإن جميع مقتضيات الإيمان، مهما كثرت وقست، تختصر في نهاية المطاف، في مقتضى واحد. وإن جميع التشريعات، والشريعة كلها التي يلتزم المسيحي بالعمل بها، إنما هي تلك الوصيّة الفريدة التي لم تعد وصية: إن إلهك يحبّك،

فأحبب إخوتك بالحب نفسه الذي يحبّك به. وعندها فإن أشد أنواع الطاعة تصبح والحرية شيئاً واحداً.

مضت سنوات طويلة على خروجي من السجن. واصلت طريقي كمبشّر مع يسوع، رفيق دربي. معاً نجوب أمكنة قذرة، عليّ أزرع وأعطي ما أُعطيت ذات يوم مجاناً. أريد أن يشاركني الناس بذلك وأجأر به عالياً... إنه حي. وكالفراشة، أطير من مدينة لأخرى، لأتحدّث عن ذاك الذي أتى وزارني في زنزانتي، لأتكلم على إله الرحمة ذاك، إله الطيبة والحرية. أشهد في جرأة بلقائي العظيم به، لأنه هنا، معنا. إنه حاضر فينا، وهو يحيا فينا. وأنا واحد من أصغر أصاغر خدامه. أنا مجرم سابق تائب، عرف جحيم السجون الفرنسية الكبرى، والزنزانات الشديدة الحراسة، تحت الرقم 2835، إلى اليوم الذي انقلبت فيه حياتي كسجين خطير، نتيجة موعد ضربته أنا للإله الكلي القدرة... يومها انقلبت حياتي، وفهمت أن الإنسان إنما خلق للحرية. وأنا اليوم أشهد لذلك.

* * * * *

الفصل الثالث

تحرّر تلو تحرّر

ذكرت بإيجاز كبير الفترة التي أعقبت إطلاق سراحي، لأني كنت في شوق للتحدث عن شهادتي بإيماني ورجائي، تلك الشهادات التي باتت اليوم بالنسبة إليّ، مصدر فرحي الأكبر للحياة في المسيح ومن أجله. أعود إلى هذه الفترة الآن، لأنّها لم تكن لتخلو من الصعاب. إن استعادة الحرية، بين ليلة وضحاها، بعد اعتقال صارم دام أحد عشر عاماً، منها سبعة أعوام في زنزانة انفرادية، وفي صمت مطبق، أمر ينطوي في آن واحد على لحظات من الخوف والبؤس، وعلى فرح هائل.

لقد أُطلق سبيلي في 30 أيار عام 1975. كان اهتدائي إلى الإيمان قد خدمني خدمة جُلّى. فمنذ 12 حزيران عام 1969، كان سلوكي مثالياً وقد أدهش الكثيرين. كان ملفّي، حتى ذلك الحين، يحمل العلامة الحمراء. وبمرور السنوات، فقد اللون الأحمر، الذي كان ينطوي على إدانتي، شيئاً من ألقه. وإني لمدين كثيراً أيضاً لتفهم مدير السجن ومساندته لي. وقد حصلت بفضله عام 1971، على أول عفو، وكانت مدته شهراً كاملاً. وعندما أطلق سبيلي أخيراً بصورة شرطية، كنت قد نفّذت أحد عشر عاماً من السبعة عشر، التي كان عليّ أن أمضيها في السجن. وكنت يومها في الثانية والأربعين من عمري.

ومع ذلك، فحياتي كادت تكون في بدايتها. عندما غادرت السجن، كان انطباعي الأول، بالطبع، انطباع فرح. كان فرحاً ضخماً هيأت له نفسي، منذ أسابيع، بنفاد صبر. استعدت الأشجار والورود بعد أحد عشر عاماً أمضيتها وسط رماديّة جدران البيتون في السجن. ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً. فقد تلاشى بسرعة تحت ضغط الخوف. الخوف من هذا العالم الذي يتحرك ويضطرب ويحيا في قلب الصخب. وعندها أدركت ما هي حياة السجناء. لكأني بهم مدفونون أحياء. وكثيراً ما تكون العقوبات مفرطة في الطول، بحيث يفقد السجين كلية، حسّه بالعالم والحياة.

أتذكّر أَلِكسي. كان قد قَتَل أخاه أثناء الحرب، بسبب أمور غامضة تتعلّق بالميراث. كان شاباً قوياً من مقاطعة بريتانيا، وكان فلاحاً. فقد صدر عليه حكم بالإعدام بادئ الأمر، ثم بدّل. لقد أمضى في السجن سبعة وعشرين سنة. كان ذلك خلال الحرب، عام **1943**. وكان البشر يقتتلون بغباء في وحشية يصعب تصوّر مثلها. كان ألكسي في العشرين من عمره عندما دخل السجن. وعندما استعاد حريّته كان في السابعة والأربعين. ولكنّه لم يكن رجلاً

في قمّة قوّته عندما أطلق سبيله. كلا ثم كلاّ. لقد كان يصعب التعرف على ألكسي، إذ كان يومها شيخاً خرفاً. كان ضائعاً. لم يكن يعلم ما إذا كانت الحرب قد انتهت، ولم يعد يقيم للمال أيّ قيمة. كان يحلم فقط بمزرعته في مقاطعته، ويسأل كل المارة عن الطريق إليها. لا بدّ لي من أن أعترف بأن ألكسي كان قد فقد عقله. ولذلك انتقل ألكسي، وهو في السابعة والأربعين، من السجن الذي غادره، إلى دار للمسنين قضى فيها نحبه.

لقد توقفت حياة ألكسي عندما كان له عشرون عاماً. وبعد ذلك لم يعرف سوى الجدران: جدران السجن وجدران المأوى.

عندما أطلق سبيلي، كنت أعرف هذه القصة لأني عشتها. فلم يكن بالغريب عليّ أن أشعر بالخوف. لم يكن لي أية رغبة خاصة في أن أنتهي كما انتهى رفيقي ألكسي. فلجأت إلى صديق طبيب. فقُبِلت في مستشفى "الفيناتيه" بضاحية "برون" – هي إحدى ضواحي مدينة ليون – في جناح مخصص لاستقبال "من ليس لهم سكن ثابت". وهنا تعرّفت إلى أحد المساعدين الاجتماعيين، واسمه جاك، إذ كُلّف بالاهتمام بي. ولسوف يظل صديقي دائماً أبداً. وأخذت أبحث معه، وربما بفضله، عن عمل. من المؤسف أن البحث عن عمل، بالنسبة إلى سجين سابق، ليس بالأمر السهل. لا سيما وأن مؤسسات التوظيف لا تبذل دائماً كل ما بوسعها. بل هي، أحياناً، تفتقر بصورة تامة إلى "النظافة" والنزاهة. وإني لأحتفظ لها بذكريات على جانب كبير من القسوة والمرارة. فلقد كان صعباً عليّ، وقد اهتديت إلى الإيمان في السجن، وحيث كنت أحلم بعمليّة تحرّر تشمل العالم بأسره – تلك العملية التي تسكنني والتي أرجوها دائماً – أن لا أقع من جديد في الكذب والخداع، أبحث عن عمل، اللذين مازالا للأسف يسكنان الكثير من قلوب البشر. ولقد تعلّمت، وأنا

أبحث عن عمل، أن سجيناً سابقاً لا ينتهي أبداً من دفع الضريبة للمجتمع، فإن باب السجن الذي يُغلق وراء السجين، هو دائماً حجر قبر يوضع مجدداً على ميت حي. ولسوف يبقى السجين طوال أيام، بل سنوات، معتقلاً خلف جدران سجنه الأربعة، القذرة والرماديّة. سوف يتألم ويدفع الضريبة. وعندما يأتي يوم طال انتظاره، يوم عودته إلى الحرية، سيجد نفسه خارج جدران السجن، دون عائلة، دون حب ودون سند. بعد ذلك، إن هو حقاً تاب واشتهى أن يؤسس عائلة، فإن زوجته وأولاده سيدفعون معه ثمن شقائه السابق. ذلك بأن بطاقته في الضمان الاجتماعيّ، ستحتوي دائماً الأرقام الثلاثة الأخيرة التي تشير بوضوح إلى كونه سجيناً سابقاً. وهي أرقام يسهل على أيّ مؤسّسة أن تكتشفها وتقرأها. مع أن السجين قد دفع الثمن غالياً.

ولكن، أخيراً، بفضل جاك وعلاقاته، وخصوصاً بفضل صداقته لي، وُفّقت إلى العثور على عمل في أحد المعامل. وقد عُيّنت أولاً في "الأعمال القذرة" ذات الأجر الزهيد، ولكني سوف أصل بعد صبر كثير واجتهاد ومثابرة، إلى عمل أفضل قليلاً، حيث سُلّمت آلة. ثم عثرت على سكن. ثم وضعت فيه بعض الأثاث. وشيئاً فشيئاً بدأت أستعيد الحياة.

وفي مستشفى "الفيناتيه" أيضاً، تعرفت إلى "جاكلين". كانت مسيحية، وفي وضع صعب. وهي التي أتاحت لي التعرف إلى جماعة "رفاق أولاً". كان كل منا يكنّ للآخر صداقة كبيرة. وشيئاً فشيئاً نما ارتباطنا الواحد بالآخر. ثم وُلد الحب بيننا. أخيراً قررنا أن نوحّد حياتنا. كنا يحب أحدنا الآخر. وكان إيماننا بالمسيح راسخاً فينا بقوة. ولذلك هيّأنا زواجنا بمساعدة جماعات مسيحية كنّا نجتمع معهم. ولقد أمضينا وقتاً طويلاً في الصلاة والتفكير، مع هؤلاء الأخوة الجدد الذين باتوا هم حياتي الجديدة. واحتفلنا بزواجنا يوم 13 آذار 1976.

كان كلانا سعيداً جداً. وكان جميع أصدقائنا المسيحيين حاضرين للصلاة معنا، ليشاركونا هذه اللحظة من الفرح العظيم. في ذاك اليوم، سكن قلبي ابتهاج لم يألفه قط في أيامه السابقة. فأنا وجاكلين في حب غامر، ونريد أن نؤسّس أسرة مسيحية. كانت تلك حصيلة قسط كبير من الأيام الطويلة، المليئة بالرجاء. وإن الآمال التي كانت تكبر في قلبي منذ اهتدائي إلى الإيمان، خطت خطوة إلى الأمام.

كثيراً ما أعود بالذاكرة إلى الأسرة التي أسسها والداي. كان وضعنا المادي الوضيع يسبب لها بعض التمزّق. فجاءت الحرب وفجّرت تلك الخليّة العائلية. ووجدنا أنفسنا بعيدين عن بعضنا، معزولين، لكلّ منا حياة لا علاقة لها بحياة الآخرين. ولم يتبقّ لدينا مما هو مشترك سوى ذكريات، فيها من المرارة والحقد ما كان يزيدنا تباعداً... لقد كانت عائلتنا فعلاً، وكنا كلّنا، وكلّ بطريقته الخاصة، تتألّم بسبب ذلك. ربما أيضاً لأن كلاًّ منا كان يدرك أنه، ولو جزئياً، كان مسؤولاً عن هذا الفشل. هذا يعني أني عندما تزوجت جاكلين، كنت مدركاً تماماً، بل بإفراط، جميع الأخطار التي كانت تهدد حياتنا الجديدة. ولكن هل من مشروع لا ينطوي في ذاته على مصاعب وعقبات؟ ولقد عرفنا، ككل الأزواج، خلال حياتنا، ساعات من الفرح، وأخرى على جانب كبير من الحزن. فالمركب هذا يصعب اقتياده غالباً وسط اضطرابات الحياة. ومع ذلك، فلم نسمح يوماً لليأس بأن يتسرّب فيما بيننا. فالله حاضر هنا. وهو يحبنا، وهو يسهر علينا. وإننا لنحتفظ له في حياتنا دائماً بالمكان الخاص بالصديق المفضّل في كل لحظة. ولذلك سوف يبقى يوم 13 آذار دائماً، كما أرجو، أحد أسعد أيام حياتي.

وفي الفترة التي أعقبت استعادتي الحرية، قُيّض لي أن ألتقي أيضاً مارسيال. مارسيال هو كاهن في بلدة "ديسين" وقد تعرفنا عليه، أنا وجاكلين، في الفترة

التي كنّا نستعد فيها لزواجنا. ولسوف يصبح مارسيال بسرعة صديقاً كبيراً لي، وأخاً في المسيح كنت ألجأ إليه في الغالب لأجدد قواي، عندما كنت في الفترة الأولى من حياتي الحرة، أحسّني أسير وسط الضباب. كنت أثق به ثقة كبيرة، وبالقرب منه كنت أستردّ الحيوية التي أفتقر إليها. وكان يهبني النور. فإن الاهتداء إلى الإيمان لا يعني بالضرورة أن الإنسان تحرر من ساعات الشك والغضب والقنوط، وهي قسمة كل إنسان. كان مارسيال يقدم لي العون. وكنت بحاجة إلى هذا العون، لا سيما وأني كنت أحس بمنتهى الصعوبة، وسط اضطرابات المجتمع، أن أجد لنفسي فسحات جيدة من الهدوء للصلاة، وأن أتوجه دون انقطاع نحو الله، كي أشكره وأسأله القوة الضرورية. والحق أنّ ذلك كان أصعب عليّ من الفترة التي كنت فيها وحيداً في زنزانتي، في سجن "شاتو تييري".

خلال لقاءاتنا، كنت أتحدث طويلاً إلى مارسيال. كنت بسطت أمامه دونما تنسيق، حياتي كلها. كنت قد حدّثته عن طفولتي التعيسة، عن آلام السجن، عن لقائي المدهش بالمسيح، عن أشهر حياتي الأولى وأنا طليق، عن آلامي وأفراحي ومصاعبي. وأخيراً أطلعته على الخواطر التي كنت كتبتها عن اهتدائي إلى المسيح. ولقد قرأها مارسيال بإمعان. وعندما أعادها إليّ، سألني أن أجعل منها شهادة. كان هو المنطلق في هذه الشهادة. كان بمثابة الشرارة التي أشعلت المحرّك. لذلك أستطيع أن أقول اليوم إني بفضل مارسيال بتّ أجوب الطرقات في فرنسا، أحمل، حيثما تسنى لي مستمعون، شهادة إيماني ورجائي.

11) "**إينياس ليب**" (**Ignace LEPP**) (1909–1966)

هو كاتب فرنسي، ولد عام 1909 **وتوفّي عام** 1966**. كان والده قبطاناً في سفينة تجارية، وكان يصطحب أسرته معه في جميع جولاته البحرية. ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى عام** 1914**، اضطرّ والده للالتحاق بالقوات البحرية الفرنسية. فأرغمت الأسرة على الاستقرار فوق الأرض الفرنسية. يومها كان كاتبنا في الخامسة من عمره. وكان أن توفي والده في الحرب عام** 1916**. وفي السنة الرابعة عشرة من عمره اكتشف الشيوعية، ودعوتها إلى تحقيق العدالة والكرامة والحرية للجميع. فأخذ بها ووجد فيها معنى وجوده وغاية حياته، فوقف لها حياته كلها. بالطبع إلى جانب دراسته. وبات بعد فترة من الزمن من المثقفين الشيوعيين المعروفين في فرنسا، ووضع عددا من الدراسات والكتب، صدر له منها سبعة، ثم مضى في تماهيه مع حلمه الشيوعي، فغادر إلى الاتحاد السوفييتي وهو في السابعة والعشرين من عمره. وفاز في موسكو بمناصب حزبية مرموقة، حتى جاء يوم كلف فيه مرات بتمثيل الاتحاد السوفييتي في بعض المؤتمرات، مع فريق العمل. وقادته بعض مهماته إلى ألمانيا في عهد هتلر، واعتقل وحكم عليه بالإعدام. ولكنه أنقذ قبل تنفيذ الحكم بأيام، وعاد إلى الاتحاد السوفييتي... إلا أن تغييراً عميقاً كان قد تسرب منذ فترة ليست بقصيرة، إلى أعماقه، حين اكتشف الهوة الكبيرة القائمة على أرض الواقع في الاتحاد السوفييتي، وفي البلدان الدائرة في فلكه، بين ما وعدت به الشيوعية من نشر الحرية والعدالة والكرامة للجميع، وما يعيشه الناس عموماً من ضيق كثير، وما يتمتع به عموم المسؤولين من امتيازات لا علاقة لها بواقع الناس... وشيئاً فشيئاً أخذ إيمانه**

بالشيوعية يترنّح، وحلت محله بمرور الوقت، خيبة عميقة، ذهبت في تفاقم، حتى جاء يوم انتهز فيه وجوده في أحد المؤتمرات خارج الاتحاد السوفييتي، وقفل راجعاً إلى باريس، في حالة من الإحباط، كانت أقرب إلى الضياع التام، لولا أن أحد أصدقائه استقبله في بيته طوال هذه الفترة.

وكان أن حدث له في هذه الفترة بالذات، أمر بدّل شيئاً فشيئاً حياته كلها. وهو يرويه في كتاب له بعنوان "الطريق من كارل ماركس إلى يسوع المسيح"، صدر في باريس عام 1962، عن دار نشر "أوبييه" (Aubier). وقد اخترت من هذا الكتاب، هذا الذي حدث له وبدّل حياته، فنقلته إلى العربية بكل أمانة، وهو يقع فيه من الصفحة 279 إلى الصفحة 296.

« في الطريق من كارل ماركس إلى يسوع المسيح

في ما تقدم من فصول هذا الكتاب استرسلت طويلاً في الكلام على فراغ وجودي الذاتي فراغاً مطلقاً من كل حياة دينية ومن كل قلق ديني، طوال مدة نضالي الشيوعي، بل طوال السنوات التي تقدّمت انتسابي إلى الحزب الشيوعي. فالتساؤل الجدي عما قد يحدث لي بعد الموت، ما كان ليخطر لي ببال، بل ما كنت أرى بي من حاجة إلى مثل هذا التساؤل، إذ كنت على شبه يقين من أن لحياتنا على الأرض من الجاذبية وشهوة العمل، ما يبدو معهما كل تساؤل عما هو غريب عنهما، مضيعة للوقت لا غير.

ولا يعتقدنّ القارئ أنني في هذا كنت وحيد زماني؛ فإني لا أخالني مخطئاً إذا جزمت بأن غالبية الشيوعيين خصوصاً، والملحدين المثقفين عموماً، لا يعيرون المعضلات الماورائية اهتماماً أكبر مما كنت أعيرها أنا حتى السادسة والعشرين

من عمري. فقد كان يقيني ويقين كل رفاقي أن كل شيء ينتهي بالموت؛ فحملنا هذا الإيمانُ على التهالك على هذه الحياة العابرة تهالكاً محموماً. وعندما مزّقت بطاقة انتسابي إلى الحزب كنت في حالة ما كان ليخطر لي فيها أي احتمال باعتناقي أي دين؛ ولو خطر لي مثل ذلك لكنت استقبلته بكثير من الغضب بل بسخرية تفوق التصور. ذلك بأني سلخت سنواتي العشر الأخير ولا قوى لي ولا حياة إلا بالحزب وحده وللحزب لا غير؛ وما كنت أبتغي من حياتي إلا أن تكون وقفاً مطلقاً على النضال الثوروي.

وكنت، بطبيعة الحال، قد بذلت كل وسعي في توسيع نطاق ثقافتي وتعميق جذورها، كما بذلت أيضاً قصارى جهدي في تحصيل أكبر عدد ممكن من الشهادات العالية؛ وما كنت أنشد من وراء ذلك كله إلا أن أزيد جدارةً في حمل مسؤولياتي الحزبية، تماماً كما كنت أطمح في سني المراهقة أن أصير كاتباً نابهاً أو فيلسوفاً شهيراً. وكنت أحس في أعماق ذاتي أن الدافع الأساسي لهذا الطموح، إنما هو خدمة الحزب لا غير. وكنت أستشهد لنفسي على ذلك بما لمؤلفات غوركي وغيره من عظيم التأثير في الناس، وهل كان بوسعي أن أظفر في خدمة الحزب، بوسيلة أنجع من تلك التي كنت ظفرت بها، لو تسنى لي أن أكون شبيهاً بهم؟

فأقول إذن إن سنواتي العشر تلك قد طويتها على زهد يكاد يكون مطلقاً، لا لسبب أخلاقي، إذ كنت قد نبذت عني كل مبدأ من هذا الصنف، بل لأني كنت أخشى أن تحد الخمرة والمرأة والتبغ من نشاطي الثوروي، فأنحرف عن محور رسالتي، أي عن نضالي الحزبي. وبديهي أن حياة امرئ عفا قنوعاً مترفّعاً، أمر لا يُشرط فيه الإيمان بالله، وإنما لا بد له، على الأقل، من إيمان مطلق بمثال أعلى، بحيث يكون هذا الهدف، من القبيل السيكولوجي، شبه معبود يستهل معه الحرمان الذي تقتضيه ممارسة ما يسمّونه بالفضيلة.

والمهم إذن في الأمر أني فقدت تماماً إيماني بالشيوعية. فلست بعدُ أؤمن بأنها تحقّق أسمى أهداف التاريخ، أو بأنها تقود الإنسانية إلى مستقبل ضاحك. ولكن لّما كنت على الإيمان بها، كانت لي الحياة جميلة، والحرمان عليّ هيّناً، وأما اليوم فبتّ لا أدري ماذا أفعل بنفسي، ولا لماذا أحيا وأعمل. ولم يبقَ لي ما يبرر الحياة والعمل. وبديهي أني لست أنكر أن هناك قوماً، ولعلهم الكثرة الساحقة، لا يشعرون بأي حاجة إلى ما يبرر وجودهم، أو ما يحدد أي معنى أو اتجاه لهذا الوجود. فالرقابة اليومية تبدو لهم أمراً طبيعياً، وهم أبعد ما يكونون عن التفكير في البحث عمّا وراء ذلك. فكل ما في الأمر أنهم يولدون ويأكلون ويشتغلون ويلدون ثم يموتون ولم يُثيروا من المعضلات أكثر مما تثير الحيوانات العجم. وأما أنا فلم أكن لأرضى بمثل هذا المنطق.

وجدتُ إذن أن وجودي فقد كل معقوليّة، وأنه ليس له مبرّر أكثر مما لشجرة أو حجر. فاسترسلت في التمرغ بنهم جنوني في الملذات والمتع التي كنت رأيت من الضروري أن أحرم نفسي منها. وظفرت بالنسيان الذي كنت أنشد. ولكنه لم يكن ليدوم أكثر من نشوة السكر. وكان يعقب هذه الملذّات قرف من الحياة وإرهاق أشد وطأة عليّ مما كنت أشعر قبلها. واستبدّ بي القرف حتى حتم عليّ الانتحار، وحاولت مراراً أن أنتحر؛ إلا أنّ تعلّقي الغريزي بالحياة كان أقوى مما كنت أريد التسليم به. ثم خطر لي أن أسترد جزءاً من الإرث الذي خلّفه لي والدي، وكنت قد تخليت عنه بإباء في سبيل النخراطي في الحزب، وكنت أحلم بحياة هادئة أقضيها كالناسك، ساعياً وراء العلم والتأليف في بيت صغير في جزيرة مهجورة.

غير أنّ السنوات العشر التي سلختها في حياة نضال صاخب طبعتني بطابعها حتى الصميم من كياني؛ ثم لم أكن لأنسى أنني منذ الطفولة كنت دائب

الحرية، نزوعاً إلى العمل والنضال. فهل كان من الخير لي، والحالة هذه، أن أطوي الحياة اليومية على الرتابة، في الزواج ومزاولة مهنة كسائر الناس؟ وكنت على الدوام شديد الاحتقار للحياة البرجوازية. فكيف يصل بي المطاف إلى هذه الحياة البرجوازية بالذات؟ إن في ذلك الانحطاط الأكبر الذي لا يضاهيه حتى انحطاط محترفي المجون والخلاعة. وكنت أعلم أنّ كثيرين يرون فيّ أستاذاً متفوّقاً، وأنهم لن يتردّدوا عن نصحي بوقف حياتي على هذه المهمة التي كنت أحب. ولكني كنت أنظر إلى التعليم نظر من يقف نفسه على مهمة نبيلة قوامها نشر حقيقة يؤمن بها. وأنا الآن بتّ لا أومن بشيء على الإطلاق! وأما حبّ امرأة فلم يكن بوسعي أن أرى فيه مبرّراً لحياتي، ونظرت إلى الحب المقصور على شخص واحد كما إلى أمر كلّه بطلٌ وسخرية. ثم كيف للحب أن يؤتيني الفرح والاندفاع اللذين تتحرّق نفسي عطشاً إليهما؟ وهل للحب أن يجلب عليّ إلاّ القلق بدل الطمأنينة، والسأم بدل الانشراح؟

كنت على مثل هذه الحال من الحيرة والاختناق يوم تراءت لي العلامة. كان ذلك في ساعة متوغّلة في الليل. كنت عائداً من أحد الأندية التي أدفن فيها معظم أمسياتي. وكان روح هذا النادي روح مرح واستهتار، بل فرضت العادة على كل فتى يرتاده أن يظهر في مظهر الثائر على كل ما يمسّ، ولو من بعيد، ما تعوّد أولئك المتطفّلون أن يسموه "بحريّتهم"! فكنا من مدمني السكر، وكان من مألوف الفتيات أن يبارينَ الشبان ويَفُقْنهم في ما يحرّر من كل مبدأ أخلاقي. وبديهي أني لم أجد في هذه الأندية إلا الفراغ المطبق لا غير. بيد أني لم أكن وحدي، فكان من السهل عليّ أن أسلو واقعي في مثل هذا اللهو المصطنع!

وكانت ليلة عدت فيها إلى المنزل نحو الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد منتصف الليل، ومع ذلك لم تغمض لي عين كما كان يحدث لي غالباً. فنهضت

من السرير وتناولت كتاباً كانت قد نسيته ابنة مضيفي على طاولة غرفة الاستقبال، وقلّبته بادئ بد في غير انتباه، لأن الكتب نفسها أمست لا تستهويني بحيث أنسى اللامعقولية الجذرية لحياتي. ثم أكببت عليه بشغف ما عهدت مثله منذ بضعة أشهر، فنسيت معه، بصورة لاشعورية، الحزب الشيوعي ويأسي، ونسيت أيضاً أني منهوك القوى، وأن الساعة تشارف الفجر، واختلطت بأبطال الرواية، وأحسست غبطة تجتاحني، وشعرت أني تمكّنت من الهرب من ضباب حياتي.

جئت على آخر القصة والساعة نحو الثانية عشرة ظهراً، ثم طويت الكتاب والدمع يملأ عينيّ. أما تعبي فكان قد تبخر على كوني سلخت ليلة بيضاء. ثم فطنت إلى عنوان الكتاب فإذا هو "كوفاديس"، ومعناه "إلى أين أنت ذاهب". وأما الكاتب لم أكن أعرف عنه شيئاً بل ما سمعت قط باسمه، "سين كيفيتس". فأقبلت على الموسوعة اللاروس فإذا المؤلف روائي بولندي أصاب جائزة نوبل لسنة 1905. وروايته كوفاديس تاريخية جرت أحداثها في أيام نيرون. ومحتمل أن تأثّري بها ما كان ليبلغ ما بلغه من القوة لو كنت على إلمام ببعض الدين المسيحي. وبديهي أني وقعت على أشياء وأحداث لم أفهمها. إلا أن ما تملّك مشاعري في القصة كان خير حياة الجماعات المسيحية في أول عهدها. فظهر لي فجأة المثال الأعلى للحياة الجماعية التي كنت أصبو إليها، منذ السنة الخامسة عشرة من عمري، والتي طويت السنين أبحث عنها في الشيوعية. أجل، لقد اكتشفت واقعاً عاشه المسيحيون الأوّلون، ليس هو بالوهم المنشود الذي كنت أطلب في الشيوعية.

وعلى الأثر اتّخذت هذا القرار: عليّ أن أتحقق في غير بطء هل يراعي الكاتب الحقيقة التاريخية، أو هو يختلق القصص اختلاقاً كما يفعل الكتّاب

الشيوعيون امتثالاً لأوامر المكتب الثاني؟ فلقد كنت على بيّنة من أمر هؤلاء الكتاب الذين يحوّرون في رواياتهم صورة الحياة في التعاونيات الزراعية السوفييتية (الخولكوز) فيبتعدون بها عن واقع حقيقتها. أفيكون الروائي البولندي نحا نحوهم في روايته لأغراض دعاوية كما يفعلون؟ ومرت عليّ أسابيع قطعت فيها صلتي بجميع الأندية، وما كنت لأشكو من ذلك لأني ما شعرت قط يوماً بأقل ارتياح في جو هذه الأندية. ثم وضعت، في مكتبة دار المعارف، جدولاً بجميع المؤلفات التي فيها كلام على القرون المسيحية الثلاثة الأولى، وجعلت أقرأها قراءة منتظمة. وبدأت بالروايات ليقيني أن الروائي الخليق بهذا الاسم يتقن فهم نفسية العصر أكثر من المؤرخ العلامة.

قرأت "أيام بومبيي الأخيرة" لكاتب انكليزي نسيت اسمه، ثم "فابيولا" للكردينال وازمن، ثم الروايات الفرنسية والألمانية والإيطالية التي تكلّمت في الموضوع. ولم يكن هؤلاء الكتاب ينتمون إلى مذهب مسيحي واحد، بل كان بعضهم ممن لا يؤمنون بالدين المسيحي. ولكنهم كلهم كانوا على اتفاق تام بشأن الحياة الجماعية التي عاشها المسيحيون الأولون. وبدأت هكذا أطّلع على حقيقة البيئة المسيحية الأولى؛ ثم أكببت على دراستها في كتب أشدّ ترصّناً من الروايات. وأول ما قرأت كتاب "حياة يسوع" للكاتب الفرنسي ارنست رينان، استجابة لنصح أحد المكتبيّين، ولم أكن أستطيع، يوم ذاك، أن أعرف أن "التاريخ" المزعوم لحياة يسوع، بقلم رينان، يحوي من الأسلوب القصصي ما تحويه الروايات والقصص. إلا أن هذه السيرة بدت لي جميلة جداً، وأحسست بحبّ عظيم لبطلها "يسوع الوديع ابن الجليل الضاحك"، وتفهّمت بيسر نفسية أولئك الرجال والنساء الذين لم تعوزهم من يسوع إلا نظرة أو دعوة حتى يتركوا أعمالهم ومنازلهم وعيالهم ويذهبوا في أثره... وأما

أن يكون رينان قد ناقش يسوع الحساب في ألوهته، فأمر ما كان قط ليزعجني، فإني ما كنت أبحث عن إله، بل عن مثل جديدة، لا غير، أركّز عليها حياتي على الأرض وفي الزمن. إلا أنّ أسلوب يسوع في التعليم ونمط حياته قد ظهرا لي في غاية الروعة.

وقرأت بعد كتاب رينان مؤلفات بعض المؤرخين ممن تمكنوا من كبت مخيّلاتهم، فكانوا على شيء من الأمانة للحقيقة التاريخية. والتهمت التهاماً مؤلفات هرناك وشتراوس وكينيوبر ولوازي العقلانيين، ثم ساباتيه البروتستانتي، ولاغرانج وبرا ودوشين وباتيفول الكاثوليك. وهنا أيضاً ما كنت أهتم لاختلافاتهم العقائدية، ولا لجدلهم في التأويل لكلمة قالها يسوع، ولا للفوراق في سرد الأحداث بين إنجيل وإنجيل. فالجوهر بالنسبة إلي أني وجدت عند الجميع اتفاقاً رائعاً في ما أبحث عنه... وهل يجوز الاعتقاد بأن ستالين وتروتسكي وريكوف رَوَوا كلهم رواية واحدة متفقة أخبار ثورة تشرين الأول وتاريخ نشأة الاتحاد السوفييتي؟ في حين أن كتّاباً من الكاثوليك والبروتستانت والملحدين يرسمون كلهم، عن حياة الجماعة المسيحية الأولى، لوحة واحدة قلّما تختلف ألوانها. وما عساي أستنتج غير أنهم كلهم يرجعون إلى مصدر واحد، وأن هذا المصدر حقيقة تاريخية لا شك فيها؟ فصحيح إذن أنه ظهر مبدأ كان من القوة والاندفاع بحيث تمكن من صهر أقوام مختلفي الأجناس، متبايني الطبقات، في قالب جماعة واحدة متآخية. وقد نجح هذا المبدأ في ملء الهوة القائمة بين السادة والعبيد، فأكبرت واستعظمت جداً أن أرى الكنيسة تكرم في مرتبة القديسين أمراء وعبيداً معاً. ووجدت أيضاً أن الجماعة المسيحية ترتكز على جدل مبني على الحب الكوني الشامل، فوجدتني مرغماً على الاعتراف بأن هذا الجدل قد برهن، على الصعيد الاجتماعي الذي كان

وحده مسيطراً على اهتمامي يوم ذاك، عن فعالية ما برهن قط عنها جدل الصراع الطبقي الذي أفلح فقط في استبدال الطبقة الحاكمة قبلاً، بدكتاتورية أقل ما يُقال فيها إنها لا تقل عنها قسوة ولا إنسانية.

وانسلخت بضعة أسابيع وبت ملمّاً إلماماً مرضياً بالبناء الراسي على بشارة يسوع الناصري. ولما كان جميع الكتّاب الذين قرأتهم يرجعون إلى مصدر واحد، هو الإنجيل، آن لي أن أبدأ بقراءته بنفسي. فأتيت أول مكتبة صادفتها واشتريت كتاب "العهد الجديد". ولشدّ ما كانت المفاجأة! أهذا هو كل حجم الإنجيل؟! وفي ذلك اليوم بعينه، وفي جلسة واحدة، قرأت الأناجيل الأربعة وكتاب أعمال الرسل. وأما رسائل القديس بولس ورؤيا القديس يوحنا، فبدت لي أقل شأناً وأصعب فهماً، فاجتزأت بالإلمام بها لا غير.

وكان لمعجزات المسيح وتلاميذه تأثير سيئ في نفسي. فخبرت بذاتي أمراً سأخبر حقيقته ألف مرة ومرة، طوال السنوات العاقبة. وهو أن المعجزات التي كانت تُعدّ من قبلُ كأنها الدليل الأكبر على صحة الدين المسيحي وصدقه، قد باتت اليوم (في الغرب) الاعتراض الأكبر على هذه الصحة! ففي العصر الوسيط تبارى المؤرخون والمخيّلة الشعبية في اختلاق الكثير منها ابتغاء الرفع من شأن بعض القديسين. وأما الإنجيل الرسمي فما كان ليعجّ بمثل هذه الكثرة من المعجزات، فظهرت الأناجيل المنحولة وأسندت إلى يسوع من المعجزات والعجائب، ما يبدو لنا صبيانيّاً. ذلك أن إنسان اليوم المثقّف يودّ لو أنه لم يحدث حتى معجزة واحدة، لأنه بدل أن يجد في المعجزة باعثاً على الإيمان بالمسيح، يلزمه أن يؤمن أولاً بالمسيح ليسلّم بعدئذٍ بمعجزاته!

إلا أني لا أدّعي أني مصيب في ما أقول، وأن الأوّلين كانوا على خطأ. وإنما أتلمس واقعاً أقرّ به، ولا بدّ للمبشّرين بالدعوة المسيحية والذائدين عنها، من

أن يأخذوه بعين الاعتبار. وقد أُعجبت جداً بأسلوب معجزات المسيح القصصي، إلا أني توسمت فيها أسلوباً أدبياً سبق له أن أتحفنا بإنتاج أدبي رائع كانت فاتحته أودسّة هوميروس، وكان يشمل، في نظري، فولكلور جميع الشعوب بخرافاتها وأساطيرها. ولم أكن لأنحي باللائمة على مثل هذا الإنتاج الأدبي، فقد جنّبني صدمة المفاجأة بوجود هذه الكثرة من المعجزات في حياة المسيح. لذلك جردتها يوم ذاك ببساطة كلية من كل شأن وأهمية. وإنما بدا لي هناك أمر خطير جداً ولا مناص لي من الإقرار به، وهو أنني ما كدت أقرأ الإنجيل لأول مرة حتى بهرني سموّ تعليم المسيح: فموعظته على الجبل تفوق بروعتها كلّ روعة، وشتّان منها جمال البيان الشيوعي! وكذلك القول في الأمثال الإنجيلية، ليس لما اتّسمت به من طابع شعري فقط، بل لأنها خصوصاً غنية بالمبادئ الرائعة. غير أني شُغفت الشغف كلّه بما كشفه لي الإنجيل عن سيرة يسوع: فهذه الوداعة، وهذا الحبّ اللامتناهي الذي خصّ به المعذبين على الأرض، وتلك المساواة الكاملة التي حققها بينه وبين تلاميذه من جهة، والطبقة الفقيرة من الشعب من الجهة الأخرى؛ فكلّ هذا من شأنه أن يدعم بصورة رائعة تعاليم الموعظة على الجبل وتعاليم الأمثال الإنجيلية.

وقارنت كذلك ما بين تلك الصداقة القوية والمفعمة حناناً بين يسوع وتلاميذه وأسرة بيت عنيا من جهة، والدسائس التي تمزّق صفوف الزعماء الشيوعيين من الجهة الأخرى. ثم ما أعظم الفارق بين موقف يسوع من خاطئة مجدل والمرأة الزانية والعشّارين وسائر الخطأة من جهة، والأساليب البوليسية المعمول بها في الاتحاد السوفييتي من الجهة الأخرى! ولم يظلّ عندي أي شك، بعد قراءة الإنجيل، في أن حياة الجماعة المسيحية، كما وصفها الروائيّون والمؤرّخون الذين قرأت مصنّفاتهم، مستوحاة رأساً من تعاليم يسوع. وعلّمني

كتاب "أعمال الرسل" أنه يوجد اتصال مباشر بين حفنة الرجال والنساء والملتفّين حول يسوع، وبين الجماعات المسيحية التي ازدهرت أجيالاً فأجيالاً، بعد ذلك، في رومة والاسكندرية وآسية الوسطى وبلاد الغال.

وكشف لي كتاب "أعمال الرسل" أيضاً عن حقيقة ما سلف لي أن سمعت بها من ذي قبل، وهي أنه حالاً بعد العنصرة كان الذين يؤمنون بيسوع، في أورشليم، يعيشون عيشة مشتركة؛ وكان كل شيء مشتركاً بينهم، وكانوا يبيعون أرضهم وممتلكاتهم ويوزّعون أثمانها على الجميع، لكلّ بحسب حاجته. فهل من شيوعية أسمى من هذه؟ إنه لم يبقَ لي أيّ شك في أن ما حقّقته الشيوعية الماركسية في روسية قد خيّب آمالي خيبة قاسية جداً. بيد أني لم أزل مقتنعاً من أن المثل الشيوعية هي من أجمل المثل وأنبلها، ومن شأنها أن تجذب على البشرية السعادة لو أمكن – على فرَض المستحيل – أن تطبّق بأساليب غير الأساليب المتّبعة في الاتحاد السوفييتي.

لقد كان حكمي على كل مبدأ فلسفي أو نظام اجتماعي، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بما بينه وبين المثل الشيوعية من قرابة ولو بعيدة. فالمجتمع المثالي الذي تصوّره أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، لم يكن البتّة شبيهاً بالمجتمع الذي يتصوّره الاشتراكيون المعاصرون، ومع ذلك فإنه كان مجتمعاً شيوعياً. وهذا حسبي، في نظري، لإيثاره على سائر الفلاسفة الأوّلين. وكذلك وجدتني أميل إلى المسيحية لأن كل ما علّمه يسوع، وما حقّقه هو وأتباعه من بعده على الصعيد العملي، تبدّى لي كأنه شيوعي. إلا أني انتظرت طويلاً قبل أن أظفر "بالباقي". وقد كان هذا "الباقي" بالنسبة إلى الصرح المسيحي، أهم جداً مما أعجبني فيه أول الأمر.

والآن وقد زدت تعمّقاً في معرفة المسيحية، يستحيل عليّ ألاّ أناهض كل

من يرى من واجبه أن يثور لمجرد سماعه بشيوعية يسوع والجماعات المسيحية الأولى. إنه يكون على حق لو كان يستحيل تأويل كلمة "شيوعية" إلا على الصعيد العقائدي. فيسوع وأتباعه لم يكونوا، في الواقع، يدفعون إلى دكتاتورية مطلقة، ولا إلى الاستيلاء العنيف على كل ملكيّة؛ وهو، بأولى حجة، أبعد ما يكون البعد عن تأسيس دولة ، تؤلّه نفسها، وتسحق الشخصية الإنسانية سحقاً. وعلى هذا فهيهات أن أكون الإنسان الوحيد، أو الأول، الذي أحس، عند قراءته الإنجيل وأعمال الرسل، أن المبادئ الاجتماعية المسيحية مبادئ شيوعية. وإنه لواضح أنه لم يكن أحد، حتى من أشد أتباع يسوع إيماناً به، ملزَماً بالتخلّي عن ممتلكاته الخاصة، ولا بالمشاركة في الحياة الجماعية: فكلام بطرس واضح كل الوضوح، فإنه في خطابه لحَنَنيا الذي انضم إلى الجماعة وباع أرضاً واختلس بعض ثمنها، يقول له: ":من منعك من الاحتفاظ بحقلك؟!" فالشيوعيون" المسيحيون لم يكونوا على أي كراهية تجاه الذين لم ينضمّوا إلى صفوفهم، وحياتهم الجماعية كانت تهيمن عليها ديمقراطية ليس كمثلها ديمقراطية.

وإذن يستحل علينا المقارنة بين ما حقّقته الشيوعية الماركسية عملياً من جهة، وما حققته الجماعات المسيحية من الجهة الأخرى. ولكن ما أن نتقصّى المحتوى السيكولوجي لأهداف كل منهما حتى يستحيل علينا تجاهل ما بينهما من قرابة وثيقة. فمعسكرات الأشغال والدكتاتورية البوليسية، وغيرهما من الظاهرات المميّزة للحكم السوفييتي، ما كانت، ولا شك في ذلك، لتحتلّ أي مكان في نفسية الغالبية الساحقة ممن أغوتهم المثل الشيوعية فاعتنقوها؛ وإذا هم أبدوا رضى وارتياحاً، فإما لأنهم أُقنعوا قسراً، أو لأنهم أقنعوا أنفسهم بأنها ظاهرات آنية فرضتها أحكام التاريخ. وعليه فليس من الحق في شيء أن نجعل

من الحكم السوفييتي أنموذجاً للشيوعية، وأن نتخذ منه مقياساً للحكم على غيره من أنواع الشيوعية. فجميع من عرف من الشيوعيين المخلصين، كانوا ينشدون في أعماق قلوبهم مجتمعاً متآخياً، ولو كان في قدرتهم أن يحقّقوه لما اختلف، في نظري، عن مجتمع الجماعات المسيحية الأولى.

فيتحتّم علينا إذن أن نخلص إلى هذه النتيجة: إن الاتحاد السوفييتي ليس إلا مختلساً للشيوعية، وإن شيوعية الماركسيين خالية من كل واقعية، لأنها نبذت وحي الإنجيل. هكذا تبدّت لي الأمور بعد قراءتي الأولى للعهد الجديد.

12) "شارل دو فوكو" (Père Charles de FOUCAULD)

من هو "شارل دو فوكو"؟

1. **ولد في فرنسا عام** 1958، **من عائلة نبيلة ثرية، عميقة الإيمان.**
2. **فقد والديه، ولمّا يبلغ السادسة من العمر.**
3. **عاش مراهقة مضطربة، وفتوة صافية، وفقد الإيمان.**
4. **دخل الكلية العسكرية في الثامنة عشرة من عمره، وتخرج منها ضابطاً بعد سنتين.**
5. **أُرسل إلى الجزائر، يوم كانت فرنسا تفرض احتلالها عليها... ولكنه واصل فيها حياة اللهو، حتى إنه فصل من الجيش.**
6. **كان في الرابعة والعشرين، عندما قام برحلة استكشاف لصحراء المغرب، كانت الأولى من نوعها، وكان يتزيّا بزي حاخام يهودي، وقد عاد منها بحصاد علمي استثنائي، وكذلك بشحنة هائلة من التساؤلات حول وجود الله ومعنى وجود الإنسان، وذلك نتيجة تأثره بمشاهد الإيمان لدى المسلمين الكثيرين الذين كان قد التقاهم خلال رحلته.**

7. في مطلع عام 1885، منحته الجمعية العلمية في باريس، الوسام الذهبي، فبات رجل الساعة فيها...
8. في شهر تشرين الأول من عام 1886، اهتدى إلى الإيمان المسيحي، على يد كاهن فرنسي يدعى الأب (Huvelin)، وقد امتد تأثيره عليه طوال حياته.
9. في مطلع عام 1890، انضم إلى رهبنة الآباء الصامتين (les TRAPPISTES)، في دير يدعى "سيدة الثلوج"، وأمضى فيه سبع سنوات في فرنسا.
10. في شهر آذار من عام 1897، قصد فلسطين، وبلدة الناصرة، حيث قبلته رئيسة دير "راهبات القديسة كلير"، خادماً بصفة بواب ومسؤول عن الحديقة...
11. في شهر حزيران من عام 1901، سيم كاهناً في "دير سيدة الثلوج" بفرنسا.
12. في شهر أيلول من عام 1901، وصل مدينة الجزائر، واختار منسكاً له بالغرب من واحة بني عباس، المجاورة لحدود المغرب... وبعد فترة انتقل إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، إلى واحة "تامنرست"، حيث بنى له منسكاً في غاية التواضع، شاءه "واحة محبة وأخوة" للجميع، وحيث انصرف إلى الصلاة والكتابة واستقبال الزوار الكثيرين، ومساعدة بعضهم، وإلى البحث في لغة وعادات الطوارق الساكنين في المنطقة.
13. في 1916/12/1، قضى شهيداً في منسكه.

تجدر الإشارة إلى أن ما تركه من إرث روحي وكتابات، أحدث اختماراً عميقاً وواسعاً، لا سيما في البلدان الأوروبية. وقد استلهمته

وتستلهمه حتى اليوم، على نطاق العالم، ستة عشر مؤسسة روحية، أهمها رهبنة أخوات يسوع الصغيرات، ورهبنة أخوة يسوع الصغار.

وقد رأيت أن أختار من هذه المؤلفات، بضع صفحات وردت في كتاب له بعنوان "كتابات روحية"، صدر في باريس عام 1947. وقد جاءت هذه الصفحات، صلاة له، يستذكر فيها حياته كلها، وعطايا الله له.

« من كتاب "كتابات روحية" (ص 74–85)

"أنا – حياتي الماضية – رحمة الله"

ربي يسوع، إصنع أفكاري، إصنع أقوالي.

إن كنتُ في تأملاتي السابقة، عاجزاً، فأي عجز يحلُّ بي في هذه!

ليست المادة هي التي تنقصني... على العكس، هي تسحقني! يا الله، ما أوسع مراحمك! مراحمك بالأمس، واليوم، وفي جميع لحظات حياتي، قبل ولادتي، وقبل جميع الأزمنة! أنا غارق فيها، هي تغمرني، هي تغطّيني، وتلفّني من كل جانب.

آه، يا إلهي، يتوجّب علينا جميعاً أن نشيد بمراحمك، نحن كلنا، وقد خُلِقنا للمجد الأبدي، واشتُرينا بدم يسوع، بدمك، يا ربي يسوع، الحاضر بالقرب مني، في بيت القربان هذا!

ولكن، إن كان ذلك يتوجّب علينا جميعاً، فماذا عساني أفعل أنا؟ أنا، مَن أُحِطتُ منذ طفولتي، بفيض من النعم، إذ كنتُ ابناً لأمّ قديسة، تعلمتُ منها أن أعرفك، وأن أحبّك، وأن أصلي إليك، في اللحظة عينها التي بدأت فيها أفهم أولى الكلمات! أوليست أولى ذكرياتي، تلك الصلاة التي جعلتني أمّي أردّدها صبحاً ومساءً:

"يا إلهي، بارك بابا، ماما، جدّي، جدّتي، وأختي الصغيرة"...؟ وتلك التربية

التقيّة!... تلك الزيارات للكنائس، وباقات الورود نضعها عند أقدام الصلبان، ومغارة الميلاد، والشهر المريمي، والهيكل الصغير في غرفتي، الذي احتفظت به طالما كانت لي غرفة مستقلة في بيت أهلي، والذي بقي فيها حتى بعد فقدي الإيمان!

ودروس التعليم المسيحي، والاعترافات الأولى، التي كان جدي المؤمن يسهر عليها... وهذه النماذج التقية التي وجدتها في أسرتي...

أرى نفسي ذاهباً إلى الكنيسة مع أبي (لكم أصبح ذلك بعيداً!)، مع جدي... أرى جدتي وقريباتي يحضرن القداس كل يوم...

ومناولتي الأولى، بعد استعداد طويل ومتقن، وأنا محاط بنعم وتشجيعات عائلة مسيحية برمّتها، تحت عيون مَن كانوا أحبّ الناس إليّ في هذه الدنيا...

ثم هذه المتابعة في دروس التعليم المسيحي، بإشراف كاهن طيب، تقي، ذكي، نشيط، فيما كان جدّي دائماً يشجّعني بالقول والقدوة، على المضي في طريق التقوى. وكانت أنقى النفوس وأجملها في أسرتي، تغمرني بتشجيعاتها وطيبتها...

وأما أنت، يا إلهي، وقد غرست في قلبي، تعلقي بهم، على عمق لم تستطع معه العواصف اللاحقة أن تقتلعه، فاستخدمتَه في ما بعد، من أجل إنقاذي، في حين أني كنت أشبه بميت، وغارقاً في الشر... وعندما أخذت بالابتعاد عنك، على الرغم من هذا الكم من النعم، كنت تستدعيني إليك بمنتهى الرقة، عبر صوت جدّي. وبمنتهى الرقة أيضاً، كنت تقيني من السقوط في المهاوي القصوى، إذ كنتَ تحفظ لي في قلبي، محبتي له!...

ولكن، على الرغم من كل ذلك، كنتُ وللأسف، أبتعد، بل أزداد ابتعاداً عنك، يا ربي وحياتي... كما أن حياتي أخذت تتحوّل إلى موت، أو بالأحرى،

كانت في نظرك، آنذاك، موتاً... وكنتَ أيضاً تحافظ علي، وأنا في هذه الحال من الموت... كنت تُبقي لي في روحي، ذكريات الماضي، تقديري للخير، تمسّكي الكامن كالنار تحت الرماد، ولكنه تمسّك أبداً حي، ببعض النفوس الجميلة والتقية، واحترام الدين المسيحي، ورجال الدين... كل إيمان لدي كان قد تلاشى، ولكن احترامي وتقديري له، ظلاّ سالمين... وكنتَ تغدق عليّ نعماً أخرى...

يا إلهي، أبقيتَ لي حب الدراسة، والقراءات الجادة، وقَرَفي من الخطيئة والبشاعة... كنتُ أفعل الشر، ولكني ما كنت لأرضى به، ولا أحبّه... كنتَ تُشعرني بفراغ مؤلم وبحزن، ما كنتُ لأشعر بهما إلا حينذاك... وكان الحزن يجتاحني كل مساء، عندما كنت أجد نفسي وحيداً في شقتي... وكان الحزن يُبقيني أبكم، كئيباً خلال ما يُسمّى السهرات الصاخبة: كنت أنظّمها، ولكني، خلالها، كنت في صمت، وقرف وملل لا حدود لها... كنتَ تثير فيّ هذا القلق المبهم، النابع من ضمير سيئ، كان، على الرغم من سباته، لايزال حياً بعض الشيء. لم أشعر يوما بهذا الحزن، وهذا الانزعاج وهذا القلق، مثلما كنت أشعر بها آنذاك.

يا إلهي، لقد كان ذلك إذن عطية منك... ولكم كنتُ بعيداً عن توقّعه!... لكم أنت طيب! وكنتَ، في الوقت نفسه، بفضل هذا الابتكار النابع من حبك، تحول دون غرقي المحتوم. وكنتَ تحفظ لي جسدي: فلو كنت متّ آنذاك، لكنتُ هويت في الجحيم... وما جنّبتني بمعجزاتك من حوادث ركوبي الخيل! وتلك المبارزات التي حُلّت دون حدوثها! وتلك المخاطر التي وقيتني منها جميعاً، خلال الحملات العسكرية، وتلك، الهائلة والكثيرة، التي أنقذتني منها خلال أسفاري، كما بمعجزة!... وتلك الصحة، التي ما كان ليطالها شيء، في أكثر الأماكن أذى، على الرغم من الأتعاب البالغة الشدّة!

آه، يا إلهي، لكم كانت يدك ترافقني، ولكم كنتُ بعيداً عن الإحساس بها. لكم أنت طيب! لكم حميتني! لكم خبّأتني تحت جناحيك، يوم كنت لا أسلّم حتى بوجودك! وفيما كنتَ تحافظ عليّ على هذا النحو، كان الوقت يمضي، وكنتَ ارتأيت لي أنه حان لي أن أعود إلى الحظيرة... ففكّكتَ، على الرغم مني، جميع علاقاتي السيئة، التي كان بمقدورها أن تبقيني بعيداً عنك... بل فكّكتَ جميع الروابط الصالحة التي كان يمكنها أن تحول دون عودتي إلى حضن هذه العائلة، حيث كنتَ تريد لي أن أجد خلاصي، تلك الروابط التي كان بوسعها أن تحول دون أن أكون لك وحدك بالكلية...

وفي الوقت نفسه، منحتَني حياة قائمة على الدراسات الجادة، حياة مغمورة، عيشاً منعزلاً وفقيراً... وكان قلبي وفكري مايزالان بعيدين عنك، ولكني، مع ذلك، كنت أعيش في جوّ أقل سوءاً... بالطبع كنت لاأزال بعيداً جداً عن النور والخير... ولكن لم أعد أعيش في وحل على هذا القدر من العمق، ولا في شرّ على هذا القدر من الفظاعة...

كان المكان يتنقّى شيئاً فشيئاً... كانت مياه الطوفان لاتزال تغطّي وجه الأرض، ولكنها كانت في انخفاض متواصل، وكان هطول الأمطار قد توقّف... كنتَ قد حطّمت العقبات، وليّنتَ روحي، وهيّأت التربة بإحراقك الأشواك والأدغال... وقد أرغمتَني، تحت ضغط الظروف، على الامتناع عن الزنى! وعندما عدتَ بي إلى أهلي في باريس، في نهاية شتاء عام 1886، باتت الطهارة بالنسبة إلي، شيئاً مُحبّباً، وحاجة لقلبي.

يا إلهي، أنتَ وحدك صنعتَ هذا، أنت، ولا أحد سواك. وللأسف لم يكن لي في ذلك، يد! لكم كنتَ طيباً! يا للسقطات المخزنة والمخزية التي أنقذتني منها! والفضل في ذلك كان لك وحدك، في بدايتها، وخلالها، وفي نهايتها! يا

لطيبتك! كان ذلك ضرورياً، كي تُعدّ نفسي للحقيقة: فإن للشيطان من السيطرة على الروح غير الطاهرة، ما يمنع الحقيقة من اقتحامها. يا إلهي، ما كان بوسعك أن تدخل في روح يسودها شيطان الأهواء السافلة!... أيها الراعي الصالح، كنتَ تريد الدخول إلى روحي، فقمتَ أنت بالذات بطرد عدوّك منها... وبعد أن طردتَه بالقوة، وعلى الرغم مني، عرفتَ ما بي من هشاشة، ومن بالغ عجزي بمفردي، عن الاحتفاظ بروحي في نقاء، فأقمتَ لها من أجل حمايتها، حارساً صالحاً، له من القوة والوداعة، ما مكّنه، ليس فقط من الحؤول دون أي تسرّب لشيطان الجنس إلى روحي، بل من جعل أفراح الطهارة بالنسبة إليّ حاجة ولذّة!

يا إلهي، كيف لي أن أشيد بمراحمك؟... فبعد أن طهّرتَ روحي من قذاراتها، وائتمنتَ عليها ملائكتك، شئتَ أن تعود إليها،يا إلهي، لأنها، حتى بعد أن حظيَتْ بكل هذه النعم، لم تكن لتعرفك بعد. وكان عملكَ متواصلاً فيها وعليها، وكنتَ تُبدّلها بقوة ساحقة وبسرعة مذهلة، وكانت لاتزال تجهلك بالكلية! وعندها، أوحيتَ إليها تذوّق الفضيلة، الفضيلة الوثنية، وتركتَني أبحث عنها في كتب الفلاسفة الوثنيين، فلم ألقَ سوى الفراغ والقرف... وعندها، جعلتَني أطالع بضع صفحات في كتاب مسيحي، وجعلتَني ألمس حرارتها وجمالها، كما جعلتني أتوقّع العثور فيها، لا على الحقيقة (إذ كنتُ لا أؤمن بقدرة البشر على معرفتها)، بل أقلّه على تعاليم عن الفضيلة، وأوحيتَ لي البحث عن دروس حول فضيلة وثنية صرف، في كتب مسيحية. وبذلك جعلتني أكتشف أسرار الديانة... في الوقت نفسه، كنتَ، على نحو متزايد، تشدّ الروابط التي كانت تجمعني بنفوس جميلة. فأعدتَني إلى عائلتي، وهي موضوع ارتباطي الشديد بسنوات شبابي وطفولتي... وجعلتَني

أستعيد إعجابي السابق بهذه الأرواح عينها، وقد ألهمتَها أن تستقبلني كالابن الضال، فلم تشعرني البتة بتخليّ يوماً عن بيتي الوالدي. وكنتَ تمنحهم حيالي، الطيبة ذاتها التي كنتُ وجدتها، لو لم أكن أخطأتُ قط. وكنتُ أزداد التصاقاً بهذه العائلة المحبوبة. وقد عشت فيها قدراً من الفضيلة، مكّنني من استعادة حياتي على نحو سريع. كان ذلك هو الربيع الذي يعيد الحياة إلى الأرض، بعد الشتاء... وبفضل هذه الشمس الوادعة، نمت رغبتي في الخير، وقرفي من الشر، وعجزي عن السقوط في بعض الخطايا، وبحثي عن الفضيلة... كنتَ قد طردتَ الشر من قلبي، وكان ملاكي الطيب قد استعاد فيه مكانه، وقد أحلتَ به ملاكاً أرضياً... في مطلع شهر تشرين الأول من عام 1886، وبعد مضي ستة أشهر من العيش بين أهلي، بتّ أعجب بالفضيلة وأطلبها، ولكني ما كنت قد عرفتُك بعد... يا إلهي الطيب، لكم ابتدعتَ من طرق، كي تمكّنني من معرفتك! ولكم من منعطف استخدمت! ولكم من وسيلة خارجية، رقيقة وقوية! ولكم من ظروف مدهشة ومتعاقبة، اتّفق كل شيء خلالها على دفعي نحوك: من وحدة غير متوقعة، ومشاعر، وأمراض أصابت أحبة لي، وعواطف حارة في قلبي، وعودتي إلى باريس، إثر حادث مفاجئ... ولكم من نعمة خارجية! منها هذه الحاجة إلى الوحدة، إلى الخلوة، إلى القراءات التقوية، إلى ارتياد كنائسك، ودون أن أكون آمنت بك بعد، وهذا الاضطراب في أعماقي، وهذا البحث عن الحقيقة، وهذه الصلاة: "يا إلهي، إن كنت موجوداً، فاجعلني أعرف ذلك!".

كل ذلك، يا إلهي، كان عملك، عملك أنت وحدك! وكانت هناك روح جميلة تسند عملك، ولكن بصمتها، بوداعتها، بطيبتها، بكمالها: كانت تريني ذاتها وحسب، كانت طيّبة، وتنشر عبقها الجذاب، ولكنها ما كانت لتقوم

بأي عمل. أنت، يا يسوعي، يا مخلصي، كنتَ تصنع كل شيء في الداخل، كما في الخارج. ولقد جذبتَني إلى الفضيلة بجمال روح، كانت فضيلتها تبدو لي من الجمال، بحيث كانت تجتذب قلبي دون مقاومة... وقد جذبتَني إلى الحقيقة، بجمال هذه الروح عينها. فمنحتَني عندها أربع نعم:

الأولى: كانت في إيحائك لي بهذه الفكرة: بما أن هذه الروح على هذا المستوى من الذكاء، فلا يمكن للدين الذي توليه هي هذا القدر من الثقة، أن يكون ضرباً من الجنون...

الثانية: كانت في إيحائك لي بهذه الفكرة أيضاً: طالما أن الدين ليس ضرباً من الجنون، فقد تكون الحقيقة، هنا، هذه الحقيقة غير الموجودة في أي دين آخر، ولا في أي منظومة فلسفية...

الثالثة: في ما قلتُه لنفسي: إذن، لندرس هذا الدين، ولأختر بالتالي مدرساً للدين الكاثوليكي، كاهناً مثقفاً، ولنرَ ما ينتج عن ذلك، وما إذا كان يتوجّب عليّ الإيمان بما يقوله هذا الدين.

الرابعة: كانت في نعمة ما بعدها نعمة، وذلك في اختياري الأب "هوفلان" (Huvelin) كي يدرّسني هذا الدين. فإنه، عندما أرغمني على دخول كرسي الاعتراف، في أواخر شهر تشرين الأول، ما بين 27 و30 منه، كما أذكر، منحتَني يا ربي، جميع الخيرات: فلئن كان فرح في السماء باهتداء خاطئ، فقد حدث ذلك، عندما دخلت كرسي الاعتراف هذا! فمنذ ذلك اليوم، لم تعد حياتي سوى سلسلة من البركات! فلقد وضعتَني تحت جناحي هذا القديس، واستطبتُ الإقامة. ولقد حملتَني بيديه، ولم يكن ذلك سوى نعم فوق نعم. سألته دروساً في الدين، فأرغمني على الركوع، وعلى الاعتراف بخطاياي، ثم دفع بي على الفور لتناول القربان... لا يسعني الامتناع عن البكاء، عندما

أتذكر ذلك. وأنا لا أريد حبس دموعي، لأنها أكثر من محقّة، يا إلهي. يا للدمع الذي يجب أن يسيل من عينيّ، كلما فكرت في مراحمك هذه! لكم كنتَ طيّباً! لكم أنا سعيد! ما الذي فعلتَه في سبيل ذلك؟ ومنذ ذلك الحين، يا إلهي، كان كل شيء سلسلة من النعم المتنامية أبداً: إنه مدّ صاعد... صاعد أبداً... في الاسترشاد، وأي استرشاد! في الصلاة، في القراءة المقدسة، في الحضور اليومي للقداس، وكل ذلك منذ اليوم الأول في حياتي الجديدة!

وفي الإكثار من التناول والاعتراف، بعد مضي أسابيع قليلة. وأما الاسترشاد، فقد ازداد حميمية وتواتراً، وأخذ يشمل حياتي كلها، حتى باتت حياة طاعة في أدق الأمور، والطاعة لأي معلم! وبات تناول القربان شبه يومي... وبزَغت رغبتي في الحياة الرهبانية، وترسّخت...

ثمة أحداث خارجية، لا علاقة لإرادتي بها، أرغمتني على التخلي عن أمور مادية، كان لها تأثير قوي علي، وكان يمكنها أن تكبّل روحي، وتشدّها إلى الأرض! لقد حطّمتِ بعنف هذه الروابط، والكثير من روابط مثلها! لكم أنت طيب، يا إلهي، لأنك حطّمتَ كل شيء حولي، وأزلتَ كل ما كان من شأنه أن يمنعني من أن أكون لك وحدك... ذلك الشعور المتمادي في العمق، بما للحياة الدنيوية من إغراء وخداع، وبما فيها من مسافة شاسعة بين الحياة الكاملة وفق الإنجيل، والحياة في العالم... وهذا الحب الرهيف والمتنامي، نحوك، يا ربي يسوع، وهذا التذوق للصلاة، وهذا الإيمان بكلمتك، وهذا الشعور العميق بواجب الإحسان، وهذه الرغبة في الاقتداء بك، وهذه الكلمة التي قالها "هوفلان" في إحدى عظاته، من "أنك بلغت في إصرارك على الركون إلى المركز الأخير، بحيث أن أحداً لم يستطع يوماً أن ينافسك عليه!"... هذه الكلمة المغروسة أبداً في روحي، وهذا التلهّف لأن أقدّم لك

أعظم ما يسعني أن أقدّم من تضحيات، فأتخلّى إلى الأبد عن عائلة كانت هي كل سعادتي، لأذهب إلى البعيد، حيث أحيا وأموت!

وهذا السعي وراء حياة شبيهة بحياتك، حيث تتاح لي مشاركتك على نحو تام، في هوَانك وفقرك وعملك الوضيع، وتلاشيك، وامّحائك، هذا السعي الذي ارتسم أمامي بكل وضوح خلال خلوتي الروحية في بلدة "كلامار" (Clamart).

وإنجاز هذه التضحية، يوم 1890/1/15، حيث سكبَتْ يدك عليّ، هذه النعمة العظيمة...

ودير الرهبان الصامتين (Trappistes)...

والتناول اليومي للقربان...

وما تعلمته طوال سبع سنوات في الحياة الرهبانية...

والإنعامات في دير "سيدة الثلوج" (N-D Des Neiges)...

ودراسة اللاهوت والفلسفة...

والقراءات...

والدعوة المميّزة إلى حياة مَذَلّة وامّحاء...

وتصريح الأب العام لي بتاريخ 1897/1/23، بعد ثلاث سنوات ونصف من الترقّب، بأن إرادة الله تقوم في اتباعي هذا الانجذاب الذي يدفعني، خارج النظام الرهباني المتّبع في دير الرهبان الصامتين (les TRAPPISTES)، نحو حياة مذلة والعمل الوضيع، والامّحاء العميق، التي كنت أتصورها منذ زمان بعيد...

ورحلتي إلى الأرض المقدسة...

والزيارات فيها...

ووصولي إلى بلدة الناصرة...

وإدخالك أيامي، يا إلهي، في أول يوم أربعاء لي فيها، بشفاعة القديس يوسف، إلى دير راهبات "القديسة كلير"، بصفة خادم...

وما غمرني هنا من سلام، وسعادة، وتعزيات، وإنعامات، وغبطة رائعة...

لسوف أرنّم بمراحم الله إلى الأبد...

تعالَوا وانظروا ما أطيب الربّ!

يا إلهي،

ليس لي، إزاء مثل هذه المراحم، سوى الاستسلام لك، والابتهال إلى العذراء القديسة، وإلى القديسين، وإلى النفوس التقية، أن يرفعوا الشكر بالنيابة عني، لأني أنهار تحت النعم!

آه، يا حبيبي، ما الذي لم تفعله في سبيلي؟

ما الذي تريده إذن مني، وقد غمرتَني على هذا النحو؟

ما الذي تتوقّعه مني، بعد أن أثقلتَني بعطاياك إلى هذا المدى؟

يا إلهي،

أُشكرْ ذاتَك فيّ!...

قم أنتَ فيّ، بتقديم العرفان والشكر والوفاء والحب، لذاتك!

يا إلهي،

إني أضعُف وأنهار!...

إصنع أنت أفكاري، إصنع أقوالي وأفعالي، كي يرفع لك كلُّ ما فيّ، الشكر والمجد.

آمين! آمين! آمين! »

مدرسة القديس بولس
فيطرون

عبادة الشيطان وطقوسها

"القداس الأسود"

مقدمة:

يشهد شرقُنا العربيّ انتشاراً متسارعاً لبِدعة عبادة الشيطان؛ وقد حصَدت هذه البدعة، في لبنان، عدداً من الشبّان المراهقين الذين قدّموا ذواتهم، بالانتحار، ذبيحة للشيطان بهدف إرضائه.

وقد انخرط في صفوف هذه البدعة حفنةٌ من الشبّان، عن استهتارٍ أو عدم معرفة، فكان أن أفلت البعض من فخاخها القاتلة، وعلِق الآخر فلقيَ حتفَه.

فما هي بدعة عبادة الشيطان وما هو القدّاس الأسود؟ ما هي أخطار هذه البدعة ودوافع الانضمام إليها؟ وكيف نساعد الإنسان على التخلّص منها؟...

أولاً: عبادة الشيطان:

أ. **تعريفها:** هي بدعة قديمة العهد، تقوم على تكريس الإنسان ذاته للشيطان، وذلك بتحرُّرِه من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية، في سبيل إرضاء الشيطان واتّقاء شرّه من جهة، والسيطرة على العالم، من جهة أخرى.

ب. **تاريخها:** ظهرت بدعةُ عبادة الشيطان، بشكلٍ واضح، مع أليستر كراولي (1875–1947)، البريطاني الأصل، في بداية القرن العشرين، فقد انضمّ هذا إلى جمعيّة سرّيّةٍ تدعى "نظام العهد الذهبي"، وما لبث أن أصبحَ المعلّم الأكبر فيها؛ ثمّ أسّس منفرداً جمعيّة "النجم الفضي". ودعا كراولي إلى أن يعيش الإنسان كما يحلو له، وبالطريقة التي يراها مناسبةً، دون أيّ رادع أو وازعٍ.

وتزعّم أنطون لافي (1930–1997)، اليهودي الأصل، بدعة عبادة الشيطان، بعد موت كراولي، وأسّس سنة 1966 معبداً للشيطان. ودعا لافي إلى تمجيد القوة، والاستمتاع بكل ما حرّمته الأديان. وقد انتشرت عبادة الشيطان، مع لافي، في أوروبا واستراليا وجنوب أفريقيا.

ت. مبادئها: دعا كراولي الإنسان إلى عبادة الشيطان وتمجيده، بالتفلّت من الضوابط كافّة، والعيش بما ينتاسب مع النزوات والأهواء؛ ودعا إلى نشر تعاليم عبادة الشيطان بين الشبيبة، عن طريق غوايتهم بجميع الوسائل، ولا سيما الإدمان على الكحول وتعاطي المخدّرات والممارسات الجنسية... وما إلى ذلك.

ودعا لافي، بالمقابل، في كتابيه، "إنجيل الشيطان" و"الذئب" إلى نكران الأديان كافّةً، وتكريس الذات للشيطان، لأنه قادرٌ على تأمين السعادة الحقيقية للإنسان، وجعله سيّداً في هذا الكون. ممّا يقوله لافي في كتابه الأوّل: "... اقتلوا الأجنّة في بطون أمّهاتهم، واشربوا دم الصغار، واصنعوا منه حساءً، واخبزوا في الأفران لحومهم، واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب...".

ثانياً: القداس الأسود:

أ. تعريفه: هو طقسٌ من طقوس عبادة الشيطان، يقوم على التقاء بضعة من الشبان والشابات في مكانٍ معدٍّ سلفاً، وإقامة شعائر تهدف إلى تمجيد الشيطان، والاتحاد به، والتقوّي بقوّته، من جهة؛ وإلى الكفر بالله، وازدراء إرادته، ومخالفة وصاياه، من جهة أخرى. وهذه الشعائر كثيرة، نذكر منها سماع الموسيقى الهدّامة، والرقص الدائري، السكر وتعاطي المخدّرات، وإقامة العلاقات الجنسية، بشكل جماعيّ وشاذ، وتقديم الذبائح الحيوانية أو

الإنسانية.

ب. مبادئه: لقد أُطلقت تسمية القدّاس الأسود عليه، لأنّ شعائره تختلف تماماً عن شعائر القدّاس الإلهي وتناقضها. فالاحتفال بالقدّاس الأسود يهدف إلى إعلان بطلان ألوهيّة السيد المسيح، وإعلان ألوهيّة الشيطان؛ وإلى تحقير الله، وتمجيد الشيطان؛ وإلى رذل وصايا الله، وتبنّي توجيهات الشيطان.

فكلّ ما هو مكرّمٌ في القدّاس الإلهي، كصُور القدّيسين والأيقونات، منتَهكٌ عند عبدة الشيطان؛ وكلّ ما هو مكرّسٌ أيضاً في القدّاس الإلهي، كالكأس والصينية، مُهانٌ عند عبدة الشيطان؛ وكلّ ما هو مقدّسٌ، أخيراً، في القدّاس الإلهي، كالقربان المقدّس، مدنّسٌ عند عبدة الشيطان.

ت. ممارستُه: يختارُ عبدة الشيطان مكاناً خاصاً لإقامة عبادتهم، فيكون بيتاً مهجوراً أو مقبرةً أو مكاناً معزولاً أو معبداً قديماً؛ ويحصل العبدةُ على ما يحتاجون إليه في احتفالهم سلفاً، من أوانٍ مكرّسة ومبخرة وشمع وصلبان، إلى الصور والأيقونات المكرّمة، إلى القربان المقدس.

ويجتمع عبدة الشيطان، يوم السبت عادة، ويكون عددهم 12، بحسب عدد رسل السيد المسيح، ويفتتح الكاهن، المرتدي السواد، الصلاة بالتبخير؛ ويعمل الجميع على إهانة كلّ ما هو مقدّس، من صور وأيقونات وصلبان... بشتّى الطرق والوسائل.

ويبدأ سماع الموسيقى الصاخبة والرقص الدائري؛ وعند قرع الجرس تبدأ الجماعة بممارسة العلاقات الجنسيّة ثنائياً وجماعياً؛ ويتلذّذ عبّاد الشيطان، أثناء ممارستهم الجنس، بالألم؛ ولذلك، يعلّقون على أجسامهم، آلات حادّة تؤذي الآخر أثناء مجامعته.

ويضاجع الكاهن ملكة الساعة، وهي فتاة مستلقيةٌ، بشكل صليب، على

هيكل في الوسط؛ وتكون الفتاة، عادة، عذراء، ويُحفَظ دم المجامعة مع العذراء، ويُمْعَن بواسطته بإهانة القربان المقدّس...

يُنهي الكاهن القدّاس الأسود بقتل حيوان وشرب دمه؛ كما يُنهي القدّاس الأحمر بقتل إنسانٍ وشرب دمه؛ ويكون القتيل الإنسانيّ عادةً طفلاً مولوداً في علاقةٍ جنسيّة في عبادة شيطانيّة؛ ويُقطّع جسم الطفل إرْباً إرْباً ويؤكل لحمه...

ثالثاً: أخطار عبادة الشيطان:

تُقسم الأخطار الناتجة عن عبادة الشيطان إلى جسدية ونفسية وروحية:

أ. الخطر الجسدي: تُعدّ عبادة الشيطان، بطقوسها كافّةً، ولا سيّما القدّاس الأسود، حكماً بالموت، وإن كان هذا الحكم بطيئاً أو غير منظور. فبدعة عبادة الشيطان تدعو أصحابها، جهراً، إلى تلبية رغبات الجسد ونزواته، بالإدمان على الكحول، وتعاطي المخدّرات، والقيام بالعلاقات الجنسية الحرّة.

وإذا كان الإدمان، على الكحول والمخدّرات أو غيرها، يقود صاحبه إلى أمراض كثيرة يؤدّي العديد منها إلى الموت أو يسهّله، فإن الانضمام إلى عابدي الشيطان، وممارسة شعائرهم، هو حكمٌ على الجسد بالموت والفناء.

ب. الخطر النفسي: تُعدّ عبادة الشيطان، بطقوسها كافّةً ولا سيما القداس الأسود، قراراً بالانتحار. فبدعةُ عبادة الشيطان تدعو مؤيّديها، علانيةً، إلى التلذّذ بشرب الكحول، وتعاطي المخدّرات، والقيام بالعلاقات الجنسيّة الجماعيّة الشاذة.

وتقود هذه الممارسات صاحبها إلى الإدمان، الذي يؤدّي بدوره إلى العبوديّة، فالإنسان المدمن يشعرُ بأنه عبدٌ لمادّته القاتلة ولا يمكنه فعل شيء

للتخلّص منها؛ وعبودية المدمن لمادّته القاتلة تقوده، شيئاً فشيئاً، إلى اليأس من الحياة؛ فحياة المدمن تضحي سعياً موتوراً للحصول على مادة الإدمان، ونشوة آتية من جرّاء تعاطيها؛ واليأس من الحياة يقود المدمن، إذا ما طال، إلى التفكير بالانتحار، وقد يقوده إلى الإقدام عليه.

ت. الخطر الروحي: إن اختيار عبادة الشيطان هو اختيار للموت الروحي بدل الحياة مع الله. فقد تجسد السيد المسيح آخذاً صورة الإنسان، وعاش في ما بيننا مشابهاً لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة؛ ومنحنا، بحياته وموته وقيامته، الخلاص، أي نعمة الحياة معه. وهذا الخلاص هو ثمرة استمرار حبّ الله للإنسان؛ فكما أحبّنا الله فخلقنا، أحبّنا وتجسّد من أجلنا، وأحبّنا وخلّصنا من خطيئتنا ومن عبوديّتنا، وأحبّنا وأعطانا الحياة الأبدية.

وقد حرّرنا السيد المسيح من خطيئتنا، فلم تعدْ الخطيئة سبباً للموت، بل سبيلاً لاكتشاف محبّة الله المطلقة للإنسان؛ وحرّرنا السيد المسيح من الموت، فلم يعُد نهايةً لحياة الإنسان، بل بداية حياةٍ أبديّةٍ مع الله. فهل نختار الحياة مع الله، أم الموت مع الشيطان؟

رابعاً: الشيطان في اللاهوت المسيحي:

تعترف الكنيسة المقدّسة بوجود الشيطان؛ وهو، بحسب الكتاب المقدّس والتقليد الكنسي، كائن روحيّ، خلقه الله ملاكاً، لكنّه، باختيارٍ حرٍّ، رفض الله وملكوته رفضاً باتّاً وثابتاً، فخسرَ نعمة الحياة معه. ويعملُ الشيطان على إغواء الإنسان؛ ولا سيما بالسلطة والشهرة والمال، فيستميلُه إليه، ويقود حياته، داعماً بذلك موقفه الرافض لله.

وتستهوي الخطيئة الإنسان، فيكرِّس لها حياته، ويبتعد عن سر التوبة والاعتراف، وبالتالي عن الله، فتغدو أعماله شريرةً، ونفسه تربة خصبةً لسكنى

الشيطان. ويرى الشيطان في هذه النفوس، التي أضحت، بابتعادها عن الله، ضعيفةً، مكسباً خالصاً وتابعاً أميناً، ومتراساً منيعاً في وجه الله.

خامساً: دوافع عبادة الشيطان:

إن لعبادة الشيطان دوافع تربويّة ونفسية، كثيرة ومتشعّبة، نختصر أبرزها في اثنين: محاولة تحقيق الذات من خلال رفض النّظم والقواعد المجتمعية؛ والحاجة الماسّة إلى جماعة تملأ الفراغ العاطفي.

أ. تحقيق الذات من خلال رفض المجتمع: إن القول الشائع، "كلّ ممنوع مرغوبٌ" هو قول صحيح إلى حدّ كبير؛ فيمكن المراهق أن يتوجّه إلى عبادة الشيطان لأنها أمر محظّرٌ وممنوع ليس إلاّ.

فعندما يبلغ الولد سنّ المراهقة يسعى إلى تحقيق ذاته من خلال القيام بالأعمال المميّزة، أو من خلال رفضه لما يفرضه المجتمع من عادات وتقاليد وأعراف؛ فيُثبتُ من خلال تحقيق أعمال مميّزة أنّه مميّز، ويؤكّد من خلال رفضه لأمر ما حريّته في الاختيار، وموقفه المستقلّ. وبما أنّ رفض العقائد الدينية يُظهر الإنسانَ على أنّه مميّز في اختياره عن كثير من الأشخاص، يلجأ بعض المراهقين إلى إبراز الذات وتحقيقها من خلال رفض العقائد الدينية والممارسات الطقسية.

إنّ عدم تمكّن المراهق من تحقيق ذاته بالسبل السليمة، ولا سيما بالأعمال المميزة، يدفعه إلى تبنّي موقفٍ معارض لكلّ ما هو متعارَفٌ عليه في المجتمع، فيظهر على أنّه كائنٌ مميّز.

ب. محاولة ملء الفراغ العاطفي: لقد أكّدت الأبحاث العلميّة والتجارب العمليّة أن الإنسان يحتاج إلى العطف والحنان أكثر من حاجته إلى الأكل أو الدواء. وإذا شعر المراهق بفراغ عاطفي، ناتج عن استحالة تبادله الحبّ مع

أشخاص آخرين؛ يمكن أن يلتحق بجماعة عبادة الشيطان، التي تؤمّن له ما ينقصه في العائلة أو المجتمع الذي يعيش فيه.

سادساً: مساعدة عابد الشيطان:

يجدر بنا، في إطار مساعدة عبّاد الشيطان، التمييز بين الإنسان وتصرّفاته؛ فإذا كان تصرّف الإنسان سيّئاً، فإن الإنسان نفسه يبقى خليقةً محبوبةً من الله؛ وعلينا مساعدته بالرغم من ضعفه؛ ويمكن تحقيق ذلك بوسائل عديدة، أهمّها:

أ. تفهّم عابد الشيطان بعد الإصغاء إليه، وإقامة حوار أخويّ معه يساعده على رؤية الأمور على حقيقتها.

ب. تأمين جوّ عاطفيّ متوازن من خلال الانتماء إلى جماعة روحيّة.

ت. مساعدة عابد الشيطان على القيام بنشاطات، يؤدّي النجاح فيها إلى الشعور بالفرادة والتميّز.

ث. قبول عابد الشيطان ومحبّته كما هو، بالرغم من ضعفه.

سابعاً: وجوه عبادة الشيطان:

لا تقتصر عبادة الشيطان على الأشخاص المنضمّين إلى هذه العبادة؛ بل ثمّة العديد من العابدين له، بتصرّفاتهم وأفعالهم، دون حاجة إلى إعلانٍ للأمر أو انضمام إلى جماعة.

فالكذب والسرقة، والسُّكر والإدمان، واستباحة الأخلاق العامّة... كل هذه عباداتٌ شيطانية حديثة. وباختصار، إنّ كل مخالفة متكرّرة ومتعمَّدة لوصايا الله، دون العودة الدوريّة إلى سرّ التوبة والاعتراف، هي وجه جديد من وجوه عبادة الشيطان.

ثامناً: مواجهة عبادة الشيطان:

يمكن الإنسان اعتماد وسائل عديدة لصَوْن نفسه وتحصينها في مواجهة العبادات الشيطانية؛ ومن أهمّ هذه الوسائل:

أ. تجنّب رفاق السوء: يجدر بالإنسان أن يختار الرفيق المناسب في حياته؛ فرفيق السوء يقود رفيقه إلى حيث لا يريد، ويُعرّفه بأشخاص لا يرغب التعرّف بهم... ويُضحي الخروج من هذه الحلقة أمراً بعيد المنال.

ب. تجنّب بعض أنواع السهرات: يرتبط السهر عموماً، بضعف قدرة الإنسان على المراقبة الذاتية، بسبب الإرهاق والتعب، لا سيما إذا اقترن السهر بشرب الكحول... ويجدر بالإنسان أن يتجنّب بعض أنواع السهرات، ولا سيما في العلب الليلية (Night-Club) التي تشكّل أرضاً خصبة لجميع أنواع عبادة الشيطان.

ت. توطيد العلاقات الاجتماعية: يعاني الإنسان في حياته من صعوبات ومشاكل كثيرة، وتتطلّب بعض المشاكل لحلّها مساعدة الآخرين؛ لذا يجدر بالإنسان الحفاظ على علاقات مميزة، لا سيما مع الأشخاص المتفهِّمين والمساعدين.

ث. تعميق العلاقة بالله وتعزيزها: تشكّل العلاقة مع الله ضمانةً مطلقةً في تحصين الذات ضد البدع الشيطانية؛ ويسعى الإنسان إلى تمتين علاقته بالله عن طريق ممارسة الأسرار، حيث يحصل على نعمة خاصّة تعملُ مع إرادته على أن يكون في اتحاد مع الله؛ وعن طريق الصلاة، وهي تعبيرٌ عن تعلّقنا بالله واتحادنا به، وهي مصدرٌ للقوة والارتياح والسلام الداخلي.

تاسعاً: القانون وعبادة الشيطان:

يكفلُ القانون اللبناني حرية الرأي والمعتقد، وعليه لا يمكن للقضاء أن يُلاحق عابد الشيطان بسبب قناعاته أو أفكاره؛ ولكنّ القانون، في المقابل، يعاقب على ازدراء الأديان، وعلى أيّ مسٍّ بالشعائر الدينية.

أما حملة الملاحقات التي نشهدها اليوم فلا تطال عقيدة الإنسان وقناعاته، بل ما يقوم به من شعائر أو طقوس مخالفة للقانون، كمثل المسّ بالأخلاق العامّة أو المشاعر الدينية.

خلاصة:

إن عبادة الله وعبادة الشيطان كلاهما ممكنان. لكن العبادة الأولى تُفضي بالإنسان إلى الحياة مع الله بينما العبادة الثانية تقود الإنسان إلى الموت مع الشيطان.

وبمقدور الإنسان، وإن كان ضعيفاً ومُستهدفاً من الشيطان، الاستقواء بالله والاتحاد به على حد قول القدّيس بولس: "أنا قويٌّ بالذي يقوّيني".

الأب سامر نعمان البولسي

13) شابة جريئة:

« شهادة حياة

"كنت ميتةً، فأحيتني دموعُ أمّي"

إنّها قصة وصرخة شابّة لبنانية تناهز الثامنة عشرة من عمرها، حين أرادت أن تبني حياةً جديدةً مستقلّةً عن رعاية والديها. فإليك عزيز القارئ، بقلمها، شهادة حياة مؤلمة، عنيفة، وربّما قاسية، علّها تزرع فيك الاندفاع نحو الصلاة والتأمّل بالذي قال: "ثقوا أن كلّ ما تطلبونه بالصلاة.تنالونه" (مرقس 24/11)

في الرابع عشر من شهر أيّار سنة 1999، فاجأتني أمّي بحفلة صغيرة لذكرى ميلادي الثامن عشر. لم يكن والداي على علمٍ بموعدٍ كنتُ قطعته مع شاب وسيمٍ سبق أن تعرّفت عليه منذ فترة وجيزة. ولكن، كي لا أخيّب أملهم، وأنا ابنتهما الوحيدة على صبيّين تتراوح أعمارهما بين الستّ والثماني سنوات، حضرتُ السهرة المقامة، لمدة ساعتين فقط، ومن ثمّ مضيت في طريقي لأكمل سهرتي مع ذلك الشاب.

يا للرعب!

كنتُ معه في السيّارة أتأمّله جيداً. متمنّيةً أن تنشأ علاقة صداقة وحبّ بيننا، نظراً للطافته وكلامه المعسول الذي كان يرنّ في أذنيّ. وما هي إلاّ دقائق حتى وصلنا إلى مكانٍ مقفرٍ، مظلم، تكسر نيرانُ لُهُب الحطب المتّقد الأجواء المظلمة من بعيد، وتتعالى صيحات غريبة على إيقاعات موسيقى صاخبة، فسألته عمّا يكون ذلك وعن مكان هذه السهرة. فأجابني بابتسامة رقيقة: يا حلوتي الليلة السهرة غير شكل. إنزلي حتى أعرفك على أصحابي.

كان المكان مظلماً. ونحن نسير ببطء نحو النور الآتي من لهب النار. فما إن وصلنا، ونحن متشابكو الأيدي، حتى رأيت أبواباً عليها صلبان. فعلمت على الفور، أنّ هذا المكان هو مقبرة ليس إلاّ.

لم يتسنّ لي الوقت لأحيّي الموجودين. فصرخت لكي يعيدني إلى المترل. فحضر بعض الأشخاص ليزيلوا عنّي مخاوفي. فوجئت بأمور أثارت فيّ الرعب. وطرحت بذهني أسئلة عدة: ما هذه النجمة المرسومة على الأرض، وهذه الصلبان المعكوسة المطليّة على جدران المقابر، إلامَ ترمز هذه الشعائر؟ ولِمَ يرسمون الرقم 666 على أجسادهم ويطلون بها الجدران؟

حاولت إخفاء قلقي، وأن أكون طبيعية أمام الجميع.

بدأ الكل بالرقص، بعد إعلان أحد المشاركين بأن النصاب قد اكتمل.

حاولت أن أكسر مخاوفي أكثر، وأشاركهم بالرقص والغناء، فنجحت. وحين قدم لي أحدهم "سيجارة"، اعتذرت منه، بسخرية، "ما تعودت على الدخان". فقال لي: خذي هذه فقط، وأنا أقاسمك إيّاها.

يا للهول!

ما إن وضعتها على شفتيّ حتى رأيت الكل يدور حولي والبعض الآخر يطير والبعض ينظر إليّ بغرابة ويضحك. فانهمرت القبل على وجهي وكتفيّ من دون مانع أو رادع. فسقطت على الأرض. ولم أعد أدري ماذا حصل. إلى أن أيقظني الشاب في السيارة بالقرب من منزلي عند منتصف الليل.

دخلت المنزل وكان الكل نائمين.

هكذا مضت أول ليلة على ما يرام. فماذا عن الأيام الآتية؟

في الصباح التالي حين أيقظتني أمي لمتابعة دروسي في الجامعة، شعرت بألم بيدي اليُسرى. لم أكترث للموضوع.

بعد مرور يومين شعرت بحاجة ماسة لمقابلة ذلك الشاب ورفاقه، وكانت دمائي تتعطش لأمر ما، إذ دفعتني لارتكاب الحماقات مع الأهل.

بلهفة كبيرة وولع، لم يسبق أنني اختبرته من قبل، رحت أبحث عن أحد من هؤلاء. لا جدوى من ذلك. وبالصدفة، ما هي إلا ساعات معدودة حتى تلقّيت مكالمة هاتفية من ذلك الشاب، يدعوني لسهرة أخرى.

فرحتُ حيث قيل لي إن موعد اللقاء الثاني، قد حدّد نهار الجمعة المقبل، أي بعد أربعة أيّام. كنت أنتظر تلك الليلة بلهفة قوية.

وفي ذلك اليوم عينه، بينما كنت أخلع ثيابي لكي أدخل الحمام وأستحم، لاحظت تورّماً في يدي اليُسرى، مع بقعة زرقاء. علمتُ بعدئذٍ أنهم أعطوني حقنة خفيفة من المخدّرات.

في الليلة المنتظرة، جاء الشاب، وترافقنا إلى المكان نفسه. كانت الساعة التاسعة مساءً. الكل يستعد للحفلة الراقصة والفجور الذي سيتخللها. الكل يترقّب أيضاً، قدومنا بين الحين والآخر. وما هي إلا لحظات حتى رأيت رجُلين يفتحان السيارة ويُخرجانني منها. لم أكن أدري كيف انزلقتُ بهذه السهولة.

عندما بدأ الاحتفال، قُدِّم لي سيجارة تحتوي على الحشيش، وآخر جاءني بحقنة من المخدّرات... شعرت بلذّة غريبة وبنار تحرق عروقي، وتدفعني لممارسة الجنس.

تقدّم مني شابّان عاريان. خلعا ثيابهما السوداء. وربطا شعورهما. وبدأ الأول بمداعبة جسدي، والآخر بتقبيلي. فكانت أول علاقة جنسية أقيمها في حياتي.

نمتُ على نجمة خماسيّة رُسمت على الأرض. وإنّ واحداً من هؤلاء. جاءني بمادّة لونها أحمر، ومسح صدري بعلامة 666، وعند أعضائي التناسلية، رسم صليباً معكوساً. وانتزع من عنقي سنسالاً فيه صورة السيدة العذراء مع صليب الرب يسوع.

رأيت شابة عارية تأخذ السنسال وتلاعب فيه أعضاءها التناسلية للإثارة. فلم أعد أعي شيئاً لأنني كنت في حالة قوية من التهيّج، فقد مارست الجنس مع أربع شباب. كنّا حوالي 13 شاباً وشابة أعمارنا ما بين السابعة عشرة والثلاثين من العمر. الكل في حالة العراء. عند انتهائنا من هذا العمل. أُتي بصحنٍ موضوع عليه قربان (مقدّس) بعدد المشاركين. أخذت إحدى الشابات قربانة وراحت تلامس بها أعضائي التناسلية وصولاً لثدييّ. فخفت للوهلة الأولى أن هذا القربان، هو جسد ودم يسوع المسيح. فصفعتني بكفّها قائلة: هذا هو المسيح، ونحن نؤمن بذلك، وسننال منه وندنّسه بشتى الوسائل المدمّرة والفاحشة.

كنت تحت تأثير المخدّر والإثارة الجنسيّة. فتصرّفت بالقربان المقدّس بطريقة فظيعة. حتى إنّي دستُه وبصقت عليه.

مرّة أخرى، ومن جديد، عاودنا الحفلة الجنسيّة حول جسد الرب يسوع المسيح الذي وُضع على حجر كبير وسط الجماعة بالقرب من النجم الخماسي. كان الشباب يضربون القربان بأعضائهم التناسلية ويحيّونه قائلين: سلام لك يا عروس الكنيسة" كما أنهم تصرفوا معي بطريقة قوية ومثيرة، هذا ما أمن لي لذّة لم أختبرها من قبل. وقد علمتُ فيما بعد. أن هذه الحفلة المقامة تُسمّى بالقداس الأسود الشيطاني.

مضت أكثر من حفلة، والآتي هو الأشرّ والأفظع. إنه الالتزام النهائي بختم العماد. فماذا عن ذلك؟

عدتُ إلى المنزل في الساعة الثانية والنصف ليلاً. دخلت المنزل وكان الكل نائمين. ما عدا والدتي، التي رأتني في حالة يُرثى لها. في البداية لم تكلّمني بأي كلمة، فقط رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع. قبّلتني ورسمت على جبيني إشارة الصليب، وقالت لي: فلتحمكِ أمُّنا مريم من الأشرار.

لم هذا التأخر؟ كدت أموت خوفاً عليك.

فطمأنتها بأنني كنت في حفلة، شربت حتى الثمالة.

دخلتُ غرفتي لأخلد إلى النوم، فرأيت بقعة أخرى على يدي بالقرب من الأولى. حاولت أن أُغمض عينيّ، فلم أستطع لأن الصليب المعلّق على الحائط كان يثير فيّ الرعب. فانتزعته وعلّقته في حمّام الغرفة.

في الغد، لاحظت أمي غياب الصليب من الغرفة، وأنني لم أعد أحتمل أحداً منهم في المنزل فدار شجارٌ عنيف بيننا، انتهى بإهانة أمّي ونعتها بالغبية، لأنها تؤمن بالقدّيسين وصورهم، وبالصليب والعذراء مريم. فإن كانت قدّ تورّمت

ذراعي من الحُقن، فالآن قدّ تورّمت من صفعة أمي القوية، والتي وبّختني بعنف على صوت خافت: "لن أخبر والدك بهذا الأمر، لئلا يصيبه مكروه، فإن حالته لا تسمح له بسماع تفاهاتك"؟

"خير لي أن أمضي وأبني مستقبلي بيديّ، فإني لا أطيق العيشة معكم بعد اليوم. أريد أن أتلذّذ وأشعر بأنني محبوبة ومثيرة وألفت أنظار الرجال نحوي. أريد أن أحيا كما أريد، أتفهمين؟"

كانت الصاعقة الكبرى على والدتي عندما سمعتني أتفوّه بمثل هذه التفاهات.

بقي هذا الأمر خفياً عن والدي الذي لاحظ تبدّلاً كبيراً في تصرّفاتي، وبخاصة تجاه إخوتي الذين لم أعد أحتملهم، رغم محبتهم وتعلّقهم بأختهم الوحيدة.

بدأت تصرفاتي تأخذ منحىً سلبياً، أثّر بالكلية على الجو العائلي. أصبحت منفعلة، أوصد باب غرفتي دوماً، أنفرد لأحيا بذكريات قضيتها مع أولئك الشباب وممارساتهم الجنسية معي.

اتصلت على الفور بصديقي وأطلعته على خطورة الأمر الذي أعانيه مع الأهل. فدعاني إلى منزله ليخفّف من اضطرابي. كانت الساعة الحادية عشرة ظهراً حين التجأت إليه. كانت غرفته مليئة بالصور الفاجرة، ونجوم وعلامة 666. أردت الاستفسار عن كل هذه الأمور، ووعد بأنه سوف يرسمها على جسدي يوم أؤدي القسم الشيطاني.

بعد استراحة قليلة، عاودنا العمل الجنسي، هذا ما دفعني لأتعلّق به أكثر وأحبّه بولع، وأسأله عن يوم انعقاد السهرة المقبلة.

قبل انصرافي من منزله، وضع في عنقي تعويذة شيطانية تحميني من الأشرار

والأعداء وتؤمن لي السعادة. ورسم على ظهري علامة بمادة حمراء، علمتُ فيما بعد أنها دماء حيوانية، رسم صليباً معكوساً، وقبّلني بشغف، ومن ثم عدت إلى منزلي مرتاحة، غير آبهة لما سيقوله أفراد عائلتي.

عند دخولي المنزل، رأيت أمّي راكعة على الأرض أمام صورة السيدة العذراء والسيد المسيح، تصلي، تبكي، وتقول كلمات لم أطق سماعها. فقلت في نفسي: أنت حقاً غبية شمطاء. فلتحلّ عليك لعنة الشيطان علّه يهديك. تعتقد أمي أن العذراء ستتمكن من الحد من سعادتي التي اخترتها. أنت حقاً غبية.

دخلتُ غرفتي بالرغم من اشتياق إخوتي الصغار لي، ولمداعبتهم واللعب معهم. كانوا يقرعون الباب ويصرخون: افتحي لنا يا أختنا، فإننا بحاجة إليك، نحن نحبك ومشتاقون إلى ذراعيك التي تضمنا وتحملنا. لماذا تهربين منا؟ ألعلك أصبحت تحبين أولاداً آخرين؟ يبدو أنك ما عدت تحبّينا.

فشهقت حينئذٍ أمي بالبكاء، وأخذت إخوتي وأخبرتهم بأنني أمر بفترة عصيبة. بدأت أميل لسماع الموسيقى الصاخبة، لأنها تذكرني بتلك الليالي الجميلة. هذا ما سبّب كثيراً الانزعاج لأسرتي. لكن عندما كان يحضر أبي إلى المنزل، أتصرّف بطريقة شبه طبيعيّة كي لا يصيبه أي مكروه، يودي بصحته.

في أحد الأيام، خرجت من المنزل للقاء ذلك الشاب، إذ كنت على موعد معه، فنسيت أن أوصد باب غرفتي – هذا الأمر الذي لم أكن أعمله أبداً – فدخلت أمي لتتفقّد الغرفة، فصادفها الرقم 666 على سريري، وصليباً معكوساً معلّقاً على الحائط. استفسرت فوراً عن الموضوع، وما تحمله هذه الشعارات من معان، فأُخبرت بأنها رموز وشعائر شيطانيّة يتّبعها عبدة الشيطان وكل من انتمى إليهم.

طلبت أمي نصائح عدة من المقرّبين منها – تحت السريّة – فنصحوها بالصلاة أو نذرها للسيدة العذراء، فهي الجندية التي لا تُقهر ولا تُغلب.

وبنصيحة هؤلاء، فعلت ذلك. أقامت لي قداديس وصلوات عدّة ونذرتني إلى ملكة السماء قاهرة الشياطين، كل ذلك لكي أعود إلى أحضان الكنيسة.

حاولت مراراً أن تأخذني معها إلى القداس أو الصلاة، فكنت ألعن وأشتم تلك الأعمال. وكلّما تصرّفت على هذا النحو، كلما أصبحت أمي على يقين بأنني منتمية إلى عبدة الشيطان.

فقد قالت لي أمي في إحدى المناسبات الكنسية وهي تبكي: ستعودين يوماً ما راكعةً باكية عند أقدام أمّك، طالبة السماح على ما تقومين به من حماقات.

حاولت نزع الصور المقدّسة من المنزل، لكن لا جدوى، فقد كانت تهدّدني أمي بأنني إذا فعلتُ ذلك تكون عاقبتي وخيمة.

في كل مرة كنت أمرّ بجانب الكنيسة أو مزار للعذراء أو لأحد القدّيسين، كنت أبصق عليه وأجدّف، وأطلب من الشيطان ألاّ يحرمني من ملذّات هذه الدنيا، وأن يُبعد عنّي قوّة المسيح وأمّه، لكي لا أعود إلى حياتي السابقة.

لقد وجدتُ في تلك الأيّام المتعة واللذّة، الحريّة، الفرح، السعادة...

حدّدت لي جماعة عبدة الشيطان التي انتميتُ إليها، موعداً للانتساب النهائي معهم. فكان ذلك الوقت مساء الجمعة، كانت تحتفل الكنيسة به بعيد كبير للسيدة العذراء، كان المكان خرباً بعيداً عن أنظار العالم كلّه. فكيف كانت عمليّة انتسابي هذه إلى كنيسة الشيطان، كما أخبروني وعلّموني، أنّه لا يوجد كنيسة للمسيح، بل للشيطان، لأن الكل سيصبح جماعة تؤمن بالشيطان، على أنه هو الملك الوحيد والحقيقي، وله تجوز العبادة؟

في تلك الليلة، حضر رجل غريب أصلع الرأس يضع قناعاً شيطانياً على

رأسه من فوق علامة 666 وجمجمة، فأخبرني فيما بعد أحدهم أنّه كاهنهم الكبير، وعن هذه الإشارات التي تزيّن رأسه. فقال لي: إنها علامة تُعطى على الرأس للذين ينالون رتبة الكهنوت الشيطاني.

كان ذلك الكاهن يحمل بيده مشعلاً مضاءً. في وسط الحلقة الكبيرة موقد مليء بالحطب بانتظار أن يُشعل بالنار. طرحتُ استفساراً آخر عن هذه الأمور. فأجابني الشاب، صديقي، بأنّ الليلة سيُحتفل برتبة الانتساب أو العماد الشيطاني لك. إفرحي لأنك ستصبحين ابنة للشيطان. وكاهننا العظيم هذا هو الذي سيمنحك هذه الرتبة. فافعلي كل ما يأمرك به ولا تخافي إذا اقترب منك.

كانت تقف بالقرب منه شابّة في السابعة والعشرين من عمرها، حاملة بيدها كأساً، علمتُ أنها تحتوي على دماء تيس الماعز، وأنّ هذا الدم، نظراً لغياب دم بشريّ، هو ختم العماد الشيطاني الذي سأُختم به.

حين دنا مني الكاهن، نزع عن وجهه القناع، وبدأ بتقبيلي ومداعبة جسدي، ومن ثم أعطاني ورقةً كُتب عليها قانون يلزمني بالطاعة لكل ما يُطلب مني. قرأتها جيداً، وأعلنتُ عن تجديفي على كنيسة الرب يسوع المسيح، وإلحاق الأذى بها مرتكبة الشرور تجاه كل مسيحي، وكل من يؤمن باسم الله. وعند انتهائي من أداء القسم، أعطاني المشعل وهو يصلّي للشيطان ويقول: إقبل أيها الشيطان، أيا اللهب الأسود العظيم، هذه المنتسبة إلى كنيستك، وضمّها إلى خدّامك. أشبعها في كل وقت من ملذّاتك.

تناولت المشعل لأوقد النار في الموقد، فتعالت صيحات: السلام لك أيها الشيطان، فبدأوا يرقصون بفجور ويدورون حول النار بعكس عقرب الساعة، ويصلّون الأبانا أي أبانا الذي في جهنّم... فطلب الكاهن من الجميع أن

يخلعوا ثيابهم السوداء، لأنه عند انتهاء الرتبة المقامة لي، سيحتفلون بالقداس الأسود.

أُتيَ بجسد المسيح (القربان المقدس) وقد شكر الكاهن جهود العناصر التي تمكّنت من سرقة القربان من الكنيسة، ووضع على حجر كبير أمام محرقة الحطب. كما أذكر، بأنه وُضع أيضاً شرشف على الأرض، رُسم عليه نجم خماسي. فدنا مني الكاهن وخلع عني ثيابي، ومن ثم طلب مني أن أخلع عنه ثيابه.

نمت على الأرض، وبدأ يمارس معي الجنس بطريقة غير اعتيادية، وكان واقفاً بالقرب منا خمسة رجال، ينتظرون موعد انتهاء الممارسة الجنسية.

بعد ذلك طُلب مني أن أنحني أمام صورة الشيطان. أذكرها جيداً. كان يشبه تيس الماعز. يسلّم بيده اليسرى، ويجلس على الأرض ورجلاه ملفوفتان على بعضهما. سجدتُ له وحيّيته بكلمتهم الشهيرة: السلام لك أيها الشيطان.

جاءني الكاهن بكأس تحتوي على الدم، وختم جبيني بنجمة مخمّسة، وصليب معكوس قائلاً لي: لقد أصبحت ابنة للشيطان، فيجب أن تؤدي له الطاعة وإلا فأنت ملزمة بأن تقرّبي ذاتك ضحية له، وإذا تهرّبت من تأدية واجباتك، فهو قوي قدير لن يدعك ترين الراحة في الليل، لأنه سيملأ حياتك بالألم والخوف والرعب.

أتقبلين الشيطان وتكرّمينه على أنه ملكنا وإلهنا، وترفضين المسيح؟ نعم أقبل الشيطان، وأرفض المسيح. فأتاني بالصينية التي وُضع عليها القربان المقدّس وقال لي: وجهي لعنتك نحو من رفضته، فأخذت قربانة ورميتها على الأرض ودستها: أكفر بالمسيح وبكل تعاليمه وبكنيسته، وبأمّه التي تصلّي لها والدتي، لكي تردّني إلى أحضان الكنيسة.

في ختام هذه الرتبة، جاءت معاونة الكاهن بشفرة وجرحت يدي اليسرى

لتأخذ دماً من دمائي، لكي يكون العهد مع الشيطان مختوماً بالدم، وبدأت الحفلة الداعرة. كنت أحاول أن أبقى بالقرب من صديقي، لكي أُقيم معه العلاقة الجنسية، لكن الأمر يفرض بأن نكون كلنا لبعضنا البعض. غضبتُ في أول الأمر لرؤيتي إياه يمارس الجنس مع شاب آخر، لكن تحت تأثير الحشيش لم أعد أفكر بالأمر. من الأمور التي أذكرها أيضاً في تلك الليلة التي تلقّيت فيها العماد الشيطاني، أنّ الكاهن جاءني بصليب، عندما كنت تحت تأثير الحشيش، وراح يداعب به صدري ومن ثمّ أدخله في عضوي التناسلي. لم أتمكّن من مقاومة أحد لأني كنت في حالة قوية من التهيّج الجنسي. ما أذكره أننا قمنا برتبة القداس الأسود الذي انتهى بتقدمه كأس لكل منا. كل واحد بعد تناوله القليل منها، يهتف السلام لك أيها الشيطان. وحين جاء دوري وشربت، أذكر جيداً، طعم الشراب، لقد كان في غاية الملوحة والقرف. وعندما سألت أحد الرفاق عما يكون هذا الشراب، أجابني إنه بولٌ ودم تيس الماعز والسائل المنويّ الذي حفظناه في أثناء ممارستنا الجنسية. كانوا يعتقدون أنه ينالون قوة الشيطان الذي يمنحهم المتعة واللذة والسعادة، لأنه سيلُ إبليس الذي يروي كل عطشان.

شعرت بالغثيان، وكان هذا من الدوافع التي جعلتني أشمئز من هؤلاء.

بدأ الكاهن يصلي، ودعا معاونته لكي تأتي بالصينية الموضوع عليها القربان المقدّس، كما طلب من إحدى المشاركات العاريات أن تصعد على طاولة وُضع عليها شرشف مرسوم عليه نجم خماسي. فبدأ بالجماع معها.

وما أن انتهينا، حتى وضع عليها القربان المقدس، فراح يلعن ويشتم ويصلي إلى الشيطان، لا أذكر ماذا قال. ومن ثم تناول قربانة ودعا الكل للاقتراب من المناولة بسخرية وتجديف، وعند أخذنا إياها بفمنا نقول:

فليلعنك الشيطان إلهنا. انتهى هذا القداس برش المزيج الذي شربنا منه. فقد أخذ الكاهن صليباً ورشّ به المكان ليتقدّس ولتحل عليه بركة الشيطان، وقد أعلن عن موعد قريب، فيه سأؤدي الطاعة للشيطان، من خلال تنفيذ عمل شيطاني سأقوم به.

هذا ما أذكره حقيقة وما كتبته في مذكّراتي اليومية.

عدت إلى المنزل منتصف الليل أي حوالي الثانية ليلاً. والمصيبة أن والدي كان يشاهد برنامجاً على التلفزيون وأمي نائمة، مسكينة، لأنها استيقظت على شجار قوي وعنيف دار بيني وبين أبي، لتأخري في المجيء.

استيقظ إخوتي الصغار وراحوا يبكون، لعلمهم أنّ والديّ قد ضربني. فركضوا نحوي وعانقوني بعتاب قائلين: ظنناك قد متِّ. لماذا تقتلين حبّنا لك؟ ما الذي غيّرك يا أختنا؟ إلى من نذهب، مع من نلعب، من سيطعمنا البوظة؟ فانهمرت دموع والديّ لسماعهما إخوتي. وقالا لي: الله يهديك يا بنتنا. أشفقي علينا وعلى إخوتك الذين يحبّونك ويفتقدون حضورك معهما.

دخلتُ غرفتي قاصدة الانتحار. بينما كنتُ أحاول قطع أحد عروقي بالشفرة، قرع أخي الصغير الباب، وهو يرجوني أن أفتح له لينام بجانبي. (لست أعلم. وكأن العذراء أرسلته ملاكاً لينجيني من الموت، إنها صلوات أمّي...).

تعال حبيبي. قلت له. تعال إني مشتاقة إليك كثيراً. فدار حوار بيننا، جعلني أشعر بمسؤولية كبيرة أُهملها.

بقيتُ على هذه الحال حوالي الثلاث سنوات ونصف السنة.

في السنة الأولى، كان الأمر خفياً على الأهل. إلى أن بدأت تظهر شيئاً فشيئاً كل علامات التغيير في علاقاتي العائلية، كان ذلك في منتصف السنة الثانية، التي نلت فيها العماد الشيطاني.

كنتُ خائفة من الموعد المقبل ومما سيخبئه لي أمر الطاعة الشيطانية. حاولت أمّي مراراً، أن تكلّمني، فكنتُ أصدُّها وأهجّم عليها. فوضعتُ لها حدّاً يفهمها، أنني قد انتسبت إلى عبدة الشيطان.

مسكينة أمي. لم تعرف النوم طوال سنتين ونصف السنة. ولم يعرف المنزل الهدوء والسكينة والاطمئنان.

في أحد الأيّام تغيّب والدي مساءً عن المنزل. وبينما كنت أتحضّر لامتحان في الجامعة. سمعت بكاءً وهمسات توجّع. خرجت إلى الصالون، فرأيت أمّي راكعة تصلّي إلى السيدة العذراء. تبكي وتقول: بحق أمومتكِ يا مريم ساعديني. ما كان موقفك حين أضعتِ ابنكِ يسوع في الهيكل؟ لا شكّ أنكِ تألمتِ كثيراً لضياعه، وفرحت أكثر حين وجدتِه في بيت أبيه، في الهيكل. أرجوك أيتها الأم السماوية، فأنا أمّ مثلك، قد أضعتُ ابنتي، علّك تساعدينني لأجدها، فأنت تعلمين أين هي. ارحميني وارحمي قلب أمّ يتوسّلك، افعلي معها شيئاً يعيدها إلينا، إلى كنيسة الرب يسوع. ما بالك صامتة يا عذراء. أترين؟ لقد جفّت دموعي من البكاء، ارفعي صلاتي إلى الرب ليعيدها إلينا سالمة.

لم أرَ يوماً أمي تبكي هكذا، فقد أثارت في قلبي المتصلّب شعوراً غريباً، ينصُبُ أمامي حاجزاً بتأدية "الطاعة للشيطان". ماذا لو علمت بكلّ ما فعلت؟

بعد مرور شهر واحد، وأمّي لا تكفّ عن الصلوات والتبخير في المنزل. استجابت السماء صوتها. كان ذلك الشهر هو الأخير لموتي عن عائلتي وكنيستي.

جاءني اتصال طارئ يدعو الكلّ لحفلة سأؤدي خلالها الطاعة للشيطان وجماعته. كالعادة، كان المكان المحدد، مقبرة، في ساعة متأخرة من الليل، أي حوالي الحادية عشرة. اجتمعنا كلّنا هناك. كنتُ أرغب كثيراً في أن أقيم علاقة جنسية لأروي النار التي تسري في عروقي.

بدأنا بالعلاقات الجنسية، على أصوات الموسيقى الصاخبة. وفي الساعة الثانية عشرة، حضر الكاهن ومعاونته، لأُخضع للامتحان. فوجئت بباب المقبرة يُفتح، وبثلاثة شبان يُخرجون تابوتاً.

وُضع التابوت حول موقدة الحطب، ورُفع عنه الغطاء. وشابان آخران عريانان، أخرجا الميت من التابوت ووضعاه على الأرض حيث رُسمت نجمة خماسيّة.

(علمت لَمَ هذه العجلة في الدعوة الطارئة. لأنه سبق أن احتُفل بجنازة في النهار نفسه. وكان الميت رجلاً، ومازال طازجاً). خُلعت الثياب عن الميت. فاقترب مني الكاهن وقال لي: باسم الشيطان القدير الذي قد أصبحت ابنة له، فأنت مجبرة على تأدية الطاعة لما أطلبه وما يطلبه منك الآخرون. يجب عليك أن تمارسي الجنس مع الميت. كما كنتِ تقيمينه معي. ومع إخوتك المشاركين، إنهم يرون بذلك العمل تدنيساً وانتهاكاً لأجساد الأموات، مثلما يدنّسون القربان المقدّس (جسد السيد المسيح).

عند سماعي هذا الكلام، دارت الدنيا برأسي وكدتُ أسقط على الأرض ميتةً. شعرتُ بقوة تسندني، وتدفعني لارتكاب حيلة. فقلتُ له: هلاّ أمهلتني بضع دقائق، لأنّ هذا الأمر قد أثار فيّ الخوف والقرف، فأريد أولاً أن أقضي حاجتي.

وضعتُ عليّ فستاني، وأشكر الله أن هاتفي الخلوي كان في الجيب.

بينما كان الكل ينتظر عودتي، فررتُ هاربةً مستنجدةً السماء واختبأتُ بين الصخور على الأرض، حيث كان الحشيش مرتفعاً. رحتُ أبكي وأنادي العذراء لتنجّيني من هذه الليلة المميتة. وقطعت وعداً على نفسي، بأنني إذا بقيت حية وعدتُ سالمة إلى المترل، سأعود إلى حضن أمي وأبي. ومن شدّة خوفي سقطتُ على الأرض وغفوتُ، ولم أعد أدري ما حصل إلى أن طلعت الشمس.

اتصلت بوالدتي وطمأنتها بأنني سالمة وسأعود نهائياً إلى المنزل.

كانت لحظة اللقاء مؤثّرةً، كلانا قد بكى. لكنّني جثوتُ عند أقدام أمي، أطلب منها أن تسامحني، فأخذتني في أحضانها، تبكي وتشكر العذراء مريم، فقد وعدتها والدتي بأنها ستغفر لي كل ما فعلت. أخبرتها بكل صراحة كيف كنت أسخر منها عندما كانت تصلّي لأجلي فشكرتها وقبّلتُ خدّها واعترفتُ لها: لولا دموعك يا أمي لبقيتُ ميتةً.

عاد السلام إلى المنزل، وفرح إخوتي الصغار بعودتي النهائيّة إلى البيت.

خضعت للتهديد أكثر من مرّة، لكنني وعدتُ بأن لا أقرّ عنهم إذا ما توقّفوا عن ملاحقتي. ندمت كثيراً على ما فعلته، بخاصة بجسد السيد المسيح. ففي كل مرة أتقدّم من المناولة، أبكي وأستغفر الرب على ما قمت به من تدنيس عنيف تجاه هذا السر العظيم. وأثناء صلاة الشكر، كنت أشكر العذراء التي سمعت توجّع قلب والديّ. لقد كنت ضحية اللذة المدمّرة والمخدّرات. أشكر الله لأنني لم آخذ الكثير منها وأصبحت في مرحلة الإدمان. كما أشكر الله الذي أرسل أخي في تلك الليلة التي قصدت فيها الانتحار.

وها إني الآن أتوجّه بتصريحي الجريء والعنيف هذا، إلى الذين هم ضحية أولئك الأشرار، العصابات الشيطانية، بأن يعوا خطورة هذا القرف والانحطاط الأخلاقي الذي يستحيل على الحيوان أن يعيشه.

كما أتوجّه أيضاً إلى كلّ أب وأمّ. إلى عصب العائلة، وأطلب منهم أن يهتمّوا بتربية أولادهم على مبادئ الدين والأخلاق، لأن هذا درعهم وترسهم ضد كلّ بدعة وعصابة شيطانية تريد الفتك بالعائلات المحصّنة.

في الختام، لا بدّ لي من أن أشكر السيدة العذراء التي أبعدت مني كلّ تأثير شيطاني. كنتُ أظنّ، أنه سيرافقني ويعذّبني، كما قال لي الكاهن الشيطاني.

فعلاً، أنت يا مَن تقرأ هذه الأسطر، سوف تستغرب كثيراً الجرأة التي أكتب فيها. ربّما، تكون شهادتي الدافع الذي سيساعد الكثيرين من الضحايا الذين مازالوا في أوّل الطريق، على أن يعلموا بوضوح كلّي وتامّ، ماذا ينتظرهم.

وشكراً لك

التوقيع

شابّة جريئة

كانت ميتةً، فأحيتها دموع أمّها »

14) الأستاذ ندرة اليازجي

« لماذا آمنتُ بالمسيح

أنا إنسان ولدتُ في دين المسيح، ولكني تمردت على دين المسيح مراراً. وأكببت على دراسة الفلسفات المثالية، ودراسة الأديان على اختلافها، متعمّداً بذلك نقض المبادئ المسيحية. غير أني بعد محاولاتي تلك، لم أجد بدّاً من العودة إلى دين المسيح، يدفعني الإيمان في الباطن على تحقيق إنسانيّتي في كمال صورها. وأما الأسباب فأوجزها بما يلي:

قلت إني تمرّدت على دين المسيح، وكان ذلك في سن مبكّرة من حياتي، على كوني كنت شغوفاً بالمسيح وتعاليمه منذ نعومة أظفاري. وإنما انفجرت الثورة عليه في نفسي، يوم توفيت أختي، وكنت أحبها كثيراً، و(رفض) هو ندائي، وتعهّدي بأن أقف حياتي كلها على خدمته إن هو حال دون موت أختي. وإذ ذاك ارتميت بكل ذاتي بأحضان الفيلسوف الألماني فريدريك نيشته حتى العشرين من عمري. وأخذت بمبدأ "الإنسان الأعلى" (السوبرمان)،

متحدّياً كل فكرة دينية. غير أني في تلك السنة عينها، أدركت أن الإنسان الأعلى هو الإنسان نفسه في صيرورته إلى الحقيقة. حقيقته هو، وإلى الكمال، كماله هو في الوجود الإلهي. وعدتُ إلى المسيحيّة "الجديدة" التي أسبغت عليها صفة العقل الإنساني... فتصوّفت تصوّفاً عقلانيّاً.

فكان أن إيماني بالمسيحية المشوب بالعقلانية آنذاك، قادني إلى دراسة الديانات الأخرى، وساقتني هذه الدراسة إلى التركيز على البوذية بوجه خاص، البوذية وإيمانها والنرفانا. واتّهمت أنني بوذي، ولكنني لم أكن سوى بوذي يتأمّل في المسيحية! وبعد تأمّل طويل في البوذية، أدركت أن بوذا، على كونه يمثل درجة روحية عالية، لا يبلغ كمال المسيح. وأدركت أن الفلسفات كلها، والأديان كلها، لا تصل إلى ما وصلت إليه المسيحية. ولكن كيف أدركت هذا؟

رأيت أن العقل الإنساني يمثل الدرجة الأولى في سلم الحقيقة، والإيمان الثانية، والتحقيق الروحي الكامل الدرجة الثالثة والأخيرة. ولكل من هذه الدرجات امتدادات. فالعقل الإنساني يتأرجح في امتداده بين الحواس والفكر، أي تصور ما هو أعلى مرتبة من الحسّ، والإيمان يتأرجح بين مجرّد الاعتقاد بفكرة مثالية وتحقيق الفكرة بوجه روحي. والتحقيق الروحي الكامل يعني الدخول في محراب درجة التحقيق الروحي الكامل. أما بوذا فيمثل محلاً بين الإيمان والتحقيق الروحي الكامل.

وأدركت أن طاقتي العقلية مهما سمت، لا تستطيع بلوغ درجة التحقيق الروحي الكامل، لأن العقل، في امتداده، يصل إلى درجة الإيمان فقط. وعندما يصبح العقل مؤمناً، يدخل عالماً روحياً جديداً، ويفهم الحياة فهماً حدسياً عميقاً، ويشعر بالوجود شعوراً كلياً وواحداً. وهكذا أصبحت أعلم أنني أمام

عالم مطلق الحقيقة. وما عقلي سوى درجة أولى في هذه السلسلة العظيمة من الوجود. وأدركت أيضاً أني أسمو بقدر ما يسمو عقلي في درجته أولاً. فلم أتنكّر لطاقة العقل، وبقدر ما يتسامى في درجات الإيمان والتحقيق الروحي، وبقدر ما يتجاوز بالقدر ذاته حدود المادة. وإذا بي أتعلّم من المسيحية السموّ الروحي والوجداني الفائق.

قام إيماني بالإنسان على مجرّد إيمان بعقل عظيم قادر ومتفوّق. إلا أن إيماني فيه سما وتعالى بعدما أدركت أن في الإنسان يسكن ملكوت الله: "إن ملكوت الله فيكم" قال المسيح، إن ملكوت الله الكائن في أعماق كياني هو سرّ كياني. وإنه ملكوت روحي بكامله، ووجود أبدي عميق يكمن في ذاتي. ولكن، من أكون حتى أحمل في ذاتي سرّ هذا الملكوت! وبهذا علّمتني المسيحية، ومازالت تعلّمني، أني كائن متفوّق، سامٍ، وجعلتني أؤمن بنفسي، وأقدرها، وأن أؤمن بالإنسان وأعتبره ثمرة خلق صالح وعظيم وهادف. وأصبح إيماني هذا مرتكزاً على تعليم المسيح أن ملكوته في الإنسان، وأن هذا الملكوت حياة الله بذاته في الإنسان.

فتشت طويلاً عن الحقيقة، أين أجدها؟ بحثت عنها في تضاعيف الكتب، فاضطرب قلبي لأنها بدت إلي في ألف لون ولون. فضعت وضللت سواء السبيل. وصحت غير مرة مستنجداً: من ينقذني من جحيم تفكيري وغمار ظلامه؟ وإذا بصوت سرّي يهمس في أذن نفسي: "اعرفوا الحق والحق يحرركم" أجل، يحرركم من قيود الجهل والجهالة، يحرّركم من سلاسل عبادة الذات، التي تظهر أكثر ما تظهر في التفكير الذاتي المستبد، فتنبت المذاهب التي لا يأخذها حصر، فيصدم بعضها بعضاً، ويقوم بعضها على أنقاض بعض. إنها أبداً في قيام وانهيار لا يعرف الاستقرار إليها سبيلاً، لأن الاستقرار والحقيقة توأمان لا ينفصلان. وحدها الحقيقة تحرّر، وتُدخل على القلب

الطمأنينة. والحقيقة قائمة في مملكة الله التي سيطرت على مملكة الأرض. وحيث الحقيقة فهناك الحرية وهناك الاستقرار.

وعلمني الفكر المسيحي أن المسيحية جامعة، شاملة. إنها تمتد على الكون المادي والكون الروحي معاً، وتتجاوز مملكة المادة، بل ترفعها. وشمول المسيحية هذا يجعل من البشرية بأجمعها أسرة واحدة، تنعم بالسلام في كنف أبوّة الله الجامعة. فإذا الناس جميعهم أخوة، وكل إنسان أخ لكل إنسان، بل جميع الناس إنسان واحد، بوجود واحد وصور وجدية متعدّدة من الناحية المادية فقط، لأن تعليم المسيحية هو أن شمولها العالمي، الإنساني، الجامع، إنما يرتكز على عقيدتها العظمى بأن جميع الناس على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأممهم، يؤلفون جسداً روحياً واحداً، هو "جسد المسيح السري". ثم إن سقطة الإنسان الأولى، وما أوقعته به من الاضطراب في عقله وقلبه، في روحه وجسده، هزّ وجداني وضعضع أسسه. ودفعني هذا السقوط، سقوط الإنسان الأول، في هوّة سحيقة من القلق والتشوّش العقلي. وبتّ أتساءل هل للإنسان وسيلة تنهضه من كبوته؟ واعتقدت أن العقل الإنساني قادر، بطاقاته العظيمة، على إنقاذ الإنسان. وإذا بي أجد في العقل أداة للخير والشر معاً، وسيلة للصعود والسقوط. فشككت في قدرته على خلاص الإنسان.

وفيما كنتُ أضرب في رحاب الوجود، على غير هدى، أبصرت على قمّة مرتفع صليباً باسطاً ذراعيه حتى أقصى أقاصي الأرض. إنه صليب مخلّص البشرية بأجمعها، وأحسست بأني قد صُلبت إلى جانبه، واقتناعي الصميمي أن من يُصلب مع المسيح، فهو الذي يخلُص. أوَلم يقل المسيح نفسه: "من لا يحمل صليبه ويتبعني، فلا يستحقني".

وكنت قد ابتليتُ بجنون العظمة في أيامي السالفة. وقد تجسّد هذا الجنون في

تفوّق الكبرياء ونشوة النصر والفخر، ولكنه تجسّد أيضاً في شعور مرهق بالقلق والاضطراب والفراغ. وتساءلت كثيراً علام تقوم عظمتي؟ وعلى من أتكبّر وبمَ أفتخر؟ وما هذه النشوة السراب التي تسيطر عليّ؟ وكيف أتيح لنفسي الانسياق في مثل هذا الضياع. فينهشني في الباطن مثل هذا العذاب المرّ...

ووجدت الجواب لأسئلتي، وجدته في التطويبات الكبرى السرمدية التي نطق بها ذات يوم، المسيح، معلّم الإنسانية الأعظم. فتأكد لي أن عظمة الإنسان تكمن في البساطة، وأن قوّته تتحقق في "الضعف"، وأن كبرياءه في التواضع. وتأكد لي أيضاً أن ملكوت السماء، ملكوت الله، يحيا في داخل المتواضع، ونقي القلب.

هناك، في المسيح وتعليمه، وجدت السر العظيم لكل عظمة: إنه سر المحبة والمبدأ الذي يتعالى على كل مبدأ. ولما كان الله هو المحبة، والمبدأ الذي يتعالى على كل مبدأ، كانت المحبة هي أنبل ما في الكون. وفي بادئ الأمر، فهمت أن المحبة تسمو على الحب. فالحب تعبير عن ميل، والمحبة تتسامى على الميل. غير أني أدركت أن المحبة هي أسمى من مجرد كونها تسامياً على الحب: فالله محبة، وهو يجمع الكون كله في إرادته ومحبّته. وهذا من بعض الوجوه، ما يطلق عليه اسم "الجاذبية" في عرف العلم. والمحبة هي جاذبية الخلية للخلية، والذرة للذرة، هي تماسك الوجود بعضه مع بعض، ولولا هذا الملاط، ملاط المحبة، لتنافرت العناصر وانفرط عقد الوجود!

المحبة تضحية وعطاء لأنها شعور بالوجدانية والإنسانية. ولا يضحّي إلا من يحب. لذلك ضحى المسيح، بدافع محبّته للعالم، بحياته، باعتبار نفسه ممثلاً للإنسان، للإنسان كله. وهكذا تجمعت المحبّة كلها في المسيح، في شخصه، وبتضحيته جمعها كلها فيه.

المحبّة شعور عميق بإنسانيّتي، بأنني إنسان، كل إنسان. وعندما أحبّ، فإن من أحب هو أنا. فأتألم من أجله، وأحمل ثقله، بعد إذ حمل المسيح العالم كله في جسده، وفي روحه، فكان أعظم مثال للمحبة. إنه مبدأ لا يعلو عليه مبدأ آخر. وقد وجدته في المسيح، وما وجدت بين الأنبياء والقديسين من عبّر عن المحبّة، عن انسجام الكل في واحد مثل المسيح. وكنت أبتغي أن أحتفظ، طوال أيام حياتي، بصور كبار المفكرين والعظماء، وأهل العلم. فوجدت أن كل صورة تعبّر عن ناحية وتفضي عن نواحٍ، فهذا اتصف بالوداعة، ولكنه أخطأ في شيء ما، وهذا قام بأعمال جليلة، ولكنه انقاد لنزوة ما، وهناك قديس أو نبي كداود مثلاً، زلّت به قدمه رغم قدرة النبوّة فيه، وهناك من تعالى كبوذا الذي حقق النرفانا ولكنه عاش عيشة الأفراد. أما شخصية المسيح، شخصيته العظيمة، فإنها تختلف عن كل شخصية أخرى. فقد وُلد في مغارة، وسلخ الحياة في قداسة لم تشبها شائبة، ولم يذكر عنه قط أنه لامسه أي قلق أو اضطراب لهفوة، لأنه ما هفا قط ولو ظل هفوة. والتوراة من قبل، نعتته بأنه القدوس، والقرآن، من بعد، يعترف له بأنه الوحيد الذي لم يأثم، وأنه "آية العالمين". فطوبى لكل إنسان يتخذ من شخصية يسوع النورانية، غراراً لبناء شخصيته: "إنه الطريق والحق والحياة".

تلك، بإيجاز، الأسباب التي من أجلها أنا مسيحيّ، وأعتزّ بمسيحيّتي.

الأستاذ ندرة اليازجي »

15) الدكتور خالد يازجي

« شهادة طبيب كان ملحداً

شهادتي أكتبها بخط يدي لكل من يهمّه أن يقرأها.

أذكر أني كنت في الصف الثالث الإعدادي عندما التقيت صديقاً في المدرسة صرّح لي بأنه لا يؤمن بوجود الله! وكانت تلك صدمة بالنسبة إلي، إذ لم أفكر بهذا الأمر من قبل، ربما بداعي الخوف من هذا الكائن الإلهي الذي كانوا يصورونه لنا بأنه عازم على حرق كل من يخالف أوامره بنار أبديّة... فكيف لا يخاف المرء إن راح يشكّ بوجوده؟

ومنذ ذلك الحين بدأت أقرأ الكتاب المقدس بطريقة ديكارتية، أي بدون أن أعترف بأي فكرة على أنها مسلّمة إلى أن يقتنع عقلي بها...

وسرعان ما استطعت أن ألقي بكل تلك الأفكار الدينية وراء ظهري و"أتحرّر". وكم كان إعجابي شديداً بفلسفات نيتشه وماركس، التي تحرر الإنسان من كل القيود!

وصرت أستخف بكل الذين يؤمنون بوجود كائنات ماورائية وعوالم أخرى، غير ما نستطيع إدراكها بحواسنا. وإذا كان هناك بالفعل عوالم لا نستطيع إدراكها بحواسنا وعقلنا، فما حاجتنا إليها؟ لندعها جانباً هي وكلّ من يهتمون بها... فنحن الآن في عصر الالكترون والعلم والكومبيوتر والانترنت، هذا ما يمكننا أن ندركه، وليس اتحاد الطبيعتين البشرية والإلهية في أقنوم واحد، واتحاد الأقانيم الثلاثة في طبيعة واحدة. ما هذه الترهات؟ أليس من العيب على إنسان يدّعي العلم في القرن الحادي والعشرين، أن يفكر بمثل هذه الخرافات؟

دارت بي الحياة من مكان إلى مكان، إلى أن استقريت في قريتي مرمريتا أنا وأسرتي، وفتحت عيادتي فيها، وكانت فرصة لالتقائي بالأب الياس سلوم البولسي، على الرغم من توجّسي من كل رجال الدين بشكل عام، واعتباري إياهم أناساً طفيليين على المجتمع يأكلون، وأحياناً يأكلون كثيراً جداً ولا ينتجون. إلا أن الأحداث توالت حتى تعرفت على ذلك الكاهن وأعجبت بثقافته وصدقه،

ونشأت بيننا صداقة متينة، وبدأت أسمع منه أموراً لم أكن قد فكرت بها قبلاً، أعني طريقة جديدة في التفكير بالدين، بحيث بدأت أستمتع بقراءة بعض كتب اللاهوت، وأجد فيها فلسفة جديرة بأن يطلع الإنسان عليها.

إلا أني ما زلت عند موقفي من الأمور الخارجة عن الطبيعة وعن العقل، ومن أن المسيح جدير بأن يكون مثالاً أعلى لأي إنسان بالنظر إلى زهده ومحبته للآخرين، وفكرته عن الله المحب، بالإضافة إلى مواعظه ومناقبه التي تفوق كل النظريات الأخلاقية. أما بالنسبة إلى معجزات المسيح، فهي بالتأكيد من شطحات خيال تلاميذه الذاهلين، الذين دوّنوا عنه ما حدّثتهم به مخيّلاتهم ورؤاهم. وأما عن الحياة الأخرى، فهي حتماً فكرة تراود الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، ويتمسك بها على مر العصور خوفاً من عقدة لازمته دائماً، هي الموت...

وكنت أقول لصديقي الجديد: "إن تعاليم المسيح عظيمة، ولكني لست بحاجة لمسيح ساحر يستطيع فعل المعجزات لكي أصدقه، فكلامه جدير بالتصديق بدون الحاجة إلى السحر...". أما صديقي هذا، فكان يحدثني عن معجزة حصلت في دمشق أثرت به إلى درجة أنه قرر أن يلبس ثوب البتولية، ويحمل رسالة المسيح ويكون كاهناً له... وكنت أبيّن له موقفي مما يسميه معجزة، وأقول: "ليس بالضرورة أن يجري المسيح معجزات لكي نسير في إثر تعليمه...". ولكن من جهة أخرى كنت أفكر ما عسى أن تكون هذه الأمور التي يسميها معجزة، والتي تنطلي على شخص ليس بالإنسان البسيط، بل على درجة عالية من الذكاء أولاً، والثقافة والاطلاع ثانياً؟ لا بد أن وراء الأكمة ما وراءها... وأطلعني في ما بعد على كتاب يبحث في هذا الموضوع "معجزة الصوفانية" للأب الياس زحلاوي الذي كثيراً ما سمعت عنه عندما

كنت مقيماً في دمشق. قرأت الكتاب، فأثارني وأثار فضولي، فالموضوع لا بد أن يكون مهمّاً حتى يحظى بمثل هذا الاهتمام العالمي من قبل لاهوتيين كبار وأطباء وعلماء معروفين في سورية والعالم...

ولكني بقيت أرجح أن الموضوع عبارة عن عملية احتيال كبيرة جداً. فما معنى أن يرشح الزيت من يدي ميرنا؟ إنها لظاهرة معجزة، ولكني قلت في نفسي إنه قد يقدر للعلم أن يشرح هذه الظاهرة في المستقبل. أما أن يرشح الزيت من أيقونة صغيرة، وهي قد فحصت من قبل أجهزة مختصة، في الدولة فتبيّن أن ليس هناك إلا صورة ورقية وإطار بلاستيكي بسيط، فهذا الأمر إما أن يكون معجزة حقاً، إذ إنه يخالف أول مبدأ من مبادئ العلم "لا شيء يخلق من لا شيء"، وإما أن هذا الأمر قد خيّل لبعض الناس بشكل فردي، إذ قد يرى الإنسان ما يودّ أن يراه من هول الموقف، ويرى شيئاً غير موجود وهو في حالة من التأثر النفسي، أو بشكل جماعي في حالة تشبه الهستريا الجماعية. وعلى كل حال، جرّني الفضول إلى زيارة الصوفانية في أول مناسبة ذهبت فيها إلى دمشق، ولكني لم أرَ معجزة ولم أرَ ميرنا نفسها، بل رأيت أناساً يأتون ويوقدون الشموع أمام أيقونة صغيرة موضوعة في بيت زجاجي مقفل، ولاحظت أن ألوان الأيقونة باهتة بشكل واضح، ولكن لا أثر لأي زيت أو سائل آخر.

إلى أن اقترب عيد الفصح في نيسان عام **2001** وفي يوم خميس الأسرار أخبرني صديقي الأب الياس أن الجراح قد ظهرت على جسم ميرنا، وهذا الأمر كان متوقعاً، لأن هذه الجراح كانت تظهر كلما يصادف عيد الفصح عند الكاثوليك والأرثوذكس في يوم واحد، وقال لي: "ما رأيك أن تذهب إلى هناك؟ فقلت: لنذهب". وأنا أفكر أني سأذهب لأرى ما عسى هذه الخدعة أن

تكون... وبالفعل انطلقنا في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وولجنا بيت الصوفانية وكان هناك عدد من الناس يصلّون. أما ميرنا فقد علمنا أنها ترتاح في غرفتها وأن الجراح قد ظهرت حوالي الساعة الثانية بعد الظهر من نفس اليوم. دخل الأب الياس وقدّمني لهم بأني طبيب مختص بجراحة الأذن والأنف والحنجرة، وطلب مني أن أفحص الجراح. وبالفعل قمت بفحص السيدة ميرنا، وعاينت جرحاً في راحتي يديها اليمنى واليسرى، وجرحاً بطول 1 سم أيضاً في جبينها، وجرحاً في خاصرتها تحت الثدي الأيسر بطول عشر سنتيمترات تقريباً. الجراح كلها بعمق 1–2 سم عمقاً، ومازال الدم في مراحل تشكل الخثرة الحمراء الأولى، أي من الواضح أن الجراح بالفعل حدثت منذ عشر ساعات تقريباً ومازالت طازجة، وأرونا على شاشة كاميرا الفيديو ما التقط لحظة ظهور الجراح. ولكن كما كنت أتوقع، لم تظهر الكاميرا لحظة انفتاح الجراح، بل كل ما رأيته هو هذه الجراح التي فحصتها هي بعينها في مرحلة التريف...

وعندما خرجنا، سألني الأب الياس: ما رأيك؟ فأجبت: "كما كنت أتوقع لم أرَ أية عجيبة، كل ما رأيت هو امرأة مجروحة قد يكون أحد ما جرحها أو هي جرحت نفسها بشفرة حادّة أو أداة حادّة". ولكن ما لاحظته هو أني لمست أن الجماعة يعطون انطباعاً أولياً بالراحة والصدق، ولا أثر للكذب خصوصاً ما رأيته من الطفل ابن ميرنا الذي لا أذكر العبارة التي قالها موضحاً التعب الذي لقيه في ذلك اليوم، ثم غفا بسرعة إلى جانب أمه.

كل هذا وغيره أعطياني انطباعاً بأن هؤلاء الناس ليسوا من نوع الدجالين. وعلى كل حال هذا لا يفسر شيئاً. ثم عدنا في صباح اليوم التالي إلى الصوفانية قبل أن نعود إلى مرمريتا، ولم نجد ميرنا إذ أعلمونا أنها ذهبت لتزور الأب معلولي. ولكن لحسن حظنا، والآن أقول بتدبير إلهي، وصلت ميرنا قبل أن

تقلع بنا السيارة. فنزلنا مرة أخرى وقلت لها بعد السلام: "لنر كيف صارت الجراح". واستأذنتها في فحص يدها في الشارع أمام المدخل. فأعطتني يدها لأرى المعجزة التي لا يمكن أن يفسّرها العلم، إذ لم يسجل الأدب الطبي منذ عهد أبقراط وحتى اليوم على حدّ علمي، وأنا الطبيب الجراح الذي أفردت في ما مضى وقتاً طويلاً في دراسة أبحاث الجروح والتئامها من أمّهات الكتب الطبية الأميركية، لم يسجل الأدب الطبي جرحاً يلتئم ويندمل اندمالاً تاماً في غضون عشر ساعات! نعم عشر ساعات. ففي الأمس ومنذ عشر ساعات بالتحديد، وضعت إصبعي في الجرح وعاينته وتفحصته، فإذا هو جرح مثل كل الجروح التي أتعامل معها في مهنتي، ولكن هذا الجرح يحتاج إلى عشرة أيام، لا إلى عشر ساعات، حتى أراه كما أراه وأتفحّصه الآن مندملاً تماماً. لم أستطع إلا أن أرسم علامة الصليب على جسدي وبدأت مرحلة جديدة من حياتي أستطيع أن أعنونها كما يلي: "أن الله لا يناقض العقل بل يفوقه".

وفي يوم السبت عدنا مرة أخرى من مرمريتا، إذ علمنا أن هناك رسالة من السماء تُليت على ميرنا وأن الزيت قد تقطر من الأيقونة حتى كاد يملأ الجرن تحتها.

وصلنا إلى الصوفانية هذه المرة حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. وأخبرونا أن الزيت قد توقف منذ الفجر وليس هناك سوى الزيت الموجود في الجرن، ولكني شعرت شعوراً داخلياً بأن العذراء لن تبخل عليّ ولو بنقطة واحدة من الزيت، لكي ألمس مجد الرب بأم عيني. فاقتربت من الأيقونة ونظرت إليها فيما كان الناس من حولي يصلّون، أما أنا فلم أصلّ معهم كي لا أتأثر نفسياً وأرى شيئاً غير موجود. وسرعان ما رأيت بأم عيني كيف تعرّقت الأيقونة وسالت نقطة كبيرة من الزيت السماوي وسقطت في الجرن لأسمع صوت رنتها في الجرن. وهو ما يزال يردد صداه في أعماقي حتى هذه الساعة...

والناس من حولي أخذوا يسبحون عندما شاهدوا تلك النقطة المباركة، وأخذوا يتابعون القطرات الأخرى.

أما أنا فاستغرقت في صلاة هي أجمل صلاة وأول صلاة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، إذ أحسست بأن الخالق قربي ويغمرني ويريني آياته ليقول لي: "أنظر لكي تؤمن بأن الرسل الذين استشهدوا دفاعاً عن شهادتهم، لم يكونوا إلا على اليقين الذي أنت تلمسه الآن"، بأنهم عاينوا ولمسوا الإله القائم من الموت، إله الحياة ربّنا يسوع المسيح".

مرمريتا 2001/8/7 د. خالد جورج يازجي »

16) الدكتور "موريس كايه" (Maurice CAILLET)

هو طبيب فرنسي. ولد عام 1933، في أسرة ملحدة، فلم ينل العماد. ودرس الطب في كلية الطب في باريس. ومارس عمله في عدد من مشافي باريس، وكان معروفاً باختصاصه في الجراحة والطب الوقائي. كان أحد أبرز من تبنّى التشريع الفرنسي في التشجيع على الإجهاض، عام 1975. انتسب إلى الماسونية ما بين عام 1969–1986. وكان يتعاطى تحضير الأرواح والسحر، واستخدام الطاقة والذبذبات المغناطيسية. واحتل مراكز هامة على نطاق فرنسا كلها، في شؤون الصحة والطب. وكان أن تعرض لإجراء إداري ظالم، بدر من زميل له في المحفل الماسوني الذي كان ينتمي إليه، فشلّه ذلك طوال خمس سنوات، عن عمله الطبي والإداري. وفي الوقت نفسه، كانت صحة زوجته المؤمنة، تعاني من مرض في المعدة، استعصى على كل علاج. فقادته حالته وحالة زوجته إلى تساؤلات شديدة حول جدوى وجوده ووجودها، ومن ثم حول معنى الوجود بوصفه وجوداً.

وخلال هذا الامتحان الطويل والقاسي، حدث له ما قاده شيئاً فشيئاً إلى الإيمان بالمسيحية، فنال العماد، ثم عقد مع زوجته قراناً مسيحياً عام 1988.

وقد رأى نفسه ملزماً بالإفصاح لدائرة عائلته الواسعة عما قاده إلى المسيحية، وذلك من باب الشهادة لله ليس إلا. فوضع كتيّباً يقع في /128/ **صفحة، قامت بنشره عام** 1998 **دار نشر تحمل اسم "أيقونة مريم"** (L'Icône de Marie). **فاخترت منه الصفحات** 13–27، **وقد نقلتها بنفسي إلى العربية.**

« من أسرار المحافل الماسونية إلى نور المسيح

Edition "l'Icône de Marie"

رسالة مفتوحة إلى عائلتي، تمجيداً لله!

(نص القديس بولس:)

يقوم جوهر حياتنا على الاستعداد لأبديّتنا.

والشيء الوحيد الذي أخشاه اليوم، ليس غيابي الجسدي عنكم، بل رحيلي إلى الله، دون أن أكون تركت لكم، ليس خيرات مادية، لم أعرف، أو لم يُتح لي أن أحتفظ بها، بل ثمرة بحثي الروحي. وذلك لكي تعرفوا ما الذي أصبو لأن أكونه، إذ ما من أحد غير الله، سيعرف من أنا. وذلك أيضاً، لكي تعرفوا ما الذي يتوجّب عليّ أن أشهد له الآن، وأنا في بداية عامي السادس والخمسين. فإنه يتوجب على كل إنسان، أن يدلي بشهادته. لا حول ما يملك، أو ما هو عليه، بل حول ما تلقّى من الله. ونحن نميل في الغالب، إلى ما نملك (Avoir)، لا إلى مَن نحن (ETRE)، ونكاد لا نفطن لشكر الله، خالق كل شيء.

في زماننا هذا، زمان انتصار العلوم، والتقنيات على الخصوص، لكم هو سهل تفسير ما يحدث لنا، باللجوء إلى قوى الطبيعة، وعلم الجينات، وعلم

النفس، وفي موقف يتّسم بمزيد من حتمية، باللجوء إلى القدر، بل وإلى الصدفة. غير أن الصدفة لا وجود لها، إذ لا وجود لنتيجة دون سبب، ولا وجود لسبب دون نتيجة.

أقرأ مسبقاً الحيرة أو التشكيك في عيون البعض منكم. فهناك من تحول أحكامهم الإلحادية المسبقة، أو اهتماماتهم الحالية، دون الارتقاء بهم إلى ما يفوق المحسوس. وهناك أيضاً مَن يظهر لهم فكرهم النقدي، التناقض الواضح في أخطاء حياتي. وإني لأسأل الأولين مجهوداً طفيفاً كي يتبعوني بدافع المحبة. أما الآخرون، فأسألهم أن يقرأوني، بعد أن يُسكِتوا أحكامهم، وينتزعوا القشة التي في عيونهم، فيما أنا أنتزع الخشبة التي أعمت عينيّ طوال خمسين سنة. وليثق هؤلاء وأولئك، بأني لم أحجب عنهم محبّتي يوماً، وإن كنت أنا أيضاً، أحياناً، قد ارتكبت خطأً في إدانتهم.

إن هذا المدخل المفاجئ بعض الشيء، يقتضي مني بعض التوضيحات، قبل أن أحاول البوح بما تلقّيت منذ عِمادي والتغيير الذي أحدثته فيّ هذه الولادة الجديدة.

قد يبدو لكم على شيء من الغرابة أو الادعاء، قولي لكم بأني لا أخشى البتة موت الجسد. صحيح أني لا أجهل أن جسد الإنسان، في لحظاته الأخيرة، ينتفض أحياناً ضد هذا الأمر المحتوم، وذلك هو ضمن مشاهداتي الشخصية. إن مثل هذا الأمر يستحق الاحترام، مثلما أن الاحترام واجب للجسد الذي ائتُمنّا عليه زماناً ما، بوصفه رفيق روحنا. ولكني، إن كنت لا أخشى الموت، فذلك لأني واثق أن روحي ستحيا إلى الأبد، بما يسكنها من شخصيتي وذكرياتي وموّداتي، بعد أن ترتدي جسدي الممجّد. وهذا الجسد الممجّد، لن يقع تحت أنظاركم المحدودة، ولكن سيراه أيضاً أولئك الذين سبقونا في الموت، بالقدر نفسه الذي ترون فيه اليوم، ويرى فيه آخرون، جسدي الحالي.

بالطبع، أفترض أن رحيلي سيسبّب بعض الألم لبعض الناس، حتى لمن يؤمنون بالحياة الأبدية، دون أن يكونوا تعمّقوا في سرّها... وأنا أرجو هؤلاء، كما أرجو من يُبدون لي بعض المودّة، أن يعتبروا انفصالنا عابراً، بل وهمياً. وأنا أعدهم بالابتهال من أجلهم، كي يلطّف الله ألمهم، ويمنحهم سلام الروح. وأودّ ألا يكون مأتمي قاتماً، بل أن يترافق بموسيقى مرحة، وأغانٍ مفرحة...

أما الذين يتعنّتون في رفضهم الإيمان بحلول الروح، فإني أسألهم: لماذا يخشون الموت، حتى إنهم يرفضون الحديث عنه، طالما أنهم يرون فيه رقاداً طويلاً وهانئاً؟ ترى، هل خشيتم يوما أن تناموا؟

من أنا؟ وأنت، من أنتم؟ هل تراكم طرحتم هذا السؤال على أنفسكم؟ وإن كنت استخدمت عمداً عبارة "ما أحنّ لأن أكونه"، فإنما ذلك لأعرب لكم عن قناعتي بأن الإنسان كائن في سيرورة، وأن حياته على الأرض، ومن ثم حياته في الآخرة، لا هدف لهما سوى معرفة أصله وغايته، البداية والنهاية، أي الله الذي خلقنا، والذي سيسترجع وجودنا في ذاته، عندما سيتاح لنا أن نفهم الحب الذي هو جوهره.

كل ذلك قد يبدو لكم غامضاً. فلندخل إذن في صلب الواقع:

هل يتوجّب على الإنسان أن يكون وفياً لذاته؟ هل يتوجّب عليه أن يقول في إحدى لحظات وجوده: "هيا، لقد فهمت كل شيء، وبنيت قناعتي حول كل شيء؟ فأنا أعرف من أنا، ولن يغيّر قناعتي أي شيء"؟ فضلاً عن أن ذلك الموقف دليل على كبرياء حمقاء، فإنه دليل أيضاً على ذاكرة قصيرة جداً.

وأياً كان عمرنا، فلنلتفت إلى الوراء: هل كنا أوفياء لصداقاتنا، لعلاقاتنا العاطفية، لقناعاتنا؟ أوَلم يتبدّل ذوقنا في شؤون الفن والأدب، وحتى في ما هو تافه، في شؤون المطبخ؟ وما الذي قد يخجلنا في ذلك الأمر؟ فإن خليقة الله في

سيرورة دائمة: الحجر يتفتّت ويصبح رملاً، والنبات يصبح زهوراً وبذاراً، والحيوان يتغيّر أو يتبدّل، والخلايا البشرية تتجدّد دون توقّف، حتى إن جسدنا المادي، خلال سنوات قليلة، لا يبقى على ما كان عليه. وحدها، بعض الذكريات، وبعض الأشخاص، وبعض الأمكنة المعروفة، يقدمون لنا اليقين بأننا لم نكن في حلم، وأننا مندرجون حقاً في خط التاريخ البشري، ذلك التاريخ الخاضع بدوره لتبدّل متواصل، تماماً كما هو الكون بالذات. ومن ناحية أخرى، فإن كل توقف، إنما هو جمود يسبق التلاشي، هذا التلاشي الذي هو الموت الحقيقي، سواء كان ذلك يعني النبات، أو الحيوان، أو الإنسان، أو الحضارات. فالخلق عمل لا يتوقّف...

لماذا تراني أشهد؟ ولِمَ أشهد الآن؟

أتمنى أن أشهد لأرفع الشكر لله، كما قلت، ولكن أيضاً لأسباب بشرية حقاً ولها ما يبررها، وهي رغبتي في الاعتراف لمن أحب بما يحرّكني. وقد بدت لي الكتابة أكثر السبل فعالية في تحريك القلوب والعقول، فإن كل واحد منا في أسرته، ربما بدافع الخجل، أو بدافع الخوف من التبعية لسواه، يتحاشى المناقشات حول ما هو جوهري، ويتظاهر بأن الأمر لا يعنيه، أو هو يحتمي بموقف متشكك، ما لم يصبّ سخريته على بعض التساؤلات التي تمسّ حياتنا، أي روحنا، في عمق.

ولماذا أشهد الآن؟

لأني نلت موهبة الروح القدس، يوم 1989/1/28، في "دير يسوع ملك الحب"، في بلدة "سان بورلادر" (Saint-BORLADRE). وإن هذا الروح طلب إليّ أن أحمل شهادتي لعائلتي أولاً. ولقد قال المسيح: "كل من يعترف بي قدام الناس، أنا أيضاً أعترف به قدام أبي الذي في السماوات".

لست أشك من أن هذه الأسطر القليلة، سوف تزيد حيرة البعض، وتشكيك الآخرين.

...

أعرف أن البعض يَرَون في حركة التجدد الكارزمي، بدعة، في حين أنها حركة منفتحة، حرة، تجدّد الكنيسة، أي جماعة المسيحيين، بواسطة تجلّيات روح الله، كما حدث يوم العنصرة، ويحدث في الأزمنة التالية...

اقرأوا، أو أعيدوا قراءة كتاب أعمال الرسل، في فصله الثاني. وإن البابا يوحنا بولس الثاني قد استقبل في شهر أيار من عام 1981، ممثلي هذه الحركة. وبدل الإصرار على اتهام الملايين بالجنون، وبدل إلغائهم تبعاً لمفاهيم مبسّطة، يجدر بنا أن نتوقّف، لنصغي ونبحث.

وأياً كان الأمر، فالإيمان هو أبداً جنون في نظر حكماء العالم، هذا العالم الذي فقد بوصلته، فانتزع كل قدسية عن جميع القيم، الأمر الذي يقود إلى إفساد الأرواح والطبيعة. وأنا، بعد الذي عشته، لا يسعني أن أصمت.

...

اغفروا لي إذن إقحامكم في أوضاعي الروحية، التي ستصدم أوضاعكم، إذا كنتم، كما أرجو وأريد، لاتزالون على شيء من المودّة حيالي.

إن الشهادة لواجب، عندما يتنازل الله ويتدخل، ولو قليلاً، في حياتنا. وأنا لست بالمختار، ولا بالنبي، وهيهات لي من الكمال. وأنا، إذ أحاول أن أكون قديساً، لست سوى حامل بسيط لبشرى، وهي بشرى متواضعة، كي أذكّر أفراد عائلتي بأن الله قادر على اقتحام حياتهم، إن هم فتحوا له الباب قليلاً... ليس إلا. وليس لكم أن تتصوروا أن الله اقتحم حياتي عنوة. فإن نهجه التربوي لعلى جانب عظيم من الوداعة، وهذا النهج هو الذي يشهد لحبه

الذي يحترم حريتنا احتراماً عظيماً. وهو، بالتأكيد، يرجو اهتداء كل منا، أي انعتاقنا من الإنسان القديم، القاسي والمتصلب، القابع في كل واحد منا، أياً كان عمرنا، كي يصبح إنساناً جديداً، يؤمن بأنه ليس بوحيد في عالم فقد كل دلالاته، وأنه محاط برعاية من القوات السماوية، الحانية، وأنه ليس مقيداً بعقائد وطقوس وممارسات، بل هو متحرّر من عقد الذنب جميعها، ومن جميع ما يسبب له ضيقاً وخوفاً، انطلاقاً من الموت الذي لا يتحدّث عنه أحد، وبكلمة واحدة، إنه إنسان حرّ في علاقة من الحب بينه وبين الخالق والمخلوقات كلها.

لا أشك في أن بعض الناس سينتابهم الانزعاج لدى قراءتهم ما سبق، ذاك الانزعاج الذي يشعر به المرء إزاء خطاب محفوظ ومكرر... وأنا أطلب من الذين عرفوا تمسّكي بالحرية، أن يعترفوا لي بأني لست ممن يتقبّلون منظومة عقائدية ما، إن لم أقدم على ذلك بملء حريتي، وأنني لست ممن يسلمون قيادهم لمطلق إنسان. أنا لم أهب ذاتي إلا لزوجتي ولربي: ولقد وهبت ذاتي في حرية. "أنت لست عبداً، بل أنت ابن" (غلاطية 7/4).

أجل، لقد اقتحم الله حياتي، إذ كنت في بؤس وذل. في بؤس، لأن الإنسان، إنما هو يطلب العون من الله، عندما يستبد به الضياع، وإنه ليستجيب. وفي ذل، لأن الله، وإن كان يحب الاتضاع، فهو لا يريد أن يرى أبناءه أذلاّء.

"إن الله قريب من القلوب المنكسرة، وهو يُنقذ الأرواح المهزومة" (مزمور 16/34)

ليس في نيتي أن أستفيض بشأن البؤس، الذي كنت أعاني منه في مطلع عام 1984. يومها كنت على بينة، أنا الطبيب والجراح، مع زملائي، أنه لم يعد

بوسعنا أن نخفف من آلام زوجتي كلود، الهضمية، التي كانت تحول منذ أشهر، دون تناولها من الأطعمة، سوى قليل من الأرز والجزر، فيما القروح في معدتها كانت تسبّب لها آلاماً تفقدها الوعي أحياناً. كان اليأس قد بلغ بنا أقصى مداه، فركبنا السيارة، وفيما كانت كلود مضطجعة داخلها، قصدنا منطقة جبلية، أملاً منا بأن يجلب لنا تغيير المكان والمناخ، بعض الراحة لها. إلا أن هذا الانتقال لم يكن موفقاً، إذ إن كلود أمضت معظم وقتها في السرير. ويومها كنا في جبال "البيرينيه"، بالقرب من بلدة "لورد" (Lourdes). فخطر ببالي أن مرورنا بهذه البلدة، إن لم يحمل لكلود شيئاً من الأذى، فإنه قد يعود عليها ببعض الفائدة، أقله على الصعيد النفسي. تلك كانت درجة قناعتي! إلا أن هذه التأثيرات النفسية كانت في الحقيقة كارثية. ذلك بأن كلود كانت تدرك بوصفها ممرّضة، خطورة وضعها. إلا أنها لم تكن تتوقع مدى ما بلغه من خطورة، حتى يقترح عليها زوجها، زوجها الطبيب ذو النزعة العقلانية والعلموية، زوجها الماسوني المعادي لرجال الكنيسة، أن تغتسل في مياه "لورد" العجائبية! وكانت من الشجاعة بحيث أنها لم تقل شيئاً عندها، ولكنها، إذ كانت تحافظ على إيمانها المسيحي بقوة، استبدّ بها الخوف من خطر آخر، وهو أن يُمنى مسعانا بالفشل، فيصاب زوجها بمزيد من التشكيك والإلحاد. ذلك كان وجه البؤس.

أما وجه الذل، فهو في ما حدث لي في أحد أيام عام 1983، إذ قرّر مديري وصديقي، وهو ماسوني مثلي ومعي في المحفل ذاته، قرّر في فظاظة ودون أي مبرّر. أن يحطّمني، فانتزع مني جميع وظائفي، ومسؤولياتي بوصفي الطبيب المسؤول في مركز الفحوص الصحية، وضيّق عليّ في مكتبي، فقطع عني جميع الاتصالات، وحرّم عليّ الخروج مما كنا نسميه "الخزانة" أي مكتبي. وقد فعل

كل ذلك، بعد نجاحي في عملي، وهو نجاح استطال خمس سنوات، حيث كانت لي مشاركات علمية في مؤتمرات ومجلات طبية، وأنيطت بي مسؤوليات في نطاق لجان وزارة الصحة والصندوق الوطني، وتعيينات في الجمعيات الطبية، بل وحصلت على جائزة في إحدى المسابقات الوطنية. وفجأة أطبق علي الفخ، ووجدتني منعزلاً، في صمت، في غفل، دون هاتف، دون أمانة سر، دون بريد، بل ودون قراءة للمجلات الطبية. كل ذلك تعرفونه، أقله في خطوطه الكبرى، ولكم أن تتصوروا للحظة، ما عسى أن يكون تأثير هذا الذل والألم، على إنسان في الخمسين من العمر، عرف النجاح في قطاعين مختلفين في الطب، كما هما قطاع الجراحة وقطاع الطب الوقائي، إذ وجدت نفسي خلال أيام قليلة منبوذاً، بفعل إنسان مصاب بمرض السلطة، كما هو الحال المتفشي اليوم في عالم يظن فيه الناس أن السلطة تنبع منهم. وأنا أجهل للأسف أسرار الله، ولكني، بعد مرور بعض الوقت، تساءلت ما إذا كان الله سمح لي بعبور هذا الامتحان، كي يجنبني الوقوع بدوري في هذا المرض الرهيب.

وأما الذين يرتابون من صحة هذه القضية، فإني أحيلهم إلى قرار محكمة الاستئناف، الذي أعاد إلي، بعد خمس سنوات، اعتباري الكامل، دون الأخذ بأي ظرف ملطف حيال ذاك الخصم الذي غفرت له جنونه. ولقد حدثت مضايقات مماثلة مع زوجتي كلود، في شهر نيسان من عام 1984... أما جلادي المسكين، فقد حلّ به عقاب بعد أشهر قليلة من نشوب النزاع بيننا، إذ إن الله سمح للقوى التي استخدمها ضدي، أن تحمل ابنه، الذي كان بحق، كثير الافتخار به، على الانتحار. إلا أني أخشى ألاّ يكون قد تعلّم الدرس، لأنه تابع الاستبداد بأطباء آخرين، وبعضهم ماسوني مثله. إنه يجهل أن البغض

الذي يطلقه الإنسان، سيرتد على صاحبه عاجلاً أو آجلاً. ولنحذر من تحريض كلابنا ضد الآخرين، فقد يمزقوننا نحن أيضاً ذات يوم.

في هذا الظرف من البؤس والذل، مضيت بزوجتي "كلود" إلى "لورد". كنا في البدء من شهر شباط، وكان الطقس صقيعياً وماطراً. وتقدمت "كلود" من الحمامات، وهي ترتجف برداً وخوفاً. هكذا تصورتها، وهذا ما أسرّت لي به. أما أنا فقد بحثت عن ملجأ لي، ووجدته في مغارة الكنيسة الكبرى. كان ثمة قداس يُقام. لم أكن في حياتي قد شاركت في قداس، أو بالأحرى لم أكن في حياتي قد اكترثت به، إبان قداس الأعراس أو المآتم، التي كنت أحضرها بحكم التزاماتي الاجتماعية. وكنت، قبل التزامي بالماسونية، أرى في القداس طقساً بالياً، ضرباً من الخرافات التي تستخدم لجلب رضا السماء، مثلما أن البدائيين كانوا يحاولون بشتى الطرق جلب رضا الأرواح الخيّرة عليهم، وإقصاء أذى الأرواح الشريرة عنهم.

إلا أني في هذه المرة، لم أستطع أن أتابع القداس في لامبالاة أو تعالٍ. كان قلبي منشطراً. فقد كنت قمت بخطوة، لم تكن متوقعة من قبل إنسانٍ مكابر مثلي، مع أن الظروف كانت قد أوهنت ظهري. فأخذت أصغي، وسمعت كلمات للرب، تخاطبني أنا شخصياً، كلمات كنت قد كرّرتها في محافلي الماسونية، دون أن أعلم أن يسوع كان هو من تلفّظ بها. "اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا. اقرعوا، يُفتحْ لكم". (متى 7/7)

لقد كنت أتيت لأطلب وأفرح، دون أن أدرك حقاً خطورة خطوتي. كنت أبحث عن هذا النور الشهير في الممارسات الماسونية، فرأيت الكاهن يقدّم القربان بوصفه الحضور الحي للمسيح. وقد سألني الروح القدس، الذي لم أكن قد سمعت عنه شيئاً في ما مضى"، ماذا كنت أودّ أن أقدّم، لأسأل شفاء

"كلود". ومع أني كنت أجهل كل شيء عن كل ما هو تقدمة، لم أستغرق وقتاً طويلاً، لأدرك أنه لم يكن لي سوى ذاتي أقدمها لله. إن ذلك لأمر يسير، ولكنه لم يكن بالشيء القليل بالنسبة إلى ملحد استهتر بالمقدسات طوال أربعين عاماً، وكان يتّهم الحضارة المسيحية – اليهودية بإرهاق البشر بعقد ذنب رهيبة، تخلّف بعد ملذّات الأرض، مرارة! وفي نهاية القداس، تبعت الكاهن إلى "السكرستيا"، وسألته أن يعمّدني، ولم أكن أعرف أنه لا بد من التحضير في سبيل العماد. فحاول سبر مداركي العقلية، ومعرفة أوضاعي السابقة. فعلم في ذهول أنني كنت ماسونياً...

حملت معي من لورد، أن الله يعرف أكثر منا، ما يناسبنا، فبدل أن يشفى جسد "كلود"، أخذ يشفي روحي ونفسي. وعلى كل حال، فإن وضع "كلود" قد تحسن بصورة سريعة، إذ إنها استطاعت، بعد ذلك بشهرين فقط، أن تحضر عمادي، وتعود إلى عملها، بشيء من الصعوبة، ولكن في شجاعة. »

الفهرس

إهـــداء 5

1) جاك فيش (Jacques FESCH) 7

1- الكتلة الأولى 8

1. إلى الكاهن مرشد السجن: (ص 23- 27) 8

2. في رسالة إلى صديقه الراهب، بتاريخ 1955/4/26: (ص33-34) 10

3. في رسالة إلى الراهب نفسه، بتاريخ 1955/6/8: (ص 34-37) 11

3. في رسالة إلى زوجته - بدون تاريخ (ص 38) 12

4. في رسالة إلى صديقه الراهب، بتاريخ 1955/12/5: (ص 48-51) 13

5. إلى صديقه الراهب في 1957/8/15: (ص 107-109) 14

الكتلة الثانية: رسائل قبل إعدامه (1957/9/30) 16

1. من رسالته إلى الكاهن مرشد السجن: (ص 121-122) 16

2. رسالته إلى محاميه (ص 122-126) 17

3. من رسالته إلى والدة زوجته: 18

4. رسالة إلى الراهب، صديق طفولته (ص 127-128) 19

5. آخر ما دوّنه في دفتر يوميّاته.(ص 130-133) 20

2) ألكسي كاريل 23

3) تاتيانا غوريتشيفا (Tatiana GORITCHEVA) 56

4) اندريه فروسار (André FROSSARD) 1915-1995 69

5) أجراس ناكازاكي (ص 16-22) 79

6) "توماس مِرتُون" (Thomas MERTON) 84

7) هوغ ماري 92

8- "نيقول فاليري" (Nicole VALÉRIE) – (1919-1998) 104

9) "دوغلاس هايد" (Douglas HYDE) 124

10) "أندريه لوفيه" (André LEVET) 153

11) "اينياس ليب" (Ignace LEPP) (1909-1966) 172

12) "شارل دو فوكو" (Père Charles de FOUCAULD).....184
عبادة الشيطان وطقوسها 196
"القداس الأسود" 196
13) شابة جريئة:.....204
14) الأستاذ ندرة اليازجي.....219
15) الدكتور خالد يازجي.....224
16) الدكتور "موريس كاييه" (Maurice CAILLET).....230